د. قاسم عبده قاسم

عصر سلاطين المماليك

دار الشروق

عصر

سلاطين المماليك

د. قاسم عبده قاسم

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

القاهرة . ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس . ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس . 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨٦٧٥٥٥ - تلكس SHOROK 20175 LE

الإهداء

إلى مصر . . . . . الحب الذى نسيناه

قاسم عبده قاسم

مقـــــدمة

ما تزال الدراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى قليلة إلى حد الندرة على الرغم من عمق التاريخ المصرى ومدى المساهمة المصرية فى تاريخ العالم . وعلى الرغم من هذا العمق وهذا المدى فإن قصة الحضارة التى صنعها المصريون على ضفاف النيل ماتزال تستحق مزيداً من الدراسات الجادة فى شتى عصورها . وفى ظنى أن فهم الإنسان المصرى ، وضرورات التنمية للخروج به من وهدة الأزمة والشدة اللتين يعانيهما الآن ، يستدعيان مزيدا من دراسة التاريخ الاجتماعى للمصريين فى مختلف عصورهم التاريخية .

ومنذ قدمت عدداً من الدراسات حول تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين المماليك سنة ١٩٨٣ ، لم أستطيع أن أنجز سوى ثلاث دراسات إضافية تشهد بعجز الجهد الفردى وتدعو إلى مساهمة جماعية لدراسة تاريخنا الاجتماعى .

وفى هذه الطبعة التى تقدمها دار الشروق ، أقدم دراستين جديدتين حول تاريخ مصر الاجتماعى فى هذه الفترة ، مساهمة متواضعة ودعوة إلى مزيد من مساهمات الزملاء فى هذا المجال .

والله الموفق والمستعان

الهرم . أغسطس ١٩٩٣

د . قاسم عبده قاسم

مدخل

ظروف قيام دولة سلاطين المماليك (من هم المماليك ؟ ـ الظروف السياسة الخارجية ـ الحملة الصليبية السابعة ـ معركة عين جالوت ـ المتاعب الداخلية) ـ المفاهيم السياسية للعصر وتعبيراتها : نظام الحكم (القوة العسكرية ـ الواجهة الدينية) النظام الإقطاعى ـ البناء الاجتماعى ومدلولاته .

«المماليك» ، كما يتضح من مدلول اللفظ نفسه ، هم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامى ، لاسيما فى مصر والشام ، فى صراعهم ضد بعضهم البعض فى خضم الفوضى السياسية التى نشبت مخالبها فى هذه الأنحاء عقب وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى . وكان اولئك الحكام المتنازعون يشترون المماليك صغاراً فى سن الطفولة ينشئونهم تنشئة عسكرية وسياسية خاصة ليكونوا عدتهم فى الصراع المرتقب . وبدأ عنصر المماليك يتزايد فى جيوش أولئك الحكام مما أدى إلى ازدياد دورهم فى الحياة السياسية فى مصر والشام منذ أخريات القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

ويُعد السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م) المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذى أدى إلى استيلائهم على الحكم عقب وفاته . ذلك أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ، ولهذا اشترى عدداً كبيراً من المماليك الذين دربهم ليكونوا غالبية جيشه [(١)]. وكان هؤلاء المماليك من عناصر مختلفة من الأتراك والمغول والصقالبة والإسبان والألمان والجراكسة . . وغيرهم . إلا أن غالبيتهم فى عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز ، على حين كانت معظم عناصرهم فى الدولة الثانية (الجراكسة) من الجراكسة . . .

وجاء العدوان الصليبى على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩م) فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك فى الدفاع عن العالم الإسلامى . فقد كانت للخطة التى وضعها بيبرس البندقدارى ونفذها فرسان المماليك فى شوارع المنصورة أثرها فى هزيمة جيش الصليبيين ، ثم

(١) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ص ٣٣٩ .

استطاع هؤلاء بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تماماً على الجيش الصليبي ، وأسر لويس التاسع نفسه (٢).

وفى خضم الصراع ضد الصليبيين توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وقامت زوجته شجر الدار بإدارة شئون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك . وحين تولى توران شاه العرش اصطدم بطموح شجر الدر من ناحية ، وبقوة المماليك البحرية من ناحية ثانية ، وانتهى الصدام بمصرعه على نحو مأساوى مروع (٣) . ثم تولت العرش شجر الدر أول سلاطين المماليك فى مصر والشام .

هكذا إذن كانت الدولة استجابة لظروف العالم الإسلامى فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . ففى ذلك الحين كان على العالم الإسلامى أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذى كان يتعرض له من الشرق ومن الغرب على حد سواء . ففى الأندلس كانت الحرب الاستردادية قد نجحت فى تقليص المساحة الإسلامية على خريطة إسبانيا ، على حين كانت البابوية تسعى لعقد تحالف مسيحى ـ وثنى بين الغرب اللاتينى والمغول لحصار العالم الإسلامى . وفى الوقت الذى كانت قوات لويس التاسع تخوض فى مياه البحر المتوسط قبالة دمياط ، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوى بلدان الشرق الأوسط ، وهى تقرب من عاصمة الخلافة العباسية فى بغداد .

وكان انتصار المصريين على الصليبيين بين المنصورة وفارسكور ، بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك ، وإذا كان بعض المؤرخين يعتبر أن الدولة الوليدة مرت بفترة تجربة استمرت عشر سنوات ، فيما بين معركة المنصورة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م) ومعركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م(٤) ، فإننا نرى أن معركة عين جالوت بنتائجها الحاسمة كانت تأكيداً للدور الذى اضطلعت به دولة سلاطين المماليك منذ مولدها ، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامى . فللمرة الأولى فى تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بدون خلافة بعد مقتل المستعصم بالله العباسى فى بغداد سنة ٦٥٦ هجرية . وانجلى هذا الحدث الذى زلزل أركان العالم الإسلامى عن تغيرات كبيرة فى موازين القوى العالمية . وكان على دولة المماليك الناشئة أن تتصدى للخطر التترى ، فانتهز قطز الفرصة . وعزل السلطان الطفل « المنصور على بن المعز أيبك » وتولى سلطنة البلاد تحت اسم « السلطان المظفر سيف الدين قطز » . وتمكنت جيوش الدولة الجديدة من كسر الموجه التترية الطاغية وبذلك تأكد دورها كقوة حامية للعالم الإسلامى .

ولكن بطولات المماليك فى المنصورة وفارسكور وعين جالوت لم تكن لتشفع لهم أو تغير من نظرة المعاصرين لهم باعتبارهم عبيداً لايحق لهم الجلوس على عرش البلاد . فمن المعروف أن النظرية

---

(٢) عن تفاصيل هذه المعركة انظر محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، (القاهرة ١٩٦١) ، ص ١٤٥ ـ ص ٢٠١ .

(٣) يذكر المقريزى أن المعظم توران شاة مات « . . . جريحًا حريقًا غريقًا » (السلوك ج ١ ، ص ٢٥٩ ص ٢٦٠) .

(٤) جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية (دار المعارف ١٩٦٧) ، ص ١٧١ ـ ص ١٧٢ .

السياسية الإسلامية تجعل من شروط الحكم أن يكون الإمام « حراً » . ومن ثم فإنه تعين على السلاطين المماليك أن يواجهوا متاعب عدم الاعتراف بهم كحكام شرعيين منذ البداية . فقد ثارت عليهم القبائل التى كانت قد استقرت فى مناطق مختلفة من مصر منذ زمن بعيد . وقد رفض أبناء هذه القبائل العربية ، التى تركزت فى أقاليم الشرقية والبحيرة والصعيد على نحو خاص ، أن يقبلوا الخضوع لحكم المماليك . وتمثل هذا الرفض فى ثورتهم التى تزعمها « حصن الدين بن ثعلب » أحد شيوخهم . وثمة عبارة ينسبها المؤرخون إلى هذا الرجل هى : « **نحن أصحاب البلاد ، بل وإنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على هذه البلاد** » (٥) . هذه العبارة تفسر تلك النظرة التى نظر بها المعاصرون إلى المماليك ، وعدم اعترافهم بشرعية حكمهم . وعلى الرغم من أن « عز الدين أيبك » تمكن من القضاء على هذه الحركة ، فإن الدولة الناشئة كانت ماتزال بحاجة إلى تثبيت دعائمها .

ومن ناحية أخرى ، كان من الطبيعى أن يرفض الملوك الأيوبيون فى بلاد الشام الاعتراف بشرعية حكم سلاطين المماليك . كما أن المماليك . قد أدركوا منذ البداية عدم قدرتهم على الحكم بأنفسهم لافتقارهم إلى الشرعية الضرورية للحكم ؛ ويذكر المؤرخ ابن أيبك الدوادار أن المماليك حين واجهتهم المقاومة الأيوبية لحكمهم أيقنوا أن الحكم لن يخلص لهم بسهولة ، وقالوا : « **لايستقيم لنا الأمر إلا أن نُملِّك أحداً من بنى أيوب** » . **فاتفق أمرهم على موسى بن الملك المسعود أقسيس ابن السلطان الملك الكامل ، وكان صغير السن فأقاموه** . . (٦). إلا أن هذه المحاولة لم تخمد نيران الغضب فى صدور الأيوبيين الذين رأوا فى المماليك مجرد غاصبين استولوا على مصر ، درة الأملاك الأيوبية . وكان لابد للسيوف أن تحسم الصراع لصالح أحد الطرفين. وبالقرب من مدينة الصالحية فى محافظة الشرقية الحالية دارت المعركة بين المماليك والأيوبيين . وكانت الهزيمة من نصيب الجيش الأيوبى . بيد أن هذه المعركة لم تكن نهاية المطاف بالنسبة للصراع بين المماليك فى مصر وبنى أيوب فى بلاد الشام، فقد استمر هذا الصراع حتى تم القضاء على المقاومة الأيوبية بشكل نهائى فى عهد السلطان الظاهر بيبرس (٧).

وهكذا كان على سلاطين المماليك أن يبحثوا لسلطنتهم الوليدة عن سند شرعى يدعمون به حكمهم فى نظر معاصريهم ، ومنذ البداية حاول السلطان المعز أيبك أن يُعلن تبعيته للخلافة العباسية ، لتكون هذه التبعية سنداً له فى صراعه ضد ملوك بنى أيوب . ثم كان إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) بمثابة الحل السعيد الذى وجده السلطان الظاهر بيبرس للخروج من أزمته . ففى هذه السنة بويع الأمير أحمد ابن الخليفة الناصر لدين الله بن المستضىء بالله خليفة فى القاهرة ، وقد أصدر الخليفة تقليداً للسلطان الظاهر بيبرس بحكم « . . . البلاد

(٥) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

(٦) ابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص ١٣ .

(٧) جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٥١ ـ ص ١٥٤ .

الإسلامية، وماينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . . . » [٨]. وهو مايعنى حصول بيبرس على تفويض شرعى من الخليفة العباسى بالحكم ، وقد ذكر السيوطى أن بيبرس حصل على لقب « قسيم أمير المؤمنين » الذى لم يحصل عليه أحد قبله [٩].

ويجدر بنا أن نشير إلى أن ظروف قيام سلطنة المماليك من جهة ؛ والوضعية القانونية للسلاطين «كمماليك » من جهة ثانية ، قد حددت أبعاد النظرية السياسية لذلك العصر ، وهو مايعنى أن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك كانت نتاجاً لظروف قيام الدولة ، وحقيقة أن هؤلاء الحكام لاينتمون إلى أسرة حاكمة ، بل أنهم ليسوا أحرارا وإنما « مسهم الرق » . ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية فى أن أمراء المماليك اعتقدوا أن عرش البلاد حق لهم جميعا يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، وهو الأمر الذى تأكد منذ بداية الدولة ، سواء فى مصرع أيبك وشجر الدر ، أو فى اغتيال « بيبرس » « لقطز» وهو عائد بنصره الكبير على المغول فى عين جالوت ؛ وكانت الزينات قد أعدت لاستقباله ، ولكن بيبرس دخل القاهرة ليجلس على عرش السلطان الذى قتله ، ولينعم بحفاوة الاستقبال الذى كان معداً لسلفه وضحيته[١٠] . وهكذا تقرر منذ البداية مبدأ « الحكم لمن غلب» .

وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين ، أحدهما يتمثل فى القوة العسكرية للسلطان وهى القوة التى يجسدها مماليكه . ويتمثل الجناح الثانى فى الواجهة الدينية التى حرص السلاطين على التخفى وراءها طوال ذلك العصر .

ونتيجة لهذا ـ وربما يكون من أسبابه أيضا ـ كان لابد لنظام الحكم أن يعتمد على نظام الإقطاع العسكرى الذى كان امتداداً لما كان سائداً فى العصر الأيوبى . فقد كان لكل من السلطان والأمراء جيش من المماليك الذى يعتمد عليه فى تدعيم سلطته أو فى الصراع ضد الآخرين . وفى ظل هذا النظام كانت أقوى الروابط بين المماليك هى رابطة « الأستاذية » التى تربط الأستاذ (السيد) بمماليكه ، والخشداشية (الخجداشية) التى هى رابطة الزمالة التى تجمع بين المماليك فى طائفة واحدة .

---

(٨) انظر نص هذه الوثيقة فى المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص ٤٥٣ ـ ص ٤٥٧ .

(٩) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٨٧ ، انظر عن إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة : ابن أيبك الدوادار . الدرة الزكية ، ص ٧٢ ـ ص ٨٠ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٢٨ ، ق ١٨ (مخطوط) ؛ المقريزى السلوك ؛ ج ١ ، ص ٤٤٨ ـ ص ٤٥٠ ؛ السيوطى تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٨ ـ ص ٣٢٩ ، ومن الثابت أن الخلفاء العباسيين فى القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى اسمها . انظر ابن الصيرفى ، إنباء الهصر بأنباء العصر . ج ١ ، ص ١١٥ .

(١٠) ابن أيبك الدوادار : الدرة الزكية ، ص ٦١ ـ ص ٦٣ ؛ المقريزى ، السلوك ،ج١ ، ص ٤٣٥ ـ ص ٤٣٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٧ ، ص ٨٣ ، ٨٧ .

ولما كانت الإقطاعات هى الوسيلة الوحيدة الممكنة لإعالة هذه الجيوش الصغيرة فقد قسمت الأرض الزراعية فى مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، استأثر السلطان منها بأربعة قراريط . وخصص للأجناد عشرة قراريط ، على حين وزعت القراريط العشرة الباقية على الأمراء [١١] . وعلى الرغم من أن الإقطاعات قد أعيد توزيعها أكثر من مرة فيما عرف آنذاك باسم الروك (وهو فك وتعديل زمام البلاد من الأراضى الزراعية) فإن هذه الأراضى ظلت وقفاً على السلطان والأمراء ومماليكهم ، ولم يبق للمصريين غير زراعتها وتسليم محصولها إلى الحكام .

وكان من الطبيعى فى ظل هذا النظام الإقطاعى أن يكون المجتمع المصرى فى عصر المماليك مجتمعاً طبقياً فى علاقاته واتجاهاته . وهو الأمر الذى انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة فى مصر آنذاك . بيد أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن المجتمع المصرى لم يبق على حال من الجمود والثبات طوال عصر سلاطين المماليك . فالواقع أن المجتمع المصرى فى عصر الجراكسة قد اختلف عنه فى عصر البحرية . ذلك أن الصورة الزاهية الزاخرة بالحركة والحيوية للحياة المصرية فى أوائل ذلك العصر كانت تعبر عن مجتمع إقطاعى فى دور صعوده ، فقد كان البناء السياسى متيناً محكماً ، وعلى قمة السلطة تربع السلاطين الأقوياء القادرون من أمثال الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاون ، والنصر محمد بن قلاون الذين استطاعوا أن يحكموا قبضتهم على أمرائهم ومماليكهم ، وأن يرسوا دعائم الأمن والاستقرار . ولذا كانت الدولة قادرة فى الداخل ، مهابة فى الخارج . وساعدهم على ذلك نشاط زراعى مزدهر بفضل العناية بمرافق الرى ، وثروة كبيرة من عائد تجارة المرور ، ونظام إقطاعى صارم يحكم المماليك . وأدى ذلك إلى خلق نوع من الاستقرار النسبى (على الرغم من بعض مظاهر الاضطراب التى شابته أحيانا) . ولكن التدهور الذى ألم بالبلاد منذ بداية القرن التاسع الهجرى تقريبياً (الخامس عشر الميلادى) جعل الألوان الزاهية فى صورة المجتمع المصرى ، تتراجع أمام الظلال والألوان القاتمة الحزينة التى جاءت إيذانا بمغيب دولة وسقوط حضارة عاش العالم الإسلامى فى ظلها الظليل زمنا طويلا .

هذا المجتمع الطبقى انقسم فى بنائه إلى طبقتين رئيسيتين هما : الحكام والرعية : أى السلطان وجهازه الحاكم بجناحيه العسكرى والمدنى ، وأبناء الرعية من المصريين المحكومين . ومع تسليمنا بوجود الفوارق والاختلافات داخل كل من هاتين الطبقتين ، فإن واقع المجتمع المصرى فى ذلك العصر يكشف أن كلا منهما قد عاشت حياتها الاجتماعية بمعزل عن الطبقة الأخرى تقريبيا . وقد قسم المؤرخ « عبد الرحمن بن خلدون » المجتمع المصرى آنذاك إلى « سلطان ورعية » [١٢] وهو ما يكشف عن إدراكه لحقيقة الواقع الطبقى آنذاك . وفى تصورنا أنه يقصد « بالسلطان» الجهاز الحاكم والفئات التى تعيش على هامشه من المصريين ، أما « الرعية » فهم المصريون بجميع طوائفهم

(١١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج١ ، ص ٨٧ .
(١٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨٣ .

وفئاتهم . ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة . فإن ذلك كان أبعد مايكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيداً فى طفولتهم ، وإنما كان على الرعية أن تقدم ثمار عملها إلى الحاكم الذى لم يكن هو وأمراؤه يرون فى مصر وأهلها سوى وسيلة من وسائل الإثراء السريع . وقد عرفت الضرائب فى هذا العصر بأسماء مختلفة مثل « المغارم » « والكلف» «والمظالم» مما يعكس رأى الناس فيها . ومن ناحية أخرى ، فإن حكومة المماليك لم تكن تلتزم تجاه الرعية بمسئوليات عامة فى مجالات التعليم والصحة والتغذية وغيرها على نحو ما سنرى فى الدراسات التى يضمها هذا الكتاب .

وإذا كان المؤرخ تقى الدين المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) قد قسم المصريين فى عصره إلى سبع طوائف(١٣) ، فالواقع أن تقسيمه هذا لم يكن تقسيماً طبقياً ، بل إنه ـ فى تصورنا ـ اقترب من التقسيم الذى وضعه أستاذه ابن خلدون إلى حد كبير . ذلك أن المقريزى جعل « أهل الدولة » على قمة التقسيم الفئوى الذى وضعه للمجتمع المصرى ، ثم بيَّن تفاوت المستوى الاقتصادى لكل فئة حسب نشاطها فى المجتمع . والواضح ، أيضا ، أن المقريزى لم يرتب هذه الفئات أو الأقسام وفقا لمستواها الاقتصادى : فقد جعل : « أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية » على قمة الرعية . يليهم « متوسطو الحال من التجار » وأرباب السوق ، ثم يضع بعدهم الفلاحين وسكان الريف والقرى ، قبل الفقهاء وطلاب العلم وأجناد الحلقة الذين يجعلهم فى القسم السادس ، على الرغم مما هو معروف عن مدى تدهور الفلاح وحالته التى اقتربت من العبودية فى ذلك العصر (١٤) كما أنه . من ناحية أخرى ، يجعل الشحاذين والمتسولين « الذين يتكففون الناس ؛ ويعيشون منهم » قسماً سابعاً . ونخلص من هذا إلى أن المقريزى قد رأى أيضا أن مصر فى ذلك الحين حاكم ورعية ، وهو الأمر الذى تشى به كتاباته وتعليقاته على الحوادث التى يسوقها فى مؤلفاته . ذلك أنه اكتفى بذكر أهل الدولة دون أن يوضح نشاطهم الاقتصادى ، ثم يبدأ يوضح دور كل فئة من فئات الرعية وفقاً لرؤيته الخاصة .

وفى رأينا أن المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك كان مجتمعاً يقوم على بناء طبقى حاد . فثمة طبقة من الحكام العسكريين لهم كل الحقوق والامتيازات ، ويمتلك أفرادها الأرض الزراعية التى

---

(١٣) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٧٢ ـ ٧٣ . وتقسيم المقريزى لأهل مصر فى عصره : أهل الدولة من الحكام المماليك ، ثم أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، ثم الباعة أو متوسطو الحال من التجار والسوقة ، ثم أهل الفلح يتبعهم الفقراء الذين يقصد بهم « جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم » . والقسم السادس أرباب الصنائع وأصحاب المهن ، يتلوهم القسم السابع من ذوى الحاجة والمسكنة .

(١٤) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨١١ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، (النهضة العربية ١٩٦٢) ، ص ٤٨ ـ ص ٥٢ .

قام عليها اقتصاد البلاد ، ولهم فقط حق الحكم والإدارة . فى مقابل الرعية التى اقتصر دور أبنائها على الإنتاج ودفع الضرائب والخضوع المتكرر لابتزاز المماليك ، دون أن يكون من حق أبنائها المشاركة فى مسئوليات الحكم . وقد انعكس هذا الوضع ، بطبيعة الحال ، على صورة الحياة المصرية آنذاك ، ومن البديهى أنه كانت هناك فوارق بين الشرائح الاجتماعية داخل كل من هاتين الطبقتين ، بيد أن ذلك لايغير من الحقيقة القائلة بأن المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك قد انقسم إلى طبقتين من الحكام والمحكومين . وإذا كان بعض الباحثين قد تصور وجود طبقة وسطى فى هذا المجتمع فإن ذلك يرجع ، فى تقديرنا ، إلى أن بعض فئات المصريين كانت على قدر من الثراء بفضل التجارة أو غيرها . مما جعلهم يتميزون عن بقية الرعية . وظهروا وكأنهم يحتلون مكانة وسطى بين الحكام بثرائهم الفاحش ، والشرائح الدنيا من الرعية بفقرها المدقع . ولكن الطبقة لاتتحدد بناء على مدى ثرائها فحسب وإنما بعلاقاتها مع السلطة من ناحية ، والرعية من ناحية ثانية . وفى هذا الصدد كانت علاقة المماليك برعاياهم ذات اتجاه واحد أيا كانت درجة ثرائهم ، فقد اعتبروهم مجرد رعايا خاضعين عليهم الغرم دائماً ، وليست لهم قبل الحاكم أية حقوق . ومن ناحية أخرى ، فإن طبيعة النظام الإقطاعى المملوكى قد أدت ـ على نحو ما سنرى ـ إلى تدهور إنتاجية الأرض الزراعية ، ومن ثم زاد معدل اعتماد المماليك على الرواتب النقدية التى يتقاضونها من خزانة السلطان الذى زاد بالتالى معدل اعتماده على الضرائب ، والمصادرات التى أدت إلى تدهور أحوال كثيرين من الموسرين . وهكذا تحول معظم أبناء هذه الفئة إلى معدمين فى الشطر الأخير من ذلك العصر .

على أية حال ، فإن فرسان المماليك ، الذين جاءوا عبيداً إلى مصر وسوريا ، كان لهم وحدهم حق الحكم ، لأنهم كانوا يستأثرون بالرتب العليا فى الجيش المملوكى . وكان على أفراد هذه الطبقة عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية من جهة ، وحماية عرش السلطان ضد الأخطار الداخلية من جهة ثانية . وكانت هذه الطبقة تقوى نفسها على الدوام بما يجلبه تجار الرقيق إلى مصر من المماليك . وكان من الممكن أن تصل مشتريات السلطان فى عصر المماليك البحرية إلى حوالى ثمانمائة مملوك ، على حين أن مشتريات السلاطين من المماليك لم تزد عن مائتين أو ثلاثمائة مملوك فى النصف الثانى من القرن الخامس (١٥) وكان أولئك المماليك من جنسيات مختلفة ، كما أوضحنا من قبل .

وكان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسية فى الجيش المملوكى . وكانت أعداد المماليك السلطانية تتكاثر حين يضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين أو من يغضب عليهم من كبار الأمراء . ولكن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم عادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك . وكان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية

---

(١٥) E. Ashtor, A social and economic history of the Near East in the Middle Ages (Collins, London 1976), p. 282.

مماليكهم وتدريبهم ، لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطاني الخاص . كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدراً وأكبرها إقطاعاً ، سواء في البلاط أو في الجهاز الحكومي . وفي البداية يقرر السلطان راتبا نقدياً وعينياً (من اللحوم والتوابل والخبز والأعلاف والزيت وغيرها) لكل من مماليكه في كل شهر. وبعد أن يدخل الفارس في زمرة الأمراء أصحاب الإقطاعات يمنحه السلطان إقطاعاً من الأرض الزراعية تتزايد مساحته تزايداً طردياً مع ترقى الأمير المملوكي من أمير عشرة إلى أمير مائة أو أمير ألف أو غيرها من الرتب الكبيرة . وكان السلطان يمنح الفارس هذا الإقطاع في احتفال كبير بموكب سلطاني يطوف شوارع القاهرة وحين يصل الموكب إلى قبة المنصور قلاوون يقوم الفارس بأداء اليمين لسيده [١٦] .

وكان الأمراء الكبار ، وولاة الأقاليم ، يمتلكون جيوشا صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة إلى ستمائة مملوك ، وقد تصل إلى ثمانمائة مملوك . إلا أن تدهور أحوال البلاد في عصر الجراكسة ترك أثره في هذا المجال أيضا ، ولم تعد جيوش الأمراء تزيد عن مائتي أو ثلاثمائة مملوك [١٧]. وكانت جيوش الأمراء تشكل الجزء الثاني من الجيش المملوكي العام ، إلا أنها غالبا ما كانت تتمركز في الأقاليم خارج القاهرة . أما القسم الثالث من الجيش فكان يتألف من أجناد الحلقة ، وهم المقاتلون الأحرار من « أولاد الناس » (أي أبناء المماليك) والأعراب والتركمان ، وبعض المصريين الذين انضموا للجيش .والجدير بالذكر أن أجناد الحلقة قد فقدوا أية أهمية عسكرية في عصر الجراكسة ، بل إن الكثيرين منهم تعرض لقطع إقطاعه أو جامكيته (راتبه الشهري) في أواخر ذلك العصر [١٨] .

وكان المماليك يعتمدون على النظام الإقطاعي كما ورثوه عن سادتهم من بني أيوب في البداية . إلا أن النظام الإقطاعي المملوكي خضع لتطورات جوهرية ، لاسيما منذ عصر السلطان محمد بن قلاون (النصف الأول من القرن الرابع عشر) . وعلى أية حال ، فقد كان المماليك يعيشون على إقطاعاتهم التي كانت تتناسب تناسباً طردياً مع رتبهم العسكرية . وكان الإقطاع يتراوح ما بين نصف زمام قرية لجندي الحلقة ، وزمام عشر قرى للأمير المملوكي [١٩] . وكان ريع الإقطاع يتراوح مابين ألف درهم وعشرة آلاف درهم للجندي في القرن الخامس عشر ، وذلك بخلاف الضيافة التي كانت عبئاً إجبارياً على الفلاحين العاملين في الإقطاع، وقدر المقريزي الضيافة بحوالي خمسة آلاف درهم في « الإقطاع الثقيل [٢٠] » . وفي بداية عصر سلاطين المماليك كان الإقطاع يتركز في مكان واحد ، وبعد الروك

---

(١٦) العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٦ يتبع ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ١٩ .

(١٧) Ashtor, op. cit p. 283.

(١٨) ابن الصيرفي ،إنباء الهصر بأنباء العصر ، صفحات ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٣ ، صفحات ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧ .

(١٩) سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ١٩ . (٢٠) المقريزي ؛ الخطط ، ج١ ، ص ٨٤ ـ ص ٨٧ .

الناصرى[٢١] : أصبح الإقطاع يتفرق فى عدة جهات ، « فصار بعض الجبى فى الصعيد ، وبعضه فى الشرقية ، وبعضه فى الغربية : إتعاباً للجندى وتكثيراً للتكلفة. . . »[٢٢] وهو مايكشف عن أن الإقطاع الواحد صار يتفرق فى أقاليم مختلفة من البلاد والأهم من ذلك أن الإقطاع كان يتغير بتغير وظيفة صاحبه . والراجح أن السلاطين كانوا يقصدون من وراء ذلك عدم التمكين لنفوذ أى من الأمراء إذا ما استقروا فترة طويلة فى إقطاعات دائمة . وهو مانجحوا فيه بالفعل .

بيد أن هذه السياسة التى سار عليها سلاطين المماليك فى منح الإقطاعات ، أثبتت ـ على المدى الطويل ـ أنها كارثة على الاقتصاد المصرى ، ذلك أن الأمير أو الجندى صاحب الإقطاع كان يعلم مسبقا أنه لن يستقر به طويلا ، ومن ثم فإنه لم يكن يولى الأرض الزراعية أى اهتمام أو رعاية حقيقية . ومن هنا أهملت وسائل الرى والصرف ، وتجلت النتائج الضارة لهذه السياسة فى الشطر الثانى من ذلك العصر، حين لم تعد مياه الفيضانات العالية تكفى لرى كافة الأراضى الزراعية ، كما كثرت حوادث انقطاع الجسور، وعطش الأراضى الزراعية نتيجة إهمال المماليك لوسائل ضبط النهر[٢٣] . وكان لتدهور الإنتاج الزراعى ، بالتالى ، أثره على النظام السياسى الإقطاعى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك . وبينما قل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية ، زاد معدل اعتمادهم على الرواتب النقدية والمخصصات العينية التى كان السلاطين يصرفونها لهم . وحين لم يستطع السلاطين إشباع مطالب المماليك كثرت حوادث الشغب والتمرد والاعتداء على الناس فى الشوارع والأسواق فى أواخر ذلك العصر الزاخر بالأحداث على نحو ماسنوضحه .

والجدير بالذكر أن العلاقات الإقطاعية فى مصر آنذاك كانت تختلف تماماً عن العلاقات الإقطاعية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى . ففى أوربا كان هناك سلم إقطاعى حيث تجد سادة إقطاعيين وهم بدورهم أتباع لسادة آخرين ، مما كان يخلق مشكلة ولاء الفصيل الإقطاعى لسيده الأدنى أو لسيده الأعلى فى حالة الحرب بينهما . والواقع أن تبعية الفارس الإقطاعى فى أوربا فى العصور الوسطى كانت لسيده المباشر[٢٤] . أما فى دولة المماليك ، فكانت تبعية الجميع للسلطان الذى كان بمثابة السيد الإقطاعى الأعلى . وبينما تحول الإقطاع فى أوربا إلى إقطاع وراثى ، مما مكن لقيام بيوتات

---

(٢١) الروك كلمة قبطية الأصل كانت تستخدم فى عملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها لتقدير الخراج وفقًا لدرجة الخصوبة . ويقابل الروك حاليًا عملية فك الزمام وتعديل الضرائب . والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون .

(٢٢) المقريزى ؛ السلوك ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ، الخطط ، ج١ ص ٨٩ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ج٩ ، ص ٤٣ .

(٢٣) قاسم عبده قاسم ، النيل فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، (دار المعارف ١٩٧٨) ، ص ١٨ .

(٢٤) Norman F. Cantor, The medievai history, (New York 1969), pp. 203 - 23 .

ناوأت الملكية وسلبتها كثيراً من حقوقها وسلطاتها السياسية والقضائية على الناس فى أوربا فى ذلك الحين ، فإن الإقطاع المملوكى الذى بدأ وراثيا ، ما لبث أن تحول إلى إقطاع شخصى بحت. وللسلطان وحده حق منحه أو انتزاعه ، الأمر الذى أدى إلى عدم قيام أسرات إقطاعية وراثية قوية على نحو ماحدث فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى .

وإلى جانب الإقطاعات الزراعية كان البعض يأخذون « إقطاعات نقدية » ، هى عبارة عن إيراد ضريبة ما . أو الضرائب المحصلة من أحد الأسواق(٢٥). وقد حاول الناصر محمد بن قلاون إلغاء هذه الإقطاعات النقدية وقصر الإقطاعات على الأراضى الزراعية ، لكن نظام الإقطاعات النقدية لم يلبث أن فرض نفسه مرة أخرى على النظام الاقتصادى .

وكان طبيعيا أن يحتل هؤلاء المماليك المجلوبون عبيداً فى طفولتهم ، أعلى وظائف الدولة ، وهو الأمر الذى أدى إلى تكريس عزلتهم عن المجتمع الذى حكموه . فقد أحس المماليك أنهم غرباء عن البلاد ولم يحاولوا الإندماج فيها ، وفى حياة المصريين عموما ، بل إن منهم من لم يتعلم اللغة العربية على الإطلاق . وثمة لهجة تركية كانت هى اللغة السائدة فى أوساط البلاط المملوكى ، وهى التركية التى كان أهل مملكة القرن الذهبى التركية يتحدثون بها (٢٦) . وعلى الرغم من أن المماليك بدءوا ينزلون من طباق القلعة ، ويسكنون القاهرة ويتزوجون من المصريات منذ عصر السلطان الظاهر برقوق (أواخر القرن الرابع عشر)(٢٧) ، فإنهم ظلوا على عزلتهم الاجتماعية . ذلك أن تركز وظائف الحكم والادارة العليا فى أيديهم ، وكونهم أصحاب السلطة السياسية والقوة العسكرية فى بلد غريب عنهم . جعلاهم يتصرفون كأقلية عسكرية حاكمة تنأى بنفسها عن المشاركة فى الحياة المصرية إلا من خلال المواكب السلطانية والأعياد الدينية والعامة .

كما أن المصريين ، من جهة أخرى ، لم يروا فى المماليك سوى طائفة من الغرباء الذين يحكمونهم بتفويض من الخليفة العباسى فى القاهرة ، ويغلب على الظن أن مشاعر المصريين تجاه أولئك الغرباء الذين تولوا حكمهم على مدى أكثر من قرنين من الزمان ، كانت مزيجاً من الكراهية السياسية والعداء الاجتماعى ، والولاء الدينى بفضل الواجهة الدينية التى جعلت من المماليك حكاماً شرعيين مفوضين من الخليفة الذى كان دوره ـ فى الغالب ـ قاصراً على إضفاء الصفة الشرعية على من يجلس على عرش البلاد من أولئك المماليك . ولم تكن للخليفة من خلافته سوى الاسم (٢٨) .

---

(٢٥) انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

(٢٦) Ashtor, A Social and economic hist p. 282.

(٢٧) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٣ .

(٢٨) ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ١ ، ص ١١٥ .

وظلت جموع المماليك الذين كان تجار الرقيق يجلبونهم من شتى الأرجاء باستمرار تغذى المشاعر الإنعزالية فى نفوس أبناء الطبقة الحاكمة. بيد أن تطورًا حدث فى نظام تربية المماليك فى عصر الجراكسة. وذلك أن السلاطين والأمراء إستعاضوا عن المماليك الصغار الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ . وقد عرف هؤلاء باسم « الجلبان » أو « الأجلاب » [٢٩]. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة «الأستاذية » التى كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذى كان له الفضل فى تربيتهم وتدريبهم منذ نعومة أظافرهم ، كما تخلخلت أواصر رابطة « الخشداشية » التى تجمع بين المماليك فى طائفة بعينها . ومن ناحية أخرى ، ضعفت سيطرة السلطان والأمراء على أولئك الجلبان مما أدى إلى كثير من حوادث الشغب والاضطراب والاقتتال التى كانت شوارع وأزقة القاهرة وغيرها من المدن المصرية مسرحا لها [٣٠] وساهم ذلك بمزيد من التدهور لاسيما فى أواخر ذلك العصر .

أما أبناء المماليك الذين ولدوا فى مصر ولم يمسهم الرق ، فقد عرفوا فى مصطلح ذلك العصر باسم « أولاد الناس » . وكانت مكانتهم الاجتماعية أدنى من المماليك . وغالبًا ما كان « أولاد الناس » هؤلاء ينصرفون عن الحياتين السياسية والعسكرية اللتين يحيا آباؤهم فى ظلهما ، ويختارون لأنفسهم حياة السلم والدعة. وقد يساهم بعضهم فى النشاط الثقافى لعصره . وقد برز من « أولاد الناس » عدد كبير من المؤرخين اللامعين فى تاريخ تدوين التاريخ عند المسلمين نذكر منهم على سبيل المثال « ابن أيبك الدوادار » ، « وخليل بن شاهين الظاهرى » ، «وصارم الدين بن دقماق» ، وابن تغرى بردى » «وابن إياس » وغيرهم [٣١]. ويمكن تفسير هذه المكانة الاجتماعية لأولاد الناس فى ضوء الحقيقة القائلة بأن المماليك لم تكن لهم حياة أسرية بالمعنى المألوف ، ذلك أن وجودهم فى المجتمع المصرى لم يكن قائماً على أساس الأسرة كخلية أولية فى البناء الاجتماعى ، وإنما اعتمد وجودهم على القوة الذاتية لكل أمير ممثلة فى مماليكه الذين كانوا سنده وعدته فى الصراع المرتقب مع غيره من الأمراء . ومن ثم كان الأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لمماليكهم. ولم يكن الأمير يتناول طعامه إلا مع مماليكه، وكان يغضب ممن لايأكل عنده منهم [٣٢]. وهكذا لم يكن لدى أمراء المماليك وقت لرعاية أبنائهم الذين كانوا يتركونهم لكى ينشئوا فى الحريم بعيداً عن الجو المملوكى، أو فى « حجور النساء » على حد تعبير ذلك العصر .

وكان « أولاد الناس » يمضون أوقاتهم فى ممارسة بعض الألعاب والرياضات ، مثل الفروسية

---

(٢٩) سعيد عاشور المجتمع المصرى ص٢٥ ـ ص ٢٧ .

(٣٠) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ ـ ص٢٨٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ٩٦ ـ ص ٩٧ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٣ ، ص ٩٦ ، ص ٣٣٥ ، ص ٣٨٨ ، ج٥ ، ص ٤٦٥ .

(٣١) قاسم عبده قاسم وأحمد الهوارى ، الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث ، (الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧٧)، ص ٨٩ ، يتبع .

(٣٢) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ص ١٠ ج ٦٦ ، ص، ١٧٣ ؛ المقريزى ، الخطط، ج ١ ص ٧٨ .

ولعب الكرة ورمى الرمح والنشاب وما إلى ذلك ، أو يختلفون إلى مجالس العلم ، كما كان بعضهم ينضم إلى الحلقة ليكون من جنود الجيش المملوكى . ومن ناحية أخرى ، كانت الثروات التى يرثونها عن آبائهم أو الإقطاعات التى كان السلاطين يمنحونها لهم تمكنهم من الحياة المرفهة الهانئة بحيث يمكن أن نلحقهم بالطبقة الحاكمة ، وإن عاشوا على هامشها . بيد أننا يجب أن نشير إلى أن « أولاد الناس » تعرضوا لمتاعب جمة فى غمرة التدهور العام الذى كانت الدولة تعانى منه فى أخريات أيامها(٣٣).

أما أحفاد المماليك ، فكانوا يحتلون مكانة اجتماعية أدنى من مكانة « أولاد الناس » وسرعان ما كان المجتمع يمتصهم ليذوبوا فيه بعد جيلين أو ثلاثة ، فيتفاعلون مع الحياة المصرية العامة ويبعدون عن الطبقة الحاكمة .

وفى فلك هذه الطبقة العسكرية الحاكمة كان يدور بعض المصريين من الفئات التى كانت ترتبط بالمماليك بحكم دور أفرادها فى الحياة المصرية آنذاك . هؤلاء هم « أرباب الأقلام » من أصحاب الوظائف الديوانية الإدارية والمالية والقضائية . ولما كانت العلوم الدينية هى الأساس الذى كان التعليم يقوم عليه فى ذلك العصر ، فقد كان أولئك النفر المصريون من الفقهاء والعلماء بصفة خاصة ، وهو ماجعل بعض المصادر فى ذلك العصر تطلق عليهم مصطلح « أهل العمامة أو « المتعممون »(٣٤) . والواقع أن أبناء هذه الطائفة قد لعبوا دوراً هامًا فى مساندة السلطة الحاكمة ، وقد حرصوا ، بشكل عام ، على تأكيد ولائهم للسلطان فقد كان من المعتاد فى ذلك العصر أن يصعد كبار القضاة والفقهاء مع بداية كل شهر إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر الجديد (٣٥). وتشهد تلك الطائفة الكبيرة من الفتاوى التى تضمنتها الوثائق التى وصلتنا من عصر سلاطين المماليك على أن السلاطين اعتمدوا كثيرًا على هذه الفتاوى فى كافة تصرفاتهم السياسية والاقتصادية والمالية والإدارية (٣٦) وهنا ينبغى أن نشير

---

(٣٣) يذكر ابن الصيرفى (إنباء الهصر ، ص ٢١ ـ ص ٢٣) أن السلطان قايتباى لم يستطع فى سنة ٨٧٣ هجرية أن ينفق على أصحاب الجوامك من أولاد الناس ، ولذا فإنه عمد إلى اختبار قوتهم بنفسه لتجنيدهم فى إحدى الحملات أو مطالبتهم ببدل نقدى مما جعلهم يتمنون قطع جوامكهم « . . لأن غالبهم ما يملك عشاءه ، ولا فرسًا يركبه ، ولابدلة يلبسها ثانية غير ما هو لابسه إن لم يكن استعاره ، ورمى بعضهم جامكيته (أى تنازل عنها) فلم يقبلوا منه ذلك ، والله الحاكم والملك . . » . انظر مزيدًا من الأمثلة فى المصدر نفسه ص ٢٣ ، ص ٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١١ ، ص ٣٧ ، ص ١٢٥ .

(٣٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ .

(٣٥) ابن الصيرفى إنباء الهصر ، ص ٨ ـ ص ٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(٣٦) مجموعة وثائق دير سانت كاترين ، وثائق رقم ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ . وانظر كذلك المقريزى . السلوك ، ج ٤ ، ص ١١٨٩ ـ ص ١١٩٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٣٣٨ حيث يذكر هذان المؤرخان أن السلطان الظاهر جقمق استصدر فتوى من القضاة الأربعة بجواز أخذ الضرائب من التجار فى مكة وجدة بحجة أن هذه الأموال تنفق على تجهيز القوات اللازمة لحماية هاتين المدينتين .

مرة أخرى إلى أن حرص سلاطين المماليك على الواجهة الدينية لحكمهم جعلهم يقربون « أهل العمامة» ضمن اهتمامهم بالمظهر الدينى عموما ، وإذا كانت هناك بعض الحالات التى عارض فيها بعض الفقهاء أو القضاة أحد السلاطين ، فإن ذلك الاعتراض غالبًا ما كان يوجه ضد محاولة النيل من امتيازاتهم ، لاسيما عندما يحاول أحد السلاطين انتزاع الأوقاف المخصصة للمدارس والجوامع والبيمارستان والأسبلة وغيرها من المنشآت ذات الطابع الدينى أو الخيرى ، والتى كان الاهتمام بإنشائها من سمات عصر سلاطين المماليك . فقد حدث سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩م) أن عقد السلطان قايتباى مجلسا بالقلعة حضرة القضاة والفقهاء وكبار رجال الدولة ، وشكا السلطان من أن الخزانة خاوية ، وأن الجيش يكلفه نفقات باهظة ولايستطيع مواجهتها ، وأن الحل هو أن يستولى على أوقاف المساجد والجوامع ، وكاد الاجتماع ينتهى بالموافقة لولا أن تصدى أحد الفقهاء لمعارضة السلطان مما جعل المؤتمرين يتفرقون دون أن يتوصلوا إلى نتيجة[(٣٧)] . ويتضح من هذا المثال ، وغيره أنه إذا كانت هناك بعض المواقف التى عارض فيها أحد المتعممين تصرفات السلاطين ، فالواضح من مصادر تلك الفترة أن مثل هذه التصرفات كانت أمثلة فردية تمثل شذوذًا على الموقف العام لأبناء هذه الفئة ، ولعل مما يؤكد ما ذهبنا إليه ماذكره ابن إياس فى حوادث سنة ٦١٣ هجرية من أن أحد الشعراء المعاصرين كتب قصيدة يهجو فيها وكيل بيت المال لفساد ذمته ، فشكاه الأخير إلى القاضى الذى أمر بضربه فهجاه الشاعر بقصيدة « دارت بين الناس » فشكاه القاضى إلى السلطان الغورى وتعصب جميع القضاة والفقهاء ضد الشاعر الشعبى وأرادوا ضربه بالسياط وإشهاره بالقاهرة[(٣٨)] ، ولكن جماعة كثيرة من العوام تعصبوا للشاعر جمال الدين السلمونى وأرادوا أن يرجموا قاضى القضاة . وإزاء ذلك اضطر إلى إعفاء السلمونى من عقوبة التشهير ، وحكم بسجنه مدة طويلة . والجدير بالذكر أن الأبيات التى أوردها ابن إياس من قصيدة السلمونى تحمل نقدًا مريرًا ولاذعًا لفساد الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك ، فضلا عن فساد ذمم القضاة وقبولهم الرشوة واستيلائهم على أموال الأوقاف[(٣٩)] .

وسواء كان أهل العمامة يعملون فى الوظائف التى عينهم السلاطين فيها ، أم كانوا يقومون بالتدريس فى مختلف المدارس المنتشرة فى أرجاء البلاد ، فقد كان عليهم أن يتعاونوا مع المماليك وكان المتعممون يتمتعون بحياة رغيدة هانئة ، ويقتنون الثروات الطائلة التى كانت الأوقاف الكثيرة ـ التى يشرفون عليها ـ توفرها لهم .

(٣٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٣ ـ ص١٥ ـ ص ٢٤ ؛ ابن الصيرفى إنباء الهصر ، ص ١٢ ـ ٣٤ .

(٣٨) التشهير عقوبة من العقوبات التى كانت شائعة فى عصر المماليك ، وكان يطاف بالشخص المراد إشهاره على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه ، وينادى عليه ليجتمع الناس حوله ، وأحيانًا يزفه المغنون « ويوضع فى عنقه ماشة وهون » . وفى نهاية المطاف يجلد بالسياط وسط جمع من الناس . انظر سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص٩٩ .

(٣٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١١٣ ـ ص ١١٤ .

ولعل من المفيد فى هذا المقام أن نشير إلى أن مصطلح « أهل العمامة » لايعنى أن هذه الفئة كانت هى الفئة الوحيدة التى كان أبناؤها يرتدون عمامة فوق رؤوسهم ، وإنما يعنى هذا أن عمائمهم كانت أكبر فى حجمها من عمائم الآخرين ، وهو ما يتوافق مع مفاهيم ذلك العصر من الطبقية التى كانت تجعل حجم العمامة يتناسب تناسبًا طرديًا مع مكانة الشخص الاجتماعية (٤٠) . كما أن بعض الباحثين يذكر أن العمامة لم تكن حتى القرن السابع الهجرى (١٣م) جزءًا مكملا لزى القاضى ، وإنما كانت القلنسوة تستخدم بدلاً منها (٤١) . بيد أن ملابس المتعممين عموماً كانت تعبرعن مستواهم الاجتماعى . سواء كانوا من رجال الدولة أو من صغار الفقهاء(٤٢) . وكان الفقهاء يتمسكون بهذا الزى ولايجلسون لإلقاء دروسهم إلا به مما أثار استياء بعض المعاصرين الذين رأوا فى تمسك هؤلاء بالمظهر فقط آفة من آفات المجتمع المصرى (٤٣) .

وكان أبناء الشريحة العليا من أهل العمامة يتقاضون مرتبات عينية ونقدية من الديوان السلطانى . وقد تمسكوا بمظاهر الحياة المترفة المنعمة ، فكانوا يركبون الخيول المسومة ويرتدون الثياب الغالية . ويغشون مجالس السلاطين والأمراء (٤٤) . وهو مايكشف عن أن القضاة والفقهاء ـ لاسيما الكبار منهم ـ قد وضعوا مصالحهم فى سلة واحدة مع مصالح الطبقة الحاكمة .

ومن المهم أن نشير إلى أن التدهور العام فى أواخر ذلك العصر ، ترك آثاره السلبية على أهمية كبار المتعممين بالنسبة للمماليك . فكان المتعممون يتعرضون من آن لآخر لمظاهر الإمتهان ، ويمنعون من ركوب الخيول التى كان ركوبها للطبقة العسكرية الحاكمة فقط (٤٥) . كما تعرضت مرتباتهم للقطع والمنع مرات عديدة نتيجة عجز ميزانية الدولة المستمر فى أخريات أيامها(٤٦) .

وثمة فئة أخرى عاشت على هامش الطبقة الحاكمة بحكم عملها فى الجهازين الإدارى والمالى لدولة سلاطين المماليك ، هم فئة المحاسبين والماليين من أهل الذمة الذين عملوا فى خدمة الديوان السلطانى ودواوين الأمراء . وقد احتل أهل الذمة المصريون مكانهم فى الجهازين الإدارى والمالى للدولة بحكم أنه كانت قد تكونت منهم فئة من الخبراء فى هذه النواحى بحيث لم تكن الدولة قادرة على الاستغناء عنهم على الرغم من كافة المحاولات التى بذلت فى هذا السبيل (٤٧) .

---

(٤٠) قاسم عبده قاسم، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٧٩) ، ص ١٥٧ ص١٥٩ .

(٤١) ل . أ . ماير ، الملابس المملوكية ، (ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢) ، ص ٨٩ .

(٤٢) المرجع نفسه ، ص ٩٠ ـ ص ٩٩ حيث يتعرض بالتفصيل لملابس المتعممين .

(٤٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ص ١٣٦ . (٤٤) ابن حجر ، إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٤٥) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٧٨ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٣ .

(٤٦) ابن الصيرفى : إنباء الهصر، ص ٢٣٠ ، ص ٤٣٠ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣ ، ج ٤، ص ١٤ .

(٤٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص ٨٤ ، يتبع .

وقد فزع المعاصرون من نفوذ أهل الذمة الناتج عن توليهم لوظائف الإدارة المالية ، فقد اتهموهم باستغلال نفوذهم ضد المسلمين ولصالح أبناء طوائفهم [٤٨] . ومن ناحية أخرى ، فإن مابلغه أهل الذمة العاملون فى الجهازين الإدارى والمالى للدولة من ثراء ونفوذ كان يسبب لهم المتاعب من قبل السلاطين الذين كانوا يصادرون ثرواتهم . كما كان عامة المصريين المطحونين تحت وطأة الضرائب أو «المظالم» يضغطون على السلاطين لكى يطردوا الموظفين الذميين .

هذه هى الطبقة الحاكمة ، والفئات التى كانت تعيش فى جوارها وتدور فى فلكها من كبار الموظفين فى الجهاز الحاكم سواء كانوا من الفقهاء أو من أهل الذمة . أما الرعية فكانت تشمل صغار التجار والفقهاء . وأصحاب الحرف والصنائع والفلاحين ، وعامة أهل المدن . وإذا كان ثمة تدرج فى المستوى الاقتصادى بين الشرائح الاجتماعية داخل الطبقة المحكومة ، فإن الجميع كانوا رعايا من وجهة نظر طبقية أفرزها البناء الإقطاعى لمصر فى عصر سلاطين المماليك . هذا البناء الذى حدد لكل فئة من فئات المصريين مكانتها الاجتماعية ، بما يرتبط بهذه الفئة من عادات وتقاليد أو ممارسات اجتماعية . وقد عاش المصريون بكل فئاتهم يمارسون حياتهم اليومية بمعزل عن الطبقة الحاكمة التى لم يكن يربطهم بها شىء سوى الضرائب التى كان يفرضها عليهم السلاطين أو أحداث العنف التى يفرضها المماليك على حياتهم ، وقد يروح بعضهم ضحية لها ، من آن لآخر .

ويمكن أن نتابع بعض مظاهر حياة المصريين اليومية ، وأن نتعرف على بعض عاداتهم وتقاليدهم من خلال بعض الدراسات التى تتناول ـ بالتفصيل ـ بعض جوانب الحياة المصرية فى ذلك العصر .

---

(٤٨) المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

رحالة أندلسيون فى القاهرة
من القرن السادس حتى التاسع الهجرى (١٢/١٥م)

مدخل ـ مفهوم الرحلة فى العصور الوسطى ـ القاهرة فى عيون الرحالة المسلمين ـ خاتمة

مدخل ـ مفهوم الرحلة فى العصور الوسطى ـ القاهرة فى عيون الرحالة المسلمين ـ خاتمة

الرحلة وسيلة الإنسان لكسب المعرفة والتعرف على البيئة والإنسان منذ أقدم العصور . وماتزال الرحلة من أنجح وسائل الإنسان فى الحصول على المعرفة . ولهذا السبب حظيت الرحلة باهتمام القدماء والمحدثين على حد سواء ، كما احتفل العلماء بمدى ماقدمته الرحلة من إسهامات ساعدت على اكتشاف البيئة والتعرف على نشاط الإنسان فى رحابها . وتسابق العلماء والباحثون على تقديم الأوصاف الاحتفالية التى أسبغوها ، بكرم شديد ، على الرحلة .

وعلى الرغم من أنه كانت وماتزال ، للرحلة جوانبها المشينة والمظلمة ؛ مثل التجسس ، والعدوان على الآخرين ، والاستعمار ، والاستيطان ، والتخريب . . . وما إلى ذلك ـ نقول إنه على الرغم من هذا الجانب المظلم للرحلة ؛ فإن إشراقاتها الإيجابية قدمت خدمات جليلة للإنسانية جمعاء . وللإنسان الفرد أيضا .

لقد كانت الرحلة الأب الشرعى للجغرافيا ، كما قدمت إسهامات هامة فى نشأة وتطور علوم إنسانية واجتماعية أخرى ؛ مثل الاثنوجرافيا ، والأنثروبولوجيا ، والتاريخ الاجتماعى . . . وغيرها . بيد أن أهم مساهمات الرحلة ، فى تصورنا ، جاءت من خلال طرح معرفة الإنسان بالإنسان . ذلك أن الرحلة تكشف عن حال يتعرف فيها الإنسان بالآخر ، ويصبح أكثر استعداداً للاعتراف بوجود هذا الآخر والتعاون معه . لقد كانت عين الرحالة الغريبة دائما بمثابة آلة التصوير التى تسجل ما ألفه الناس واعتادوه بحيث حسبوه غير جدير بالملاحظة ؛ وهو مايعنى أن الرحلة قدمت لنا الكثير من المادة الخام التى قامت على أساسها دراسات التاريخ الاجتماعى ، والاثنوجرافيا ، والانثروبولوجيا . فضلا عن فروع الدراسات الاجتماعية الأخرى .

لقد بدأ تاريخ الرحلة مع تاريخ الإنسان نفسه ؛ ربما بقصد البحث عن مصادر الرزق التى جعلت حركة الأقوام وهجرات العصور القديمة مسألة ملحوظة فى تلك الفترة السحيقة من تاريخ الإنسانية . وفى هذه الفترة اختلط الدافعان الإقتصادى والعسكرى بحوافز الكشف والمعرفة على نحو يصعب تحديد مداهما . وهذه الورقة لاتهتم بالرحلة / الهجرة التى كانت حركة على مستوى اجتماعى شامل تواترت أمثلة عديدة منها على مرِّ التاريخ حتى الآن ؛ وإنما تهتم بدراسة نماذج من الرحلة الفردية التى بدأت هى الأخرى فى فترة باكرة من تاريخ الإنسانية .

ويتركز اهتمامنا ـ بالرحلة الفردية ـ على فترة تمتد فيما بين القرن السادس والقرن التاسع للهجرة (١٢ـ ١٥ م) زماناً ، وفى مساحة لاتتعدى حدود مدينة القاهرة ، آنذاك ، مكاناً .

وفى تقديرنا أن اختيار الفترة الزمنية يقوم على مشروعية علمية واضحة ؛ إذ إن تلك الفترة تعتبر من أهم النقاط الفارقة فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية من ناحية ، ومن أكثر المراحل سخونة فى تاريخ العلاقات بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية الكاثوليكية من ناحية أخرى . فضلاً عن أن الرحالة الذين اخترناهم نماذج لدراستنا فى هذه الورقة كانوا فى وضع يسمح لهم بالتعرف على حضارتين فى حال من التصادم والتفاعل .

ففى السنة الأخيرة من القرن الحادى عشر (١٠٩٩ م) توجت الحملة الصليبية الأولى نجاحها باحتلال مدينة بيت المقدس . ومنذ ذلك الحين ، وعلى مدى قرنين من الزمان تقريبا ، ظلت الأرض العربية فى فلسطين وأعالى الشام والجزيرة ، ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وشمال أفريقيا ميداناً للصراع المسلح بين المستوطنين الصليبيين وظهيرهم المساند فى أوربا من جهة ، وسكان المنطقة العربية من جهة أخرى . وبعد نهاية الوجود الصليبى سنة ١٢٩١ م ، استمر الصراع قائماً فوق مياه البحر المتوسط وجزره ، وعلى سواحله حتى نهاية العصور الوسطى حين اتخذ أشكالاً جديدة .

وفى هذه الفترة أيضا تعرض العالم الإسلامى لضربات موجعة من الشرق على أيدى المغول الذين نجحوا فى اجتياح عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، كما كانت حركة الأسبان المسيحيين تحرز تقدماً واضحاً على حساب القوى الإسلامية انتهى بانتصار المسيحيين نهائياً سنة ١٤٩٢ م .

وعلى الرغم من كل هذا ، وربما يكون بسببه أيضا ، استمرت الرحلة بين الغرب الأوربى والشرق العربى الإسلامى ، وكانت القاهرة أحد المقاصد والأهداف الهامة لهذه الرحلة . ولاغرو ، فقد تبلور الموقف العربى الإسلامى ضد الصليبيين فى جبهة موحدة مركزها القاهرة التى حولها صلاح الدين الأيوبى إلى عاصمة لدولته الشاسعة بعد أن كانت عاصمة للخلافة الفاطمية . ومن المهم أن نشير إلى أن هذا التحول لم يكن تحولاً سياسياً فقط فى دور القاهرة ، ولكنه كان تحولاً اجتماعيا وتحولا اقتصادياً أيضا فى تاريخ العاصمة المصرية . فطوال العصر الفاطمى كانت القاهرة مقر الحكومة ، ومركز الدولة

الإدارى والسياسى ، والمعقل الرئيسى لنشر الدعوة الشيعية الإسماعيلية ، على حين كانت الفسطاط عامرة بالناس الذين جعلوا منها قصبة الديار المصرية ومركز النشاط الاقتصادى والصناعى والعلمى. وعلى الرغم من أن القاهرة قد فتحت أبوابها أمام الناس عقب استيلاء صلاح الدين على السلطة فى مصر؛ فقد ظلت الفسطاط هى المدينة التى اكتظت بالسكان ، وتركزت بها الحرف والصناعات والأسواق حتى سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م عندما انتقل السلطان الكامل الأيوبى إلى القلعة التى صارت مقر الحكم ومنذ ذلك الحين أخذت الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية تنتشر فى القاهرة [١].

ومن ناحية أخرى ، بدأت الأهمية السياسية للقاهرة تتصاعد مع مرور الزمن حتى صارت العاصمة الفعلية للعالم الإسلامى فى عصر سلاطين المماليك بعد أن أحيا السلطان الظاهر بيبرس الخلافة العباسية إحياء شكلياً سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١ م) ، وبعد أن أصبحت موئلاً للهاربين من تفاقم الأحوال فى مشرق العالم الإسلامى ومغربه على السواء . ولهذا ظلت القاهرة هدفاً للرحالة المسلمين والرحالة الأوربيين طوال تلك الفترة ، وإن اختلفت دوافع الرحالة المسلمين عن دوافع الرحالة الأوربيين بطبيعة الحال .

لقد تنوعت دوافع الرحالة المسلمين ما بين الحج وطلب العلم . وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى أهمية الرحلة فى طلب العلم ؛ إذ قال « ... والرحلة لابد منها فى طلب العلم ، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال »[٢] كذلك كانت التجارة من العوامل الهامة الدافعة إلى الرحلة فى التراث العربى الإسلامى . فمن المعلوم أن التاجر العربى المسلم كان شخصية معروفة فى سائر أنحاء العالم المتحضر آنذاك. بيد أنه كان من بين التجار علماء تركوا لنا نفائس يفخر بها تراث الحضارة العربية الإسلامية ، وتقف رحلة التاجر سليمان السيرافى ، فوق صفحة المحيط الهندى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، مثالاً فذاً على ذلك ، كما أن ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م) ترك سفره الهائل « معجم البلدان » دليلاً على أن رحلة التاجر العربى المسلم لم تخل من العلم ، إذ كان ياقوت يقوم برحلاته بهدف التجارة أساساً [٣].

وهناك أسباب أخرى متعددة للرحلة عند المسلمين ، بعضها شخصى ، وبعضها كانت سفارات بتكليف من أولى الأمر ولسبب أو لآخر . على أن أهم ما يلفت النظر فى تاريخ الرحلة العربية الإسلامية هو أن طابع المبادرة الشخصية كان العامل الحاسم فى غالبية هذه الرحلات . ولم تقم الدولة، أى دولة ،بتمويل هذه الرحلات سوى فى أضيق نطاق وعندما يكون من يقوم بالرحلة مكلفا بسفارة أو مهمة رسمية لحساب الدولة .

---

(١) جومار ، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، (نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه أيمن فؤاد سيد) ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٨ ـ ص ٣٠ .

(٢) المقدمة ، ص ٤٠٧ ، حسين فهيم ، المرجع السابق، ص ٨٩ .

(٣) حسين فهيم ، المرجع السابق ، ص ٩٠ .

أما أوربا الغربية ورحالتها ، فإن الأمر كان مختلفاً بالنسبة لهم إلى حد بعيد . فقد كان القرن الحادى عشر الميلادى(٥هـ)،بالنسبة للغرب الأوربى بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة التكوين فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، وتميزت حركة التاريخ الأوربى منذ ذلك الحين بروح الحيوية الدافعة والحماسة الجسورة التى دفعت الناس إلى السفر إلى مناطق الحدود ، وماوراء البحار . أملاً فى تحقيق طموحاتهم (٤). واخذت أوربا توقن أن طاقتها الحضارية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة ؛ فأخذت تسعى لإيجاد منافذ خارجية لها . وقد كان هذا هو أهم أسباب التوسع الذى كانت الحملات الصليبية جزءاً منه (٥) وفى ذلك الطور المبكر كانت الرحلة الأوربية ماتزال مدفوعة بأهداف دينية ، وإن زاحمتها الدوافع الاقتصادية والعسكرية .

فقد كان الحج إلى الأراضى المقدسة ، التى شهدت قصة المسيح ، حركة اجتماعية دينية ذات مضمون عاطفى منذ وقت مبكر . وتخبرنا النصوص التى تركها الرحالة الأوربيون فى ذلك الوقت المبكر قبل عصر الحروب الصليبية ـ أن المسيحيين القادمين من الغرب الأوربى إلى فلسطين كانوا يحرصون على الأكل فى كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه ، أو يستحمون فى مياه نهر الأردن التى تم تعميده فيها (٦).

ومن ناحية أخرى ، لعبت تجارة « الذخائر المقدسة » (أى الملابس والأدوات والأشياء المادية التى ينسب إلى الأنبياء والقديسين استخدامها ، أو بعض أجزاء من رفاتهم) دوراً هاماً فى إثارة اهتمام الأوربيين بالرحلة إلى الأرض المقدسة . وقد نسجت قصص وحكايات خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة مما زاد فى تأجج الرغبة فى الرحلة إلى الشرق، (٧) مطلع الشمس ومكمن الكنوز والأفكار الغامضة ، والمسرح الذى شهد قصة المسيح على الأرض .

ومن خلال الحروب الصليبية ، والتوغل الأوربى فى حوض البحر المتوسط ، اكتشف الأوربيون أن حضارتهم متخلفة بالقياس إلى الحضارة العربية الاسلامية والحضارة البيزنطية ، والأهم من هذا أنهم اكتشفوا أن العالم الحقيقى غير العالم الذى صورته لهم العزلة التى فرضها التمزق الإقطاعى من ناحية . وسيطرة الكنيسة على الفكر والتعليم من ناحية أخرى . وهنا بدأت دوافع الرحلة تتنوع ما بين التجارة . والمغامرة ، والسفارة ، وطلب العلم ؛ بيد أن الرحلة الصليبية « لقتال المسلمين والحج إلى فلسطين » احتفظت بقدر كبير من الجاذبية فى نفوس الأوربيين آنذاك .

---

(٤) Phillippe Walf , The Awakening of Europe, (transl . by Anna Carter,Penguin ,1968),P.208

(٥) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (عالم المعرفة ، العدد، ١٤٩ الكويت ، ١٩٩ م ، ص ٥٩ ـ ص٦١ .

(٦) John wilkinson (ed.) Jerusalem Pilgrims before the Crusades, , (England 1977), pp879,ff , P 131

(٧) قاسم ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ـ ص ٢٣ .

وبعد استرداد صلاح الدين الأيوبى لمدينة بيت المقدس ، وتحطيم زهرة فرسان الكيان الصليبى فى فلسطين ، حاولت أوربا الانتقام بحملة قادها ثلاثة من أكبر رءوس أوربا المتوجة ، آنذاك ، ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا . ولكن الحملة انتهت بحصاد هزيل أبقى الوضع على ماهو عليه . وبعدها أدركت البابوية أن مصر هى محور العمل العربى الإسلامى عسكريا وسياسياً واقتصاديا . ومنذ ذلك الحين أصبحت أرض النيل هدفا دائماً لكل الحملات والمغامرات الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى .

هذا الاهتمام العسكرى والسياسى المتصاعد كان يوازيه اهتمام آخر على مستوى التجارة والدبلوماسية والمعرفة . فقد وفدت الرسل من كل أنحاء أوربا إلى القاهرة - فى الفترة محل الدراسة - حجاجاً إلى فلسطين وزواراً للأماكن المسيحية المقدسة فى سيناء ، والفسطاط ، والمطرية وغيرها من بقاع مصر . فمنذ ولى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى عرش مصر سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) صارت القاهرة بمثابة حصن الدفاع الأخير عن الحضارة العربية الإسلامية من ناحية ، كما كانت لها السيادة الفعلية ، أو الأدبية ، على كافة أنحاء العالم الاسلامى من ناحية ثانية . وعلى المستوى الاقتصادى كان لغزوات المغول فى القرن الثالث عشر تأثيرها فى إغلاق طرق التجارة البرية فى آسيا . وأصبحت مصر مركزاً لتجارة المرور بين الشرق والغرب .

وبسبب هذا كله هذه كلها جاءها الرحالة الأوربيون ؛ سفراء وجواسيس ، تجاراً وباحثين ، حجاجا وزواراً . ودونوا فى رحلاتهم كثيراً من الأخبار والملاحظات عن البلاد وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم . ملابسهم وطعامهم ، بلادهم ومبانيهم ومؤسساتهم . . . ولم يكن الأسبان : مسيحيين ويهوداً استثناء فى ذلك بطبيعة الحال .

* * *

وفى دراستنا هذه نقدم نموذجين من الرحالة هما الأندلسى المسلم . ابن جبير الذى زار مصر والمنطقة إبان اشتداد الصراع ضد الصليبيين ، وابن سعيد الذى زار مصر والمشرق فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ؛ أى وقت احتدام الأحداث التى أدت إلى قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام .

أما ابن جبير فهو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى ، الأندلسى ، الشاطبى البلنسى . وهو من مواليد بلنسية . وقد تلقى نفس النمط التقليدى من التعليم الذى ألفه أبناء طبقته ؛ إذ درس علوم القرآن والفقه والحديث ، كما كان أديباً شاعراً . بيد أن ذكره ذاع فى التراث العربى بسبب رحلته التى دوّن وقائعها ومشاهداته أثناءها فى كتابه المعروف باسم « رحلة ابن جبير » . هذه « الرحلة » هى خلاصة تجاربه ومشاهداته فى ثلاث رحلات أهمها رحلته التى بدأت فى شهر شوال ٥٧٨ هـ /

١١٨٢م(٨) وانتهت فى المحرم ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م(٩)، أى بعد أكثر من ثلاث سنوات .

تمثل رحلة ابن جبير نموذجا للرحلة بقصد أداء فريضة الحج ؛ فهو يذكر فى بداية الكتاب مانصه « وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله للنية الحجازية المباركية ، قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل . . . » وقد وصل « ابن جبير » مصر بعد رحلة بحرية استمرت ثلاثين يوما . ولم يكن لقاء رجال الجمارك للرحالة الأندلسى المتدين وصحبه لقاءً ساراً وانما كان لقاءً عادياً تسوده الفظاظة والخشونة والقسوة التى تميز رجال الحكومة فى مصر على الدوام(١٠) . ورغم المرارة التى حملتها كلمات « ابن جبير » فى وصف هذا الموقف ؛ فإنه حاول تبرئة السلطان صلاح الدين الأيوبى من مسئولية هذا التصرف وأمثاله .

بعد ذلك وصف رحالتنا الاسكندرية ومنارها ، وتحدث عن مناقبها(١١) ، ثم بدأ حديثه عن «مصر والقاهرة » ؛ أى الفسطاط والقاهرة اللتين كانتا فى ذلك الحين تشكلان ، سوياً ، عاصمة مصر . وقد نزل « ابن جبير » فى الفسطاط بفندق « أبى الثناء » فى زقاق القناديل على مقربة من جامع « عمرو بن العاص »(١٢) وهنا نجد فى عبارة ابن جبير ، التى تبدو عادية مألوفة ، إشارة هامة عن تطور العاصمة المصرية آنذاك ؛ فقد سكن رحالتنا فى الفسطاط ولم يسكن فى القاهرة ، كما أنه نزل بمنشأة من المنشآت التى انتشرت فى أنحاء عالم البحر المتوسط آنذاك ، ونعنى بها « الفندق » . وفيما يتعلق بالأمر الأول ؛ أى سكن « ابن جبير » ورفاقه الفسطاط ، فإن ذلك أمر يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن القاهرة كانت حتى ذلك الحين ماتزال عاصمة سياسية وإدارية على الرغم من أن صلاح الدين الأيوبى بنى القلعة لتكون مقراً للحكم . ومن الطبيعى أن تخلو من المنشآت ذات الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية ؛ إذ كانت الفسطاط ماتزال هى العاصمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومن مجموع « مصر والقاهرة » ؛ أى الفسطاط والقاهرة تكونت العاصمة المصرية مثلما كان الحال زمن الفاطميين(١٣) .

أما « الفندق » الذى نزل فيه ابن جبير ، فلم يكن فندقاً بالمعنى المعروف اليوم ، إنما كان نوعاً من المنشآت التجارية التى تجمع بين توفير مكان لعرض البضائع التى يجلبها التجار الأجانب معهم، وتوفير أماكن النوم والإقامة لهؤلاء التجار . وقد اشتق الفندق اسمه من كلمة يونانية هى بندوكيون Pandokeion التى كانت تستخدم للدلالة على مثل هذا النمط من المنشآت التجارية /

---

(٨) رحلة ابن جبير ، (دار صادر ، بيروت ١٩٦٤) ، ص ٧ .
(٩) نفسه ، ص ٣٢٠ .
(١٠) نفسه ، ص ١٢ ـ ص ١٤ .
(١١) نفسه ، ص ١٤ ـ ص ١٨ .
(١٢) نفسه ، ص ١٩ .
(١٣) جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٣٠.

الاجتماعية . وقد كان الجزء الأسفل من « الفندق » يخصص لعرض البضائع على حين كان الطابق العلوى منه يخصص للنوم . وكانت الفنادق المخصصة للتجار الأوربيين تضم كنيسة صغيرة. وطاحونا ، ومعصرة للنبيذ . وقد وجد بالفسطاط والقاهرة عدد من الفنادق التى خصص بعضها لعرض الفاكهة والخضر (١٤) . وقد كان بالقاهرة أيام المقريزى (منتصف القرن التاسع الهجرى / ١٥ م) تسعة عشر فندقا (١٥).

كان الرحالة « ابن جبير » يرى القاهرة بعينى مسلم جياش العاطفة يزور أهم عواصم دار الإسلام، فى فترة من أهم فترات تاريخ المسلمين وأكثرها حساسية . وقد ذكر الدكتور حسين نصار (١٦) أن « ابن جبير » كان يهتم بثلاثة أمور فى وصفه للمدن التى شاهدها ، وهى : المرافق . والمشاهد ، والأرباض . والمرافق هى الأسوار والحصون ، والمساجد والمدارس ومصادر المياه والحمامات، والأسواق ، والبيمارستانات ، والمنازل والشوارع ، والأبواب . أما المشاهد فهى المقابر . والموالد ، وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء ، والمزارات الإسلامية ، والمعابد وكنائس غير المسلمين ، بينما كانت الأرباض هى الضواحى المجاورة للمدينة .

وقد بدأ « ابن جبير » فى وصفه لمدينة القاهرة ، بالحديث عما أسماه الدكتور حسين نصار «المشاهد». إذ إنه قدم لنا وصفاً عاطفياً لمشهد الحسين ، ومن الواضح أنه كان مبهوراً بفخامة المشهد الذى جمع بين الذهب والفضه والديباج « . . . والرخام المجزع الغريب الصنعة ، البديع الترصيع . مالايتخيله المتخيلون ولايلحق أدنى وصف وصفه الواصفون . . . (١٧)» وقد مَسَّ شغاف قلبه ماشاهده من تمسح الناس بقبر رأس الحسين « . . . وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين مايذيب الأكباد ويصدع الجماد . . . (١٨)» .

ثم وصف « ابن جبير » القرافة التى قال إنها إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء ، وأهل البيت ، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة

---

(١٤) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ ٤ ، ص٤٠ ـ ص٤١ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٣ . ص١٥٣.

لمزيد من المعلومات عن « الفندق » انظر :

جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة (ترجمة د . مصطفى العبادى ، سلسلة مراكز الحضارة ، مكتبة لبنان بيروت ١٩٦٨) ، ص ١٦٧ . حيث يتحدث « فنادق » المنسوجات الأوربية (أى أسواقها) . وكان كل فندق يحتوى على عدد كبير من الحوانيت ، انظر أيضا نفس المرجع ص ١٩٦ ـ ص ١٩٨ .

(١٥) المقريزى ، الخطط ، حـ٢ ، ص ٨٦ ـ ص ٩٤ ؛ جاستون فييت ، القاهرة ، ص ١٩٩ .

(١٦) حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات ، (عالم المعرفة ، ١٣٨ ، الكويت ١٩٨٩ م) ، ص ١٨ ـ ص١٩ ؛ حسين نصار ، « رحلة ابن جبير » ، مجلة تراث الإنسانية ، المجلد الأول .

(١٧) رحلة ابن جبير ، ص١٩ ـ ص٢٠ . (١٨) نفسه ، ص٢٠ .

والأنباء الغريبة . وعلى كل منها بناء بديع « . . . قد وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر . . . »

وماذكره ابن جبير التاريخيةعن المزارات الدينية التى كان أهل القاهرة آنذاك يتبركون بها وعن القرافة يتفق مع مانعرفه عن عادات وتقاليد أهل القاهرة فى الفترة التى يهتم بها البحث . إذ كان سكان العاصمة المصرية ـ ومايزالون ـ يتبركون بعدد من « المشاهد » ، أو قبور الأولياء والصالحين وآل البيت وفى تلك الفترة التاريخية خصصوا لكل مشهد يوماً معينامن أيام الأسبوع ؛ إذ إن ابن الحاج الذى زار القاهرة ، ومكث بها فترة ،فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) يحدثنا عن أن نساء القاهرة آنذاك « . . . جعلن لكل مشهد يوماً معلوماً فى الجمعة ؛ فجعلن يوم الاثنين للسيد الحسين، والثلاثاء والسبت للسيدة نفيسة، والخميس والجمعة للقرافة لزيارة الشافعى وغيره ولأمواتهن . . . » (٢٠)

وفى حديث ابن جبير إشارة واضحة إلى ولع أهل القاهرة آنذاك بالخروج والنزهة وكانت « القرافة » أى منطقة المقابر الخاصة بالقاهرة ـ من أهم متنزهات أهل القاهرة فى ذلك الزمان . وقد استرعت انتباه كل الرحالة الذين زاروا القاهرة لعدة أسباب ؛ أولها : ماارتبط بها من قبور الأولياء والصحابة والصالحين الذين أشار إليهم ابن جبير ، وثانيها : بعض أخبار المعجزات التى نسبت إلى الموتى المدفونين فى هذه القرافة . (٢١) وثالثها : أن القرافة لم تكن مجرد جبانة يلفها صوت الموتى كما هو الحال فى كل الجبانات ، وإنما كانت مكاناً للنشاط اليومى لسكان القاهرة ؛ فقد تحدث ابن بطوطة فى رحلته الشهيرة عن الزوايا والمدارس فى القرافة ، وعن البيوت التى بنيت هناك لإقامة أهل الموتى عند الزيارة التى كانت تتم كل ليلة جمعة ، وتعجب من أن الناس كانوا يبيتون فى القرافة بنسائهم وأولادهم، «ويطوفون على الأسواق بصنوف المآكل » (٢٢)

وقد أكد « ابن الحاج » ماذكر ابن بطوطة ، على الرغم من انتقاداته المريرة لتصرفات المصريين فى هذا الشأن ،فقد ذكر أن النساء كانت تخرج بصحبة أزواجهن إلى القرافة « . . . خوفاً من التشويشات التى يتوقعونها منهن من الامتناع . . » ، كما قال إن الغيرة قد تغلب بعض الأزواج « . . . بسبب ممازحة الأجانب . . . »؛ فيقع الضرب والخصام ، وقد يتطور الأمر إلى المثول أمام الحاكم والوالى

(١٩) رحلة ابن جبير ، ص٢٠ ـ ص ٢٤ .

(٢٠) ابن الحاج ، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد (المطبعة المصرية بالأزهر. ١٣٤٨ هـ/ ١٩٢٩ م) ، جـ١ ، ص ٢٦٩ ـ ص ٢٧٠ .

(٢١) فى القرن السادس عشر كتب باومجارتن ما نصه « فى ظاهر مدينة القاهرة شاهدنا مسجدا على ضفاف النيل ، وقيل لنا إنه عند إقامة الصلاة فيه، يخرج الموتى من مقابرهم ويقفون دون حركة طيلة الصلاة ، يختفون بعد ذلك » ويبدو أن هذا الكلام كان شائعاً فى القاهرة بالقدر الذى جعل آخرين يكتبون عنه بعد سنوات . انظر :
جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص٢١٣ ـ ص ٢١٤ .

(٢٢) رحلة ابن بطوطة ، (تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور على المنتصر الكتانى ، بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٩٨١م) جـ١ ، ص٥٥ ـ ص٥٦ .

والجبس وغيره [٢٣]. وقد أشار ابن الحاج إلى عادة أهل القاهرة بناء الدور فى القرافة، وزيارتهم للميت وإقامتهم بجواره « . . . الشهر والشهرين والثلاثة ، بقدر عزة الميت لديهم . . . » كما أوضح لنا أن الحياة فى القرافة كانت تسير على وتيرتها العادية تماماً ؛ إذ كان القاهريون يوقدون الشموع فى المقابر ويوقدون الأحطاب لطعامهم [٢٤].

لكن أكثر ما أثار هذا الرجل المتدين « . . . مايفعله بعض النساء فى زيارة القبور فى ركوبهن على الدواب فى الذهاب والإياب، وفى مس المكارى لهن وتحضينه للمرأة فى إركابها وإنزالها . وحين مضيها يجعل يده على فخذها وتجعل يدها على كتفه، مع أن يدها ومعصمها مكشوفان . »[٢٥] أما فى القرافة نفسها ، فقد رأى « ابن الحاج » أن الأمر اشتمل على مفاسد عديدة منها « . . . مشيهن بالليل مع الرجال فى زيارة القبور ، والاختلاط بالرجال والضحك والغناء . . . » كما انتقد « . . . ماأحدثوه من الوعاظ على المنابر والكراسى والمحدثين من القصاص فى الليالى المقمرة وغيرها ، واجتماع الرجال والنساء جميعاً مختلطين . . . كذلك القراء الذين يقرءون القرآن بالترجيع والزيادة ، والنقصان، ورفع الأصوات الخارجة عن حد السمت والوقار ، والتمطيط والمدّ . . على ترتيب هنوك الغناء . . [٢٦]» .

وعلى الرغم من كلمات « ابن الحاج » الحانقة الناقدة ؛ فإنه رسم لنا ـ من حيث لايدرى أو يقصد صورة حية للدور الاجتماعى للقرافة فى حياة القاهريين آنذاك . وقد أكد هذه الصورة عدد كبير من زوار القاهرة ، ومن الكتاب الذين كتبوا عنها فى ذلك الحين ، فقد تحدث بيلوتى الكريتى ـ الذى زار القاهرة سنة ١٤٢٠ م أن جميع فقراء القاهرة كانوا يذهبون إلى القرافة ليأكلوا ويأخذوا الصدقات ، كما ذكر أن مساحة القرافة كانت مثل مساحة البندقية [٢٧].

وإذا كنا قد استرسلنا إلى حد ما فى الحديث عن المشاهد والقرافة التى ذكرها « ابن جبير » ؛ فإن السبب فى ذلك راجع إلى تلك الصورة الباردة التى رسمتها كلمات هذا الرحالة لمؤسسات دينية / اجتماعية كانت من أهم محاور الحياة اليومية فى القاهرة . وهى تجسد نوعاً من الموروث الثقافى للمصريين عامة ؛ من حيث اهتمامهم بالموتى ، واحتفالهم بالمقابر واهتمامهم برونقها ونظافتها على نحو يفوق اهتمامهم ببيوتهم وشوارعهم . كما أن « ابن جبير» لم يدرك ثنائية الحزن والمرح فى طبيعة المصريين ؛ وهو الأمر الذى أثار دهشة بعض الزوار ، واستفز مشاعر الحنق والغضب لدى البعض الآخر . وكانت القرافة مسرحاً تتجلى عليه هذه الطبيعة المزدوجة بشكل واضح .

---

(٢٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص٢٦٩ ـ ص٢٧٠ .
(٢٤) نفسه ، جـ١ ، ص٢٥١ ـ ص٢٥٢ .
(٢٥) نفسه ، جـ١ ، ص٢٦٧ .
(٢٦) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٦٨ .
(٢٧) جاستون فييت ، القاهرة ، ص ٢١٥ ـ ص ٢١٦ .

ويبدو أن اهتمام « ابن جبير » بالجوانب الدينية قد غلب ماعداه عندما بدأ فى وصف القاهرة والفسطاط . إذ إنه ذكر أن السلطان صلاح الدين الأيوبى خصص لنفقات المدارس « بمصر والقاهرة ماقيمته ألفا دينار مصرية فى الشهر (٢٨) وروى أنه قد خُصص لمسجد عمرو بن العاص بالفسطاط نحو ثلاثين ديناراً « . . . فى كل يوم تتفرق فى مصالحه ومرتبات قومته وسدنته ، وأئمته ، والقراء فيه » كما حدثنا عن أربعة جوامع بالقاهرة تقام بها خطبة الجمعة ، وحرص على أن يوضح أن الخطباء سنيون فى مذهبهم وفى ملابسهم (٢٩) .

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن رحلة ابن جبير وزيارته لمصر تمتا فى وقت كانت الأحداث فيه تمر بمرحلة حاسمة ، فمنذ استبداد صلاح الدين بالحكم فى مصر بدأ العمل على إعادة المذهب السنى حتى فى حياة الخليفة العاضد آخر الفاطميين ، ففى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) عزل قضاة الشيعة . ثم جمع العلماء والفقهاء واستفتاهم فى قطع الخطبة للعاضد الفاطمى فوافقوه . وفى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر ١١٧١ م) صعد الشيخ نجم الدين الخبوشانى منبر جامع عمرو بن العاص قبل الخطيب ودعا للمستضىء بالله العباسى ، وفى الجمعة التالية أمر صلاح الدين بقطع خطبة العاضد وإقامة خطبة المستضىء فى كافة جوامع مصر والقاهرة (٣٠) . وهذا هو الأمر الذى أراد الرحالة ابن جبير أن يوضحه فى رحلته عندما تعمد ذكر أن الخطيب يأخذ فى الجوامع مأخذا سنياً . ويرتدى شعار العباسيين . كذلك فإن ماذكره عن الأموال المخصصة للإنفاق على المدارس كان ضمن سياسة عامة ترمى إلى إعادة نشر المذهب السنى فى الديار المصرية ، وكانت المدارس وسيلة ناجعة للغاية فى هذا السبيل (٣١) .

فإذا مضينا مع رحلة ابن جبير حدثنا عن قلعة القاهرة التى قال عنها مانصه : « يريد السلطان أن يتخذها موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . . » (٣٢) ، كما ذكر أن الأسرى كانوا يقومون بكافة الأعمال اللازمة لبناء هذه القلعة . ومن الواضح أن القلعة لم تكن قد بنيت بالفعل عندما شاهدها ابن جبير ، وهو مايؤكد ماذهبنا إليه من قبل من أن القاهرة كانت ماتزال عاصمة إدارية وسياسية . ويغلب علىَّ الظن أن صلاح الدين قد نسى أمر القلعة لكثرة مهامه فى بلاد الشام ؛ إذ إن القلعة لم يتم بناؤها وتصبح مقراً للحكم إلا على يد ابن أخيه الملك الكامل سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م)(٣٣) .

---

(٢٨) رحلة ابن جبير ، ص ٢٤ .   (٢٩) نفسه ، ص ٢٤ ـ ص ٢٥ .

(٣٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، (القاهرة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣ م) ، جـ ١١ ، ص ١٤٨ .

(٣١) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، (دار المعارف ١٩٨٤) ، ص ٧٠ ـ ص ٧٩ ؛ جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٣١ .

(٣٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥ .

(٣٣) بول كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، (ترجمة وتقديم أحمد دراج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤) . ص ٢٠ .

ويحدثنا ابن جبير أيضا عن البيمارستان ، أى المستشفى الذى أنشأه صلاح الدين الأيوبى فى أحد القصور الفاطمية ، وعين عليه مشرفاً من أهل المعرفة ، كما زوده بخزائن العقاقير والأشربة ، وكانت الخدمة فيه جيدة على مايبدو ، كما خصص جزءاً من هذا المستشفى للمرضى من النساء ، وجزء آخر للمجانين عبارة عن مقاصير عليها شبابيك الحديد (٣٤) .

وقد ذكر لنا الرحالة الأندلسى ابن جبير تحصينات صلاح الدين والجسر الذى بناه بإزاء النيل تحسباً لأى هجوم صليبى على الإسكندرية وقت الفيضان بحيث يمكن استخدام هذا الجسر لإرسال النجدات العسكرية دون عائق (٣٥) .

وقد انبهر ابن جبير بالأهرام التى قال عنها « . . لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك . . . » وقد أشار إلى الأساطير التى نسجت حول الأهرام ، فقال إن البعض جعلوها قبورًا لعاد وبنيه . وبعضهم زعم غير ذلك « . . . وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عزَّ وجل . . . » كما وصف أبا الهول بأنه صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعه على صفة آدمى هائل المنظر « . . . تعرف بأبى الأهوال . . (٣٦) .

حدثنا ابن جبير بعد ذلك عن مدينة مصر ، ويقصد بها الفسطاط والعسكر والقطائع التى صارت آنذاك العاصمة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية على الرغم من أنه ذكر لنا آثار الحريق الذى كان قد أحرق الفسطاط إبان الصراع بين شاور وضرغام سنة ٥٦٤هـ . وقد ذكر ابن جبير أن الفسطاط كانت قد تجددت عند زيارته لها « . . . والبنيان بها متصل » (٣٧).

هكذا كانت رؤية « ابن جبير » للقاهرة عاصمة العالم الإسلامى فى لحظة تمثل نقطة فارقة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وهى تواجه الهجوم الصليبى بالجهاد والمقاومة الإيجابية التى أسفرت عن هزيمة الصليبيين فى حطين ، واسترداد بيت المقدس ، وتقلص اللون الصليبى على خريطة المنطقة العربية إلى أقل ما يمكن . وعلى الرغم من برود الوصف الذى أمدتنا به رحلة ابن جبير للحياة فى العاصمة المصرية آنذاك ، فإن إشاراته كانت تثير الكثير من الاهتمام بتطور القاهرة ، ومنشآتها ذات الوظيفة الدينية / الاجتماعية وفى تصورنا أن اهتمام ابن جبير ـ الذى كان فى رحلة حج إلى الحجاز ـ بالجوانب الدينية ، وحرصه على إبراز مشاعره الدينية الجياشة ، هما اللذان حالا بينه وبين الاهتمام بالحياة اليومية فى « مصر والقاهرة » .

و إذا كان ابن جبير قد زار القاهرة فى بداية العصر الأيوبى ، فإن لدينا رحالة آخر من الأندلس زار العاصمة المصرية فى أواخر ذلك العصر . هذا الرجل هو « على بن موسى بن محمد بن سعيد » الذى

---

(٣٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٦ .

(٣٥) الرحلة ، ص ٢٧ .

(٣٦) نفسه ، ص ٢٨ ـ ص ٢٩ .

(٣٧) نفسه ، ص ٢٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢ ـ ص ١٣ .

زار مصر بصحبة أبيه سنة ٦٣٩ هـ ، والذى كان آخر حلقة فى سلسلة من المؤلفين من أهل الأندلس ألفوا كتاب « المغرب فى حُلى المغرب » على مدى مائة وخمس عشرة سنة . [٣٨] وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب الذى اشترك فى تأليفه ستة من الرجال، على مدى هذه السنوات الطوال ، فإننا سنقصر اهتمامنا على القسم الذى سماه « النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة » [٣٩] .

وقد زار مؤلفنا « على بن موسى » (الذى سنذكره بلقب « ابن سعيد » فى هذه الدراسة) مصر سنة ٦٣٩ هـ ومكث بها حتى سنة ٦٤٤ هـ حين رحل إلى حلب ، وبعد رحلة بين دمشق وبغداد وأرمينية يعود إلى تونس سنة ٦٥٢ هـ ، ليعاود الرحيل إلى المشرق سنة ٦٦٦هـ ، ثم يثوب إلى تونس ويبقى بها حتى وفاته سنة ٦٨٥ هـ . [٤٠] وقد دون ابن سعيد كتابه وهو فى ضيافة المؤرخ المعروف « ابن العديم » بحلب فيما بين سنتى ٦٤٥ ، ٦٤٧ هـ .

والمشكلة الأساسية أن الكتاب موزع فى تأليفه بين موسى وابنه على ومن ثم فإننا نظن أن المشاهدات الحية دونها قلم « الابن » لأن الأب توفى فى السنة التالية لوصوله إلى مصر [٤١] .

يبدأ « ابن سعيد » حديثه باقتباس عن البيهقى فى الحديث عن القاهرة ، ثم يحدثنا عن قصر ابن طولون بعد أن اندثر ، فيقول : « . . . وقصر ابن طولون فى مدينة القطائع الآن هو ميدان تحت قلعة الجبل ، أخبرنى بذلك من سألته من العارفين بهذا الشأن ولم يبق الآن أثر لمدينة القطائع الطولونية غير جامع ابن طولون ، وهو خارج القاهرة ، وحوله المبانى من غير سور يدور عليها . . . » [٤٢] .

وهنا نجد إشارة واضحة من « على بن سعيد » بأنه دوَّن مشاهداته فى القاهرة ؛ إذ يقول « وقد جمعت ملتقطات من كتاب البيهقى وكتاب القرطبى وغيرهما من الكتب ، وأضفتها إلى ماعاينته وعلمته من أمر مدينة القاهرة ، لأنى سكنت فيها كثيراً داخلاً وخارجاً . . . » .

وعلى الرغم من أن القاهرة قد شهدت فى تلك الفترة أحداثاً جساماً تحت حكم السلطان الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧/ ٦٤٧هـ ـ ١٢٤٠ / ١٢٤٩ م) ، انتهت باستيلاء قوات الحملة الصليبية السابعة على دمياط ، ثم استئثار المماليك بحكم البلاد بعد هزيمة الصليبيين وأسر لويس التاسع .

---

(٣٨) انظر المقدمة التى كتبها الدكتور شوقى ضيف لكتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، (الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٨ م) ، جـ١ ، ص ١ ـ ص ٩ .

(٣٩) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب) تحقيق دكتور حسين نصار (دار الكتب ١٩٧٠ م) .

(٤٠) المغرب ، جـ١ ، ص ٧ .

(٤١) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، ص ١٤ .

(٤٢) نفسه ، ص٢١ ـ ص٢٢ .

، شاه آخر الأيوبيين فى مصر على أيدى فرسان المماليك (٤٣) ـ نقول إنه على الرغم من ذلك
عيد » لم يهتم بالأمور السياسية والعسكرية الجارية ، واكتفى بأن يعبر عن مشاعره غير
ناهرة منذ السطور الأولى .

ن سعيد » عن القاهرة « هذه المدينة إسمها أعظم منها »(٤٤)ثم يصف « بين القصرين»
احة متسعة للعسكر والمتفرجين ، وهو يتمنى لو أن القاهرة كلها كانت كذلك؛ بيد أنه
يق شوارع القاهرة ، وكثرة الدكاكين على جانبى الطريق ، وكيف كانت الدواب تزاحم
، « . . . تضيق منه الصدور ، وتسخن منه العيون . . . » ، « . . . وأكثر دروب القاهرة
ة ، كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين، . مرتفعة ، قد ضيقت
والضوء بينها . . . » (٤٥).

غم من كلمات « ابن سعيد » الحانقة ، يرسم لنا صورة حية للقاهرة فى أواخر العصر
قد أمست موطنا ومستقراً ومقاماً لأبناء الطبقة الشعبية من الحرفيين ، وأصحاب المهن .
لم تعد تلك المدينة الإدارية / السياسية التى كانت عندما بدأ حكم الأيوبيين . ويبدو أن
، تربى ونشأ فى بيت من بيوت الأمراء ، لم يستطع أن يتسامح مع زحام القاهرة وصخبها
أنذاك ؛ فقد كانت شوارع القاهرة ضيقة غير مرصوفة ، تربط بينها أحيانا ساحات واسعة
الشكل تتحول أجزاء منها إلى برك زمن الفيضان ، ثم تصبح حقولاً وحدائق بعد أن
الفيضان . وفى الشوارع يتدافع جمهور من جنسيات مختلفة ويتزاحم ويختصم أفراده حق
واب . . .

ك كثيرون من الرحالة الذين زاروا القاهرة « ابن سعيد » رأيه فى زحام القاهرة ، وإن لم
م مشاعر الحنق والغيظ البادى فى كلماته (٤٦)ويبدو عداء ابن سعيد للقاهرة فى هذه
. . ومن عيوب القاهرة أنها فى أرض النيل الأعظم ، ويموت الإنسان فيها عطشاً لبعدها
نيل (٤٧) . . . » فالمصادر التاريخية تؤكد لنا أن عدداً كبيراً من السقائين كانوا ينقلون مياه

، السلوك لمعرفة دول الملوك ، (تحقيق د . محمد مصطفى زيادة) ، جـ١ ، ص ٢٥٩ ـ ص ٢٦٠ ؛ انظر
مد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١ م) ، ص١٤٥ـ
.

الزاهرة ، ص ٢٢ . (٤٥) النجوم الزاهرة ، ص ٢٤ .

ن فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص ١١٧ ـ ص ١٢٦ . وقد كانت شوارع المدينة ضيقة جدا
. بسبب حرارة الجو ، فقد تراوح عرض الشارع بين خمسة أقدام وخمسة عشر قدماً ، بل إن منها ما كان
ضه بين قدمين وقدمين ونصف فقط . وكثيراً ما كانت تتماس شرفات المنازل المتقابلة فى هذه الشوارع .
من شوارع القاهرة كانت مغطاة أيضا من أعلى لاسيما فى مناطق الأسواق ـ انظر : جومار ، وصف مدينة
ص٧٦ .

الزاهرة ، ص ٢٥ .

نهر النيل إلى سكان القاهرة فى قرب المياه التى كانوا يحملونها على ظهور جمالهم وحميرهم ، أو على أكتافهم . ولفت نظر الرحالة الذين زاروا القاهرة آنذاك كثرة عددالسقائين (٤٨). والجدير بالذكر أن الماء كان يباع بالقربة ، وفى بعض الأحيان كان السقاءون يأخذون أجورهم مقدما ، ثم يرسلون صبيانهم لتفريغ قرب المياه فى الأزيار داخل المنازل . كذلك كان السقاءون يقدمون خدماتهم للطواحين والمعاصر ومعاجن الطين التى كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه (٤٩).

وقد عرف الشارع المصرى آنذاك طائفة من السقائين عرفوا باسم « سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء » . ويبدو أن أولئك السقائين كانوا أصحاب الحوانيت التى توضع بها الأزيار والكيزان مقابل مبلغ متعارف عليه . وقد كان المحتسب مسئولاً عن مراقبة نظافة هذه الأزيار والكيزان وعدم غش مياه النيل بمياه الآبار(٥٠) وكان « أرباب الروايا والقرب والدلاء» من طائفة السقائين يبيعون المياه فى الشوارع والأسواق(٥١) . وفضلاً عن هذا كله ، كانت بالقاهرة عدة أسبلة توزعت على شوارعها لتسهيل حصول المارة على المياه للشرب ، بل كانت هناك أيضا أحواض لشرب الحيوانات فى مواضع مختلفة فى مدينة القاهرة(٥٢) . وكانت تلك الأسبلة توفر مياه الشرب والوضوء المجانية لسكان القاهرة وزائريها ، وقد كان عدد أسبلة القاهرة كبيراً بالفعل .

ومن هنا فإن ماذكره « ابن سعد » عن عطش الإنسان فى القاهرة لبعدهاعن النيل أمر جانب الحقيقة إلى حد كبير . ولكن رحالتنا المرفه لم يغفل ذكر أماكن النزهة والخروج فى القاهرة ، فحدثنا عن «أرض الطبالة » التى قال عنها : « . . . وأحسن موضع فى ظاهرها للفرجة أرض الطبالة ، لاسيما أيام القرط والكتان . . . »(٥٣) وقد وصفها المقريزى فى خططه أيضا بأنها من أحسن أماكن النزهة فى القاهرة ، وفى أيام الربيع كانت رؤيتها شيئاً عجيباً . والسبب فى تسميتها بهذا الاسم أنه لما نجح الأمير أبو الحارث أرسلان البساسيرى فى الاستيلاء على بغداد ، وأقام الدولة الفاطمية هناك سنة ٤٥٠هجرية ، وأرسل عمامة الخليفة القائم العباسى وثيابه إلى الخليفة المستنصر الفاطمى ، أمر الأخير بإقامة الزينة والأفراح فى القاهرة . وقفت امراة تدعى « نسب » ، كانت طبَّالة المستنصر ، وأنشدت بيتين من الشعر أعجبا المستنصر فوهبها تلك المنطقة (٥٤) . وقد ظلت هذه المنطقة متنزهاً لأهل القاهرة

---

(٤٨) رحلة البلوى المغربى ، ص ٥٥ .

(٤٩) قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ـ عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٨٣ ، ط . ثانية) ، ص ١٣٠ ـ ص١٣ .

(٥٠) ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة (نشره ليفى R.Levey كمبردج ١٩٣٧ م) ص ٣٤٨ .

(٥١) قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٥٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، (دار النهضة العربية ط . أولى ١٩٦٢) ، ص٩٠ ص ٩١ .

(٥٣) النجوم الزاهرة ، ص ٢٥ .

(٥٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ .

حتى خربت سنة ٦٩٦ هـ بسبب الوباء الذى ألم بمصر آنذاك « . . . حتى لم يبق فيها إنسان يلوح . . . » وبقيت خراباً حتى سنة ٧١١ هـ وبدأ الناس فى سكناها حتى صار بها عدة حارات ، ثم خربت ضمن ما خرب من أحياء القاهرة وضواحيها سنة ٨٠٦ هـ حتى صارت كيماناً ، وبقى منها جزء فى عصر المقريزى عرف بالجنينة اشتهرت ببيع « ... الحشيشة التى يبتلعها أراذل الناس[٥٥] . . » .

كذلك افتتن « على بن موسى بن سعيد » ببركة الفيل فى ضواحى القاهرة « لأنها دائرة كالبدر. والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب . . . »[٥٦] ورحالتنا يشير هنا إلى حقيقة أن متنزهات أهل القاهرة فى ذلك الزمان كانت كثيرة ، لاسيما فى ضواحى المدينة، والجزر الموجودة فى النيل التى كانت مراحاً للقاهريين للتفريج عن أنفسهم والاستمتاع بالحدائق والمتنزهات والبرك .

انتقل « ابن سعيد » بعد ذلك إلى الحديث عن الفسطاط ، ووصفها بأنها أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة « . . . فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويُباع مايصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة . . . »[٥٧]ويشير ابن سعيد هنا إلى حقيقة هامة مؤداها أن ميناء الفسطاط النهرى ، ظل هو ميناء العاصمة المصرية حتى بدايات القرن التاسع الهجرى (١٥م) ، ففى سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م بدأ ظهور ميناء « بولاق » ليكون ميناء القاهرة بدلاً من الفسطاط ، ولكنه لم يكتسب أهمية تذكر فى الحياة الاقتصادية قبل نهاية القرن . ومع مطلع القرن التاسع الهجرى كان ميناء الفسطاط قد تلاشى ، كما تدهورت الفسطاط وفقدت أهميتها الاقتصادية بشكل تدريجى حتى هجرها الناس فى نهاية القرن التاسع الهجرى[٥٨] .

ثم انتقل الرحالة الأندلسى إلى وصف القاهرة بكلمات مديح معتدلة ، ولكنه وهو سليل بيت الإمارة ، أرجع ذلك لكونها مسكن أصحاب السلطة ؛ إذ يقول : « والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما . وأضخم خانات ، وأعظم دثاراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها ، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر . . . »[٥٩] ثم أشار إلى أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب كان يبنى فى ذلك الوقت قلعة بجزيرة الروضة بحيث ازدهرت الفسطاط نتيجة لذلك وانتقل إليها كثير من الأجناد ، وتم بناء قيسارية ضخمة « . . . تنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد ، التى يباع فيها الفراء والجوخ وماأشبه ذلك[٦٠] . . . » وهو هنا يشير إلى انتقال مقر الحكم بشكل مؤقت إلى الحصن الذى أقامه الصالح أيوب سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وأحاطه بسور به ستون برجاً

(٥٥) نفسه ، جـ٢ ، ص ١٢٥ .
(٥٦) النجوم الزاهرة ، ص ٢٦ .
(٥٧) نفسه ، ص ٢٧ .
(٥٨) جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٣٨ (من تقديم د . أيمن فؤاد سيد)
(٥٩) النجوم الزاهرة ، ص٢٧ .
(٦٠) نفسه ، ص ٢٧ .

للحراسة ، وقد استخدم عدداً كبيراً من أسرى الصليبيين فى بناء البرج على نحو ما فعل جده صلاح الدين الأيوبى عندما أمر ببناء القلعة (٦١) .

وهذا الخبر يشير إلى أمر كان له تأثيره الخطير على مصير الحكم الأيوبى فى مصر من ناحية ، وقيام دولة سلاطين المماليك البحرية من ناحية أخرى . فالسلطان الصالح نجم الدين أيوب يعد هو المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذى أدى إلى استيلائهم على الحكم ؛ إذ إن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ، ومن ثم اشترى عدداً كبيراً من المماليك الذين رباهم ودربهم ليكونوا العمود الفقرى لجيشه ، وكان هؤلاء المماليك من جنسيات مختلفة ؛ أتراك ، ومغول ، وصقالبة وألمان ، وأسبان ، وجراكسة ، ويونان . . . وغيرهم . إلا أن غالبيتهم فى دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز ، على حين كانت معظم عناصرهم فى الدولة الثانية من الجراكسة (٦٢) .

وقد أسكن الصالح نجم الدين أيوب مماليكه فى قلعته الجديدة بالروضة ، ولهذا عرفوا باسم «البحرية » نسبة إلى « بحر النيل » ، وهو الاسم الذى اعتاد أهل مصر أن يطلقوه على نهرهم العظيم (٦٣) .

تحدث « ابن سعيد » بعد ذلك عن العملة المتداولة فى القاهرة والفسطاط ، كما ذكر أن الإصابة برمد العين منتشرة بين سكان القاهرة . كذلك حدثنا ، بسرعة ، عن أحوال أهل الذمة من اليهود والنصارى ، فقال إن أكثر ما يتعيش به اليهود والنصارى فى كتابة الخراج والطب « . . . والنصارى بها ممتازون بالزنار فى أوساطهم واليهود بعلامة صفراء فى عمائمهم ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة (٦٤) .

وهنا نجد أنفسنا مضطرين للوقوف أمام ملاحظات « ابن سعيد » السريعة التى تدل على أنه دوّن ملاحظات شديدة السطحية ؛ فالثابت من المصادر التاريخية ووثائق الجنيزا أن اليهود المصريين قد عملوا فى عدد من المهن والحرف قاربت المائتين وخمسين حرفة يدوية ؛ فضلاً عن ممارستهم لحوالى مائة وسبعين نمطاً من النشاط فى مجالات الاقتصاد والإدارة والتعليم والطب . وقد عمل اليهود فى كل المهن

---

(٦١) جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٣١ .

(٦٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ ؛ قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١١ .

(٦٣) يشك الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى هذه النسبة ، انظر : زيادة ، « بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك » ، حوليات كلية الآداب / جامعة القاهرة ، مجلد ٤ / سنة ١٩٣٦ م . وقد أيده فى ذلك الأستاذ الدكتور مختار العبادى ، انظر : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، (النهضة العربية ١٩٦٩) ، ص ٩٦ ص ١٠٠ .

(٦٤) النجوم الزاهرة ، ص ٢٨ .

تقريباً ؛ بدءاً بالوزارة وانتهاء بأصغر المهن التى عرفها المجتمع المصرى آنذاك (٦٥). وإذا كان هذا هو حال اليهود المصريين ، فمن المنطقى أن المسيحيين قد عملوا فى كافة الوظائف بالإضافة إلى الزراعة التى لم يكن اليهود يمارسونها وتشير الوثائق والمصادر التاريخية إلى أن المسيحيين المصريين قد مارسوا كل المهن والحرف التى مارسها المسلمون (٦٦) .

تحدث « ابن سعيد » بعد ذلك عن بعض الأطعمة التى قال إن أهل القاهرة يأكلونها فقال (٦٧): « . . . ومأكل أهل القاهرة الدميس والصِّير والصحناه والبطارخ » ويبدو أنه تحدث عن الأسماك المملحة مثل الملوحة والفسيخ ، وهنا يبدو أن الرجل قد سجل مارآه غريباً ، لأنه من الثابت أن قائمة طعام القاهريين كانت تضم أصنافاً كثيرة ذكرتها كتب الحسبة والمصادر التاريخية الأخرى ؛ فقد تحدثت هذه الكتب عن عدد كبير من حرف الغذاء التى عرفتها القاهرة آنذاك (٦٨) كما أن العدد الكبير من المطاعم التى قدرها الرحالة بالآلاف ، والباعة الجائلين بالطعام فى الأسواق كانوا يقدمون قائمة متنوعة وغنية من الأطعمة للقاهريين (٦٩) . ومن المهم هنا أن نشير إلى أن بعض المصادر أوردت لنا قائمة تحوى حوالى ثلاثة وخمسين نوعاً مشهورا من الحلوى التى أحبها القاهريون وكانت تباع فى شوارع القاهرة وأسواقها ، (٧٠) وهو الأمر الذى يتأكد من المصادر التاريخية الأخرى على أية حال .

تحدث ابن سعيد ، بسرعة أيضا ، عن مطابخ السكر ، والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى، وقال إنها « . . . مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة . . . » كما ذكر شيئا عن صناعة الجلود والثياب (٧١) . وإشارة ابن سعيد لمطابخ السكر فى الفسطاط تبدو على قدر كبير من الأهمية ؛ إذ يبدو أن غالبية هذه المصانع الصغيرة كانت مركزة فى الفسطاط حتى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) على أقل تقدير ؛ فقد أحصى لنا ابن دقماق (توفى ٨٠٥ هـ) ثمانية وخمسين مطبخاً للسكر فى الفسطاط وحدها . وكانت صناعةالسكر من الصناعات الغذائية الهامة لارتباطها بحياة الرفاهية التى عاشها الحكام من جهة ، وبعادات وتقاليد المصريين من جهة أخرى . وكانت بعض مطابخ السكر مملوكة لأفراد من عامة المصريين ، وبعضهم من اليهود . وفى بعض الأحيان كان أصحاب هذه المصانع

---

(٦٥) قاسم عبده قاسم ، اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، (دار فكر ١٩٨٧ م) ، ص ٥٩ ص٦٠ .
(٦٦) قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٧٥ ـ ص ٧٦ .
(٦٧) النجوم الزاهرة ، ص ٢٨ .
(٦٨) ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٤٧ ـ ص ٤٨ ، ص١٥٨ ـ ص ١٦٠ .
(٦٩) عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٨٧ ؛ قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١١٨ ـ ص ١١٩ .
(٧٠) ابن الأخوة ، المصدر السابق ، ص ١٨١ ـ ص ١٨٣ .
(٧١) النجوم الزاهرة ، ص ٢٩ .

الصغيرة يديرونها بأنفسهم ، على حين كان البعض الآخر يؤجرونها . وينبغى أن نشير إلى أن الفسطاط قد اشتهرت بكونها أحد مراكزصناعة السكر الهامة فى مصر آنذاك (٧٢) .

ويبدو أن « ابن سعيد » قد لمس فى القاهرة شيئاً لم يألفه فى بلاده ، فقد قال مانصه « وهى مستحسنة للفقير الذى لايخاف على طلب زكاة ولاترسيما وعذاباً عليها ، ولايطلب برفيق له إذا مات فيقال له : ترك عندك مالاً ، فربما سجن فى شأنه أو ضرب وعصر . والفقير المجرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماعات والفرج فى ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما ذهب إليه ، له نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق ، أو تجريد ، أو سكر من حشيشة ، أوصحبة المردان ، ومأأشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب » (٧٣) .

فى هذا النص رسم « ابن سعيد » صورة حية لحياة الفقراء من عامة أهل القاهرة آنذاك ؛ وقد لاحظ زوار القاهرة فى ذلك العصر أن هناك عدداً كبيراً من الفقراء يعيشون فى القاهرة ، وقد تراوحت مسمياتهم فى المصادر التاريخية بين « العوام » الذى كان لفظاً عاماً ، أو « الزعر » « والحرافيش » . «والبلاصية »، « والشلاق » و « والمشاعلية »(٧٤) ومن الواضح أنهم عاشوا فى القاهرة فى حرية تامة وعملوا فى حرف الخدمات والحرف الدنيا التى كان مجتمع القاهرة بحاجة إليها . وفى الفترة التى زار فيها « ابن سعيد » القاهرة ، كانت أمور الحياة سهلة ميسورة كما يبدو من النص نفسه ؛ فالخبز متوفر ورخيص ، كما أن أماكن النزهة والفرجة وفرص سماع المطربين ميسورة . وربما كانت الحرية الفردية للقاهرى من أبناء الشرائح الاجتماعية الدنيا هى التى جعلت الرحالة « ابن بطوطة » ـ بعد حوالى قرن من الزمان ـ يقرر أن « . . . أهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو . . . » فقد شاهد زينة القاهرة احتفالاً بشفاء السلطان الناصر « محمد بن قلاون » من كسر فى يده(٧٥) أما ما أشار إليه « ابن سعيد » من مظاهر المجون والخلاعة والشذوذ الجنسى والدعارة ؛ فهو أمر معروف عن الحياة الاجتماعية فى القاهرة آنذاك ، وطوال عصر سلاطين المماليك ، وتؤكده المصادر والدراسات التاريخية الحديثة (٧٦) .

وقد لفت انتباه « ابن سعيد » كثرة الأزهار فى القاهرة وعدم انقطاعها وهو هنا يكشف عن حس فنان رقيق ، كما تحدث عن فواكه مصر ، وأشار إلى أن المصريين لم يعتادوا شرب نبيذ العنب ، ولكنهم اعتادوا شرب المزر الأبيض المستخرج من القمح (الجعة ، أو البوظة) ، ويبدو أن الإقبال عليه كان شديداً بحيث كان سعره يرتفع (٧٧) .

---

(٧٢) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٤ ، ص ٤١ ـ ص ٤٦ ؛ المقريزى ، جـ١ ، ص ٣٦٦ .

(٧٣) النجوم الزاهرة ، ص ٢٩ ـ ص ٣٠ .

(٧٤) عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٣٧ .

(٧٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، جـ١ ، ص ٥٣ .

(٧٦) عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٢٧ ـ ص ٢٣٣ ؛ قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص١٣٩ ص١٤٠ .

(٧٧) النجوم الزاهرة ، ص٣٠ ـ ص ٣١ .

وعاد مرة أخرى للحديث عن الخمور ، والموسيقى ، « وتبرج النساء العواهر » مقارناً ذلك بما كان يحدث فى بلاد المغرب [٧٨] .

هذه هى أهم الملاحظات التى دونها « ابن سعيد » عن رحلته إلى القاهرة فى السنوات التى شهدت غروب شمس الدولة الأيوبية ، وقيام دولة سلاطين المماليك؛ فقد توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى خضم الصراع ضد قوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) وقامت زوجته شجرة الدر بإدارة شئون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك، وجاء « توران شاه » ليحكم مصر خلفاً لأبيه الصالح أيوب ، ولكنه كان إخفاقاً أيوبياً جديداً ، فاغتاله كبار المماليك بشكل مأساوى مروع ، ومع دمائه التى بددتها مياه النيل تبددت آخر مظاهر السلطة الأيوبية فى مصر .

فى هذا الوقت العصيب كانت زيارة « ابن سعيد » للقاهرةالتى كانت قد صارت بؤرة النشاط الاجتماعى والاقتصادى والثقافى بمصر . وربما يفسر لنا هذا حقيقة الحيوية والحرارة التى رسمتها كلمات « ابن سعيد » للقاهرة على الرغم من كلماته الحانقة المعادية التى يمكن فهمها فى ضوء الحقيقة القائلة بأن الرجل كان سليل بيت من الأمراء ، وكان صدره يضيق بزحام القاهرة وصخبها وضيق شوارعها . بيد أن حيوية القاهرة ونشاطها الدائب فرضا نفسيهما على قلمه بحيث كانت أوصافه وملاحظاته ـ فى مجملها ـ أدق وأكثر حيوية من الرحالة الأندلسى الآخر الذى زارها قبل قرن من الزمان وهو ابن جبير الذى جاء إلى القاهرة فى السنوات الأولى من عمر الدولة الأيوبية وحين كانت المدينة ماتزال فى طريقها إلى التحول من حصن للإدارة والحكم والجيش ، إلى عاصمة حقيقية لمصر .

* * *

إن المقارنة بين وصف القاهرة فى رحلة ابن جبير الذى زار العاصمة المصرية فى بواكيرعصر الدولة الأيوبية ، ورحلة ابن سعيد ، الذى زارها فى سنوات الأفول والغروب التى عانتها دولة بنى أيوب تكشف عن أن خط المدينة قد سار فى اتجاه معاكس لخط الدولة التى تصادفت الرحلتين مع بدايتها ونهايتها . ففى الرحلة الأولى ، كانت القاهرة تبدأ تاريخها الحقيقى عاصمة لمصر والعالم العربى الإسلامى على استحياء ، وفى الرحلة الثانية كانت القاهرة قد استكملت كل المقومات التى تجعلها عاصمة عالمية . وانعكست هذه الحقيقة فيما أشارت إليه كلمات ابن سعيد عن سكانها ، ونشاطهم الاقتصادى والاجتماعى ، وعاداتهم وتقاليدهم . وقد تكرست هذه المكانة تماماً فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ هـ/ ٩٢٢ هـ ـ ١٢٥٠ / ١٥١٧م) . فقد صارت القاهرة عاصمة العالم الإسلامى كله، ووفد إليها العلماء والفنانون مع المهاجرين من شرق العالم الإسلامى وغربه ، وأصبحت مركزا للتجارة العالمية ، والنشاط السياسى والدبلوماسى فى العالم المعروف آنذاك . وانعكس ذلك ـ بطبيعة الحال ـ على شكل الحياة اليومية فى شوارعها وضواحيها . بيدأن هذه قصة أخرى .

---

(٧٨) نفسه ، ص٣١ ـ ص ٣٢.

مصر فى رحلة ابن بطوطة

« صور من الحياة الاجتماعية فى عهد الناصر محمد بن قلاون»

إن أهم مساهمات الرحلة ، فى تصورنا ، جاءت من خلال طرح معرفة الإنسان . ذلك أن الرحلة تكشف عن حال يتعرف فيها الإنسان على « الآخر » ، فى إطار بيئة مغايرة ، وثقافة مختلفة ، ونشاط حضارى بعيد عما ألفه واعتاده فى بيئته . وبذلك يصبح الإنسان أكثر استعدادا للاعتراف بوجود «الآخر » والتعاون معه .

لقد كانت عين الرحالة دائما بمثابة آلة تصوير تسجل ما يراه غريبا جديرا بالتصوير ، على حين كان الناس فى عاداتهم وممارساتهم اليومية لايرون فيه غرابة أو طرافة ، أو شيئا جديرا بالتسجيل . لقد كانت ملاحظات الرحالة هى المادة الخام لكثير من علوم البشر ، ولكن هذه الورقة تهتم بدراسة علاقة الرحالة بالتاريخ الاجتماعى . وفى رحلة ابن بطوطة التى قام بها فى فترة نابضة بالازدهار والحيوية من تاريخ مصر نجد كثيرا من الإشارات التى تفيدنا فى التعرف على ملامح المجتمع المصرى . إذ إن زيارة ابن بطوطة لمصر كانت فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) حين كانت القاهرة عاصمة العرب والمسلمين ، وكانت تحت حكم سلاطين المماليك فى عز قوتها ومجدها مزدهرة ثرية فى الداخل ، مرهوبة قوية فى الخارج .

هذه الورقة ستحاول مناقشة ملاحظات « ابن بطوطة » على الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك مقارنة بالمصادر التاريخية الأخرى بغية الوصول إلى صورة متكاملة للمجتمع المصرى قدر الامكان .

* * *

ابن بطوطة هو محمد بن عبد الله اللواتى ، ويكنى أبا عبد الله ، وابن بطوطة شهرة اشتهر بها هو وعائلته . كان مولده يوم الاثنين ١٧ رجب ٧٠٣ هـ (٢٥ فبراير ١٣٠٤ م) فى مدينة طنجة على مضيق جبل طارق شمال الغرب ، وهو من عائلة اشتغلت بالقضاء وتوارثته ، وعائلته من قبيلة لواته

البربرية[1] . وعندما بلغ رحالتنا سن الواحد والعشرين عزم على السفر إلى مشرق العالم الإسلامى بغية حج بيت الله الحرام والرواية عن علماء المشرق المشهورين والاستفادة من علمهم وورعهم . وهنا نجد أنفسنا أمام سبب هام من أسباب الرحلة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، لقد تنوعت دوافع الرحالة المسلمين حقيقة لكن الرحلة فى طلب العلم كانت من أهم دوافعهم بحيث أشار إليها العلامة ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة ، إذ قال : « . . . والرحلة لابد منها فى طلب العلم. ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال . . . »[2] كذلك كانت التجارة من الدوافع الهامة إلى الرحلة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، إذ كان التاجر المسلم شخصية معروفة فى أنحاء العالم المتحضر آنذاك ، وكان من بين هؤلاء التجار علماء تركوا لنا نفائس يفخر بها تراثنا . وتجسد رحلة التاجر سليمان السيرافى فى المحيط الهندى فى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ومعجم البلدان الذى ألفه ياقوت الحموى الذى كان تاجرا، دليلا على أن الرحلة بقصد التجارة لم تخل من العلم [3].

وهناك أسباب أخرى متعددة للرحلة عند المسلمين بطبيعة الحال ، بعضها شخصى وبعضها كانت سفارات بتكليف من أولى الأمر . بيد أن أهم ما يلفت النظر فى تاريخ الرحلة فى التراث العربى الإسلامى هو أن طابع المبادرة الشخصية كان العامل الحاسم فى غالبية تلك الرحلات . ولم تقم الدولة، أية دولة ، بتمويل هذه الرحلات سوى فى أضيق نطاق وعندما يكون القائم بالرحلة مكلفا بها من قبل الحكام .

ورحلة ابن بطوطة تدخل ضمن رحلات المبادرة الشخصية ، فقد بدأ رحلته يوم الخميس ، رجب سنة ٧٢٥ هـ . وكان المغرب حينذاك تحت حكم السلطان أبى سعيد عثمان من سلاطين بنى مرين . فذهب إلى تونس ، ثم الإسكندرية ، ثم عزم على الحج عن طريق صعيد مصر ، فمر بالقاهرة ، وزار عدة من مدن الدلتا ، وسار فى النيل مصعدا إلى جنوب الأقصر ، ومنها إلى البحر الأحمر ، ثم اضطر للعودة إلى القاهرة ليسافر منها إلى دمشق التى سافر منها إلى الحج .

وكانت زيارته الأولى لمصر التى دوّن فيها أهم ملاحظاته وانطباعاته ، ولكنه زار مصر بعد ذلك ثلاث زيارات قصيرة . . .

---

(١) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، (حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور على المنتصر الكتانى ـ مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ م ـ الطبعة الثالثة) ، جـ ١ ، ص ١٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٠٧ ، حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة رقم ١٣٨ ، الكويت ١٩٨٩) ، ص ٨٩ .

(٣) حسين فهيم ، المرجع السابق ، ص ٩٠ .

وصل ابن بطوطه الإسكندرية فى أول جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ ، أى فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٤)، وهو السلطان الذى يمثل عهده نقطة فارقة فى تاريخ دولة سلاطين المماليك نظرا لحالة الرفاهية والاستقرار التى ميزت حكمه بصورة عامة . وقد وصف ابن بطوطة الإسكندرية وصفا دقيقا ، وبهره ميناؤها الذى قال عنه : « . . . ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر فى مراسى الدنيا مثله ، إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ، ومرسى الكفار سرداق ببلاد الأتراك ، ومرسى الزيتون ببلاد الصين ، وسيقع ذكرها . . . » (٥)، وذكر ابن بطوطة أن أحد جوانب منار الأسكندرية عندما زاره كان متهدما ، ووصفه بدقة . كما أشار إلى أنه عاد لزيارته بعدخمس وعشرين سنة من زيارته الأولى ، « . . . فوجدته قد استولى عليه الخراب . . . » وذكر أن السلطان الناصر محمد بن قلاون كان شرع فى بناء منار مثله بإزائه لكن الموت لم يمهله (٦).

وهو هنا يشير إلى حقيقة هامة من حقائق عصر هذا السلطان الذى تميز عهده بالاستقرار وكثرة العمارة والبناء فقد أحصى ابن أيبك الدوادار ستة وعشرين جامعا أنشئت فى القاهرة وحدها بخلاف الزوايا والخوانق فى عهد الناصر محمد بن قلاون (٧). كما أن المقريزى أشار فى ترجمته لهذا السلطان إلى أنه كان يحب العمارة ، وقدر مصروفه على العمارة بمعدل ثمانية آلاف درهم يوميا طول سنى سلطنته الثالثة(٨).

وبعد أن عبر عن إعجابه ودهشته بعمود السوارى ، حدثنا بإفاضة عن علماء الإسكندرية ، كما تحدث عن كبار الصوفية منهم والكرامات المنسوبة إليهم (٩) . وينطوى كلام ابن بطوطة هنا على إشارتين غاية فى الأهمية عن الحياة فى مصر إبان القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، فقد

---

(٤) تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون عرش مصر ثلاث مرات كانت أولاها سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م بعد مصرع أخيه الأشرف خليل ، وكان مايزال طفلا فى الثامنة من عمره ، ولم يستمر فيها سوى سنة واحدة ، والثانية سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م ولكنها كانت مجرد سلطنة صورية لم تستمر سوى بضع سنوات حتى اعتزل هو الحكم سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م ، ثم كانت سلطنته الثالثة ، الحقيقية ، سنة ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م لتستمر أكثر من ثلاثين سنة انتهت بوفاته سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م بعد أن جاوز عمره الستين . وكانت تلك الفترة من أهم فترات العصر المملوكى لما تميزت به من ازدهار وإعادة ترتيب النظامين الإدارى والمالى فى الدولة . انظر : حياة ناصر الحجى ، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف فى عهده : (مكتبة الفلاح ـ الكويت ١٩٨٣) ، ص ١٩ ـ ٣٠ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ، جـ ١ ص ٣٧ .

(٦) نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

(٧) ابن أيبك الدوادار ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر (وهو الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر ـ تحقيق هانس روبرت رويمر ، الخانجى ـ القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٣٨٨ ، ٣٩٠ .

(٨) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ٢ (تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٧١ م) ، ص ٥٢٣ . ٥٤٨ .

(٩) رحلة ابن بطوطة ، جـ ، ١ ، ص ٣٨ ، ٤١ .

كانت مصر فى أوج عزها وازدهارها فى شتى الجوانب . إذ إن الظروف التاريخية التى أحاطت بالعالم الإسلامى فى منتصف القرن السابع الهجرى أفرزت دولة سلاطين المماليك لتقوم بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامى على مدى مايزيد على قرنين ونصف من الزمان . وفى ظل الحماية التى وفرتها دولة سلاطين المماليك كانت مصر مقصدا للعلماء والفقهاء والطلاب والرحالة من شتى أرجاء العالم الإسلامى . وخير دليل على ذلك النشاط الثقافى الزاهر هو ما خلفه لنا ذلك العصر من تراث ضخم فى شتى نواحى المعرفة الإنسانية (١٠) .

وهذه هى الاشارة الأولى التى تضمنها كلام ابن بطوطة عن العلماء الكثيرين الذين لقيهم بالإسكندرية ، وفيهم العديد من أهل المغرب والأندلس .

والحقيقة أن هناك مجموعة من الأسباب الموضوعية وراء تمركز هذا العدد الكبير من العلماء والمفكرين المسلمين فى رحاب دولة سلاطين المماليك فى مصر ، إذ إن الأحوال السياسية المعاكسة . والكوارث التى أصابت المسلمين شرقا وغربا كانت وراء هجرة العلماء إلى مصر والشام . فقد شهدت خمسينيات القرن السابع الهجرى اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامى والقضاء على الخلافة العباسية ببغداد . وأدى ذلك ، بطبيعة الحال ، إلى انهيار الدور الثقافى الذى كانت بغداد تقوم به فى الحياة الثقافية العربية الإسلامية . وهاجر الناجون من علمائها إلى الشام ومصر . أما فى الغرب ، فقد كانت الحرب التى شنها الكاثوليك الأسبان ضد المسلمين تؤتى ثمارها ، وبدأ اللون الإسلامى يتراجع أمام اللون الكاثوليكى على خريطة أسبانيا ، وقد أدت الأحداث العسكرية والفظائع التى واكبتها إلى هجرة عدد كبير من العلماء إلى مصر ، واستقر بعضهم بالإسكندرية على نحو ما ذكر ابن بطوطة .

أما الإشارة الثانية الهامة فى كلام ابن بطوطة عن الإسكندرية فهى حديثه عن الصوفية . وفى تقديرنا أن انتشار التصوف وفرق الدراويش كان من النتائج السلبية للحروب الصليبية . فقد كان الصليبيون أقل عددا وعدة ، وأدنى فى مستواهم الحضارى من المسلمين ، ومع ذلك انتصروا بسبب حال التشرذم السياسى والأنانية وضيق الأفق الذى اتسم به حكام المنطقة العربية آنذاك . وأدى ذلك إلى تشبع النفوس بالغضب ومشاعر المرارة والإحباط التى زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد (١١) . لقد شعر الناس فى المنطقة بمدى عجز حكامهم .

---

(١٠) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ ـ قراءة فى التراث التاريخى العربى ، (ط . ثانية دار المعارف ١٩٨٥م) ص ١١٥ ومابعدها .

(١١) Fulcher de Chartres, Historia Hierosolymitana:
A history of the Expedition to Jerusalem 1095, (transl. by Francis Rita Ryon With an introduction by H. S. Fink, Knoxville 1961), pp 125 - 6,143 - 6,163 - 4, 174 - 5, 198.
حيث يحدثنا عن نهب الصليبيين للمناطق الريفية ـ انظر المصدر نفسه pp. 153 - 5, 167, 195 - 200
فى وصف المذابح وهروب السكان عقب استيلاء الصليبيين على قيصرية ، وطرسوس ، وعكا ، وطرابلس . وبيروت ، وصيدا .

وشاعت روح التقوى السلبية والتدين العاطفى الهروبى . وتجسد هذا كله فى انتشار الطرق الصوفية الجاهلة من الدراويش وكراماتهم المزعومة على أنها من حقائق التاريخ .

ومع أن التصوف ـ بمعنى النسك والزهد والتفقه فى الدين ـ قد ظهر على استحياء فى القرن الثالث الهجرى(١٢) ، ثم انتشر رويدا رويدا ، فإنه لم يتخذ شكل الظاهرة السائدة فى الحياة الاجتماعية قبل العصر الأيوبى . لقد كان هناك فريق من المتصوفه أقرب إلى الفلاسفة ، يميلون إلى العقل أكثر مما يجنحون إلى الخرافات والغيبيات . ولكن مصرع السهروردى ـ المعروف باسم « السهروردى المقتول » بتحريض مشايخ حلب وبفتوى منهم ، وبأمر من صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧ هـ (١٣) ، كان مؤشرا على اتجاه يناصر الدروشة على حساب العقل تقربا وزلفى إلى جيوش العامة من المريدين الذين تبعوا أولئك الدراويش . وتمثل اهتمام صلاح الدين والأيوبيين بهذا النمط من التصوف فى اعتماد صلاح الدين الأيوبى عليهم فى إذكاء حماسة جنوده من جهة ، وإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليهم من جهة أخرى (١٤) . وبينما توارى المتصوفة الفلاسفة ظهر المتصوفة الدراويش وأصحاب الطرق .

ومع مرور الوقت بدأت تظهر أنماط غريبة من الدراويش وأصحاب الطرق لاسيما فى عصر سلاطين المماليك لدرجة أنه وجدت فى مصر آنذاك حوالى ست وثلاثين فرقة . وقد استغل سلاطين المماليك الصوفية فى تدعيم سلطانهم والترويج لهم عند العامة (١٥) . ومنذ بداية هذه الدولة كان السطان الظاهر بيبرس يقرب المشعوذين والدراويش والمجاذيب (١٦) ، وكذلك فعل المنصور سيف الدين قلاون ، وسائر سلاطين المماليك ، ولم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاون استثناء فى ذلك بطبيعة الحال . وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك عند حديثه عن الزوايا فى مدينة القاهرة .

وربما يكون مفيدا أن نورد نص كلام ابن بطوطة ، إذ يقول (١٧) : « وأما الزوايا فكثيرة ، وهم يسمونها الخوانق ، واحدتها خانقة . والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، وأكثرهم الأعاجم ، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف . ولكل زاوية شيخ

---

(١٢) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، (ط . ثامنة ، القاهرة ١٩٦٨م) ، ص ٩٥ ـ ص ١٠٤ .

(١٣) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ م) ، ص١٠ .

(١٤) نفسه ، ص ٨٢ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٧٥ .

(١٥) محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر المملوكى ، جـ١ (دار المعارف ١٩٧١ م) ص ١٩٣ ـ ص ٢١٧ .

(١٦) محيى الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (تحقيق الدكتور عبد العزيز الخويطر . الرياض ١٩٧٦ م) ص ٢٣٨ ـ ص ٢٤٢ ، حيث يذكر أنه فى غزو الظاهر بيبرس لأرسوف سنة ٦٦٣ هـ حضر « . . . العباد والزهاد والفقراء إلى هذه الغزوة المباركة» .

(١٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، جـ١ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

وحارس. وترتيب أمورهم عجيب . ومن عوائدهم فى الطعام ، أنه يأتى خديم الزاوية إلى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد مايشتهيه من الطعام فاذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى إناء على حدة وطعامهم مرتان فى اليوم . ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد إلى عشرين . ولهم الحلاوة من السكر كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم . والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح . وهم أعزاب ، وللمتزوجين زوايا على حدة ، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية ، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به ، واذا صلوا الصبح قرءوا سورة الفتح ، وسورة الملك، وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم ، مجزأة، فيقرأ كل فقير جزءا . ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتى بباب الزاوية فيقف مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة . وبيمناه العكاز ،وبيسراه الأبريق ، فيعلم خديم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ويسأله من أى البلاد أتى ، وبأى زاوية نزل فى طريقه ، ومن شيخه ، فاذا عرف صحة قوله ، أدخله الزاوية ، وفرش له سجادته فى موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ، ويأتى إلى سجادته ، فيحل وسطه ، ويصلى ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ، ويقعد معهم ، ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم ، فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هناك ، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم، فيأتون المسجد ويصلى كل واحد على سجادته، فإذا فرغوا من الصلاة، قرءوا القرآن على عاداتهم ، ثم ينصرفون إلى الزواية ومعهم شيخهم » .

هذا النص يكشف عن أن المماليك ورثوا عن الأيوبيين الاهتمام بالصوفية وتشجيعهم مثلما ورثوا عنهم أمورا أخرى كثيرة . وبينما كانت البداية نابعة من رغبة صلاح الدين الأيوبى فى استخدام الصوفية للتعبئة المعنوية لجنوده ومحاربة التشيع ، انتهى الأمر فى عصر سلاطين المماليك بالرغبة فى تدعيم نفوذ السلطان ومكانته لدى رعيته .

وقد أخذ الناس فى مصر عن الصوفية عدة ممارسات وعادات ذميمة أشاعت التفسخ فى الحياة الاجتماعية لاسيما فى الشطر الثانى من عصر سلاطين المماليك ، ومنها لبس الغريب من الثياب . وحلق الشعر والشارب والحواجب ، والغناء والرقص على دقات الدفوف باسم الدين ، وشرب الخمر، وتدخين الحشيش أو أكله . وقد عرف الحشيش آنذاك باسم حشيشة الفقراء (والفقراء هنا بمعنى الصوفية)(١٨).

(١٨) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص ٤٣٢ ـ ص ٤٣٣ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ص ٤٠٧ حيث يذكر فى حوادث سنة ٦٥٥ هـ أن طائفة الصوفية الحيدرية قدموا إلى دمشق « . . . وعلى رؤوسهم طراطير ، ولحاهم مقصوصة ، وشواربهم بغير قص . . . » ـ انظر أيضا :
سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٦٢ ـ ١٧٥ .

ن بطوطة المدن التى مر عليها فى طريقه من الإسكندرية ، مثل مدينة دمنهور ، ومدينة ـية التى قال إنها حديثة المبانى ، ثم مدينة أبيار القديمة والتى قال إنه بها تصنع الثياب ـعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها (١٩) بيد أن أهم ما حدثنا به رحالتنا فى أبيار ـلال رمضان» ، إذ قال(٢٠) « . . . وعاداتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها العصر ـع والعشرين لشعبان بدار القاضى ، ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة ، فإذا أتى أحد الوجوه ، تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلا « باسم الله سيدنا فلان ـسمع القاضى ومن معه فيقومون له ، ويجلسه النقيب فى موضع يليق به . فاذا تكاملوا ، القاضى وركب من معه أجمعين ، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء ـينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم . وقد فرش ذلك ـط والفرش فينزل القاضى ومن معه فيرتقبون الهلال ، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة ـن أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع . ويصل ـاضى إلى داره ، ثم ينصرفون . هكذا فعلهم فى كل سنة » .

ـارة التفصيلية عن الاحتفال برؤية هلال رمضان فى إحدى المدن المصرية تكشف عن المصريين بإحياء هذا بمزيج من الاحتفال الدينى والسلوك الاجتماعى البهيج . وقد لفت ـة الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك كثرة الأضواء والمشاعل والحيوية التى تميز ـة فى شهر رمضان والتى تحيل ليلها إلى نهار . وتحدث بعضهم عن مظاهر السرور والغناء ـضلا عن حوانيت بيع الطعام والمطابخ التى كانت تظل مفتوحة طوال الليل (٢١) .

ـبن بطوطة بعد ذلك عن مدينة بلطيم ، التى يسميها ملطين ، وقد ذكر أنها « كثيرة النحل ـير البحرى والحوت المعروف بالبورى » (٢٢) . ومن المعروف أن هذه المدينة الساحلية ـتبر اليوم مصيفا مصريا هاما ، كما أن هذه المنطقة ما تزال مشهورة بأسماك البورى حتى ـحدث بعد ذلك عن دمياط فذكر أنها على شاطىء النيل ، « وأهل الدور الموالية يستقون منه ـء ، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل . وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره إلى مصر ـ. وغنمها سائحة هملا بالليل والنهار . ولهذا يقال فى دمياط سورها حلوى وكلابها (٢٣) . ثم يذكر أن دمياط هذه حديثة البناء ، والمدينة القديمة هى التى خربها الفرنج (٢٤) .

ـة ، جـ ١ ص ٤٤ ص ٤٦ .
ـلة ، جـ ١ ص ٤٦ .
ـد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٨٤ ـ ص ١٨٥ .
ـلة ، جـ ١ ص ٤٨ .
ـه ، ص ٤٨ .
ـه ، ص ٤٩ .

فى كلام رحالتنا إشارات غاية فى الأهمية عن الأحوال الاقتصادية ، وحال الرخاء التى عاشتها مصر آنذاك من ناحية ، وأهمية دمياط من ناحية ثانية ، ثم بعض آثار ونتائج الحملة الصليبية السابعة على المدينة التى كانت أهم موانىء البحر المتوسط من ناحية ثالثة .

وبالنسبة للإشارة الأولى فإننا نعرف من المصادر التاريخية الأخرى أن المراكب المحملة بالبضائع والآتية من الدلتا عن طريق فرع دمياط وفرع رشيد كانت تجتمع عند بلدة شطانوف التى كانت تبعد عن القاهرة آنذاك سبعة أميال ، كما أن السفن المحملة بالبضائع كانت تسير فى حركة دائبة طوال العام تحمل البضائع إلى القاهرة (٢٥). أما دمياط ، فقد كانت أهم ميناء مصرى على البحر المتوسط . وقد أدى هذا إلى تعرضها لعدة هجمات صليبية كان أهمها ما حدث إبان الحملة الصليبية الخامسة ، ففى أواخر شهر مايو سنة ١٢١٨ م وصلت الأساطيل الصليبية قبالة دمياط التى كانت بها قلعة حصينة فاستمرت تقاوم حتى سقطت فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ / ٥ نوفمبر ١٢١٩ م (٢٦) ثم حررها الجيش المصرى فى ٩ رجب ٦١٨ هـ / سبتمبر ١٢٢١ م ، وغرقت أوهام الصليبيين فى أوحال الدلتا . وتخلوا عن أطماعهم فى سبيل الفوز بالنجاة . بيد أن الاستيلاء على مصر ظل سرابا يجذبهم بقوة . وهكذا تعرضت دمياط لهجوم صليبى شامل آخر سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م حين نزلت قوات الحملة السابعة بقيادة لويس التاسع قبالة دمياط وسقطت المدينة بسرعة غير متوقعة (٢٧) . لكن المصير النهائى لهذه الحملة كان فشلا ذريعا بعد معركة شرسة قرب فارسكور ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ، تم فيها استئصال الجيش الصليبى ، وأسر لويس نفسه (٢٨) .

وكانت دمياط قد هدمت تماما فى خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة وأعيد بناؤها إلى الجنوب من المدينة القديمة لتكون بعيدة عن شاطىء البحر بحيث يتم تأمينها من هجوم الأساطيل الصليبية والأوربية . وفى سنة ٦٥٩ هجرية أمر السلطان الظاهر بيبرس بردم مصب فرع رشيد فى البحر المتوسط حتى لا تدخله السفن العسكرية الكبيرة الحجم ولم تعد تدخله من البحر المتوسط سوى مراكب التجارة الصغيرة . وهذا ما قصده ابن بطوطة بإشارته التى أوردها فى حديثه عن دمياط (٢٩) .

---

(٢٥) Dopp (P.H) , L'Egypte au Commenxement du quanzieme siecle, (Le Caire 1950) ,pp.23 .ff.

(٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٣١٥ ـ ص ٣١٨ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك . جـ ١ ص ٢٠١ .

(٢٧) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (سلسلة عالم المعرفة العدد ١٤٩ ـ مايو ١٩٩٠ م) ص ١٥٦ ـ ص ١٥٨ .

(٢٨) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

Joinville, The life of Saint Louis, (transl, by R. B. Shaw, Penguin 1975), pp. 197 2 264;Joseph R. Strayer, " Crusade of Lauis IX" , in Setton (ed.) , Ahist of the Crusades, II, pp. 487 - 518.

(٢٩) المقريزى : السلوك ،جـ ١ ص ٤٤٦ ، قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . (دار المعارف ١٩٧٨ م) ، ص ٨٥ ـ ص ٨٦ .

Encyclopaedia of Islam, Art. Damietta.

ثم حدثنا عن زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة الصوفية المعروفة بالقلندرية . وأفرادها يحلقون رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم (٣٠) . ولا بأس من أن نشير مرة أخرى إلى تحول الحركة الصوفية آنذاك إلى حركة تأثير سلبى على المجتمع المصرى . بعد ذلك وصف ابن بطوطة رحلته فى النيل من مدينة سمنود إلى الفسطاط ، وأورد نصا غاية فى الأهمية من حيث دلالته على الرخاء الذى كان سائدا فى مصر آنذاك ، يقول النص « ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا إلى مصر مابين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض . ولايفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد ، لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد » (٣١) .

وعندما وصل ابن بطوطة إلى العاصمة التى ذكرها باسم « مدينة مصر » راعه جمالها وازدحامها فقال « ثم وصلت إلى مدينة مصر ، وهى أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة . والبلاد الأريضة . المتناهية فى كثرة العمارة ، المتناهية بالحسن والنضارة . ومجمع الوارد والصادر . ومحط رحل الضعيف والقادر . وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه . ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف . تموج موج البحر بسكانها . وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتها الأمم ، وتمكنت ملوكها نواحى العرب والعجم . . . » (٣٢) .

وفى هذه الفقرة البليغة لخص الرحالة ابن بطوطة أحوال العاصمة المصرية فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك ، فهى عاصمة متسعة الأرجاء قد شملت فى جنباتها كافة عواصم مصر الإسلامية منذ فتحها عمرو بن العاص ، فمنذ بناء القاهرة كانت مقر الحكومة ، ومركز الدولة الإدارى والسياسى ، على حين كانت الفسطاط عامرة بالناس الذين جعلوا منها قصبة الديار المصرية ومركز النشاط الاقتصادى والصناعى والعلمى . وعلى الرغم من أن القاهرة قد فتحت أبوابها أمام الناس . فإنها لم تتحول إلى عاصمة حقيقية سوى بعد سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م بعدما انتقل السلطان الكامل الأيوبى إلى القلعة التى صارت مقر الحكم (٣٣) ومنذ ذلك الحين أخذت الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية تكسو وجه القاهرة حتى صارت تموج بالحركة والنشاط على النحو الذى حكى عنه ابن بطوطة . وكثيرون من الرحالة الذين زاروا القاهرة فى عصر سلاطين المماليك شاركوا رحالتنا رأيه

---

(٣٠) الرحلة جـ ١ ، ص ٤٩ . وهو يروى فى ذلك قصة عن الشيخ جمال الدين الساوى مفادها أنه اضطر إلى حلق شعره ولحيته وحاجبيه ليتخلص من إغواء امراة كانت معجبة به .

(٣١) الرحلة جـ ١ ، ص ٥١ .

(٣٢) الرحلة جـ ١ ، ص ٥٣ .

(٣٣) جومار ، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل (ترجمة وتعليق أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨٨ م) ، ص ٢٨ ص ٣٠.

بخصوص القاهرة . فقد كانت العاصمة المصرية آنذاك مدينة كبيرة فاقت مدن العالم من حيث السعة وعدد السكان (٣٤) وكانت شوارع القاهرة ضيقة ، وبيوتها مرتفعة إلى عدة طبقات ، وتربط بين شوارعها فى بعض المناطق مساحات واسعة غير منتظمة الشكل تتحول أجزاء منها إلى برك زمن الفيضان ، ثم تصير حقولا ومتنزهات بعد انحسار مياه الفيضان . وفى هذه الشوارع يتدافع الناس من جنسيات مختلفة ويتزاحمون مع الدواب(٣٥) وكانت شوارع المدينة ضيقة جدا عن قصد للتخفيف من حرارة الجو فى الصيف ، اذ تراوح عرض الشارع بين خمسة أقدام وخمسة عشر قدما ، بل كانت هناك شوارع عرضها أقل من خمسة أقدام . وكثيرا ما كانت شرفات المنازل المتقابلة فى هذه الشوارع تتماس ، وكانت معظم شوارع القاهرة مغطاة لاسيما فى مناطق الأسواق(٣٦) .

ثم قال ابن بطوطة إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء ، وبها ثلاثون ألف مكار(٣٧) . وتؤكد لنا المصادر التاريخية أن عددا كبيراً من السقائين كانوا ينقلون مياه نهر النيل إلى سكان القاهرة فى قرب المياه يحملونها على ظهور الجمال والحمير ، أو على أكتافهم(٣٨) وقد عرفت شوارع القاهرة آنذاك طائفة من السقائين عرفوا فى مصادر ذلك العصر باسم « سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء » الذين كانوا يبيعون المياه فى الشوارع والأسواق . وفضلا عن هذا كله ، كانت بالقاهرة عدة أسبلة توزعت على شوارعها لتسهيل حصول المارة على مياه الشرب . وكانت تلك الأسبلة توفر مياه الشرب والوضوء المجانية لسكان القاهرة وزائريها . كذلك كانت هناك أحواض تملأ بالمياه المخصصة لشرب الدواب(٣٩) . موزعة فى أماكن مختلفة من القاهرة لاسيما فى مواقف المكارية الذين كانوا يؤجرون حميرهم التى كانت تقوم بدور سيارات الأجرة فى عصرنا الحالى وقد ذكر ابن بطوطة أن عددهم بالقاهرة كان حوالى ثلاثين ألفا .

ثم حدثنا ابن بطوطة عن حياة المرح والسرور التى كان المصريون يحيونها ، فقال إن أهل مصر «ذوو طرب وسرور ولهو » (٤٠) وهو هنا يشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن متنزهات سكان القاهرة فى ذلك الزمان كانت كثيرة لاسيما فى ضواحى المدينة والجزر الموجودة فى النيل التى كانت مراحا للقاهريين

---

(٣٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٢ ـ ص ٨٦ حيث أورد ملاحظات الكثيرين من الرحالة عن القاهرة .

(٣٥) جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، (ترجمة مصطفى العبادى ، بيروت ١٩٦٨ م) . ص ١١٧ ، ص١٢٦ .

(٣٦) جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٧٦ . (٣٧) الرحلة جـ ١ ، ص ٥٣ .

(٣٨) رحلة البلوى المغربى ، ص ٥٥ ، ، قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ـ عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٨٣م ط ثانية) ، ص ١٣٠ ـ ص ١٣١ .

(٣٩) ابن الاخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة (تحقيق ونشر ليفى ، كمبردج ١٩٣٧) ص ٣٤٨ ، سعيد عاشور . المجتمع المصرى ، ص ٩٠ ـ ص ٩١ ، قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٣١ .

(٤٠) الرحلة جـ ١ ، ص ٥٣ .

للتفريج عن أنفسهم والتمتع بالحدائق والمتنزهات والبرك . وربما كانت الحرية الفردية للقاهرى آنذاك وراء ملاحظة ابن بطوطة الذى زار القاهرة فى وقت كانت الحياة فيه سهلة ميسورة .

بعد ذلك تحدث الرحالة عن جانب هام من جوانب الحياة الاجتماعية فى مصر زمن سلاطين المماليك ، إذ حدثنا عن القرافة ، ومشهد الحسين ، وتربة الإمام الشافعى وقبور العلماء والصالحين بالقرافة (٤١). لقد كانت القرافة (أى منطقة المقابر الخاصة بالقاهرة) من أهم أماكن النزهة التى يخرج إليها القاهريون فى ذلك الزمان . وقد لفتت انتباه كافة الرحالة الذين زاروا القاهرة على مدار العصور لعدة أسباب :

اولا : أن عددا من قبور الأولياء والصالحين والصحابة والتابعين موجود بالقرافة .

ثانيا : شيوع بعض الأخبار والحكايات عن معجزات وكرامات تنسب إلى عدد من المدفونين فى هذه القرافة .

ثالثا : أن القرافة لم تكن مجرد جبانة يلفها صمت الموتى ، كما هو الحال فى كل الجبانات ، وإنما كانت مراحا للنشاط اليومى لسكان القاهرة . وكان الناس يبيتون فى القرافة بنسائهم وأولادهم . ويطوف البائعون بالمأكولات بين دروبها . وقد أشار ابن الحاج إلى عادة أهل القاهرة بناء الدور فى القرافة ، ويقيمون بجوار الميت فترة قد تطول أو تقصر بحسب عزة الميت لديهم ، كما كانوا يوقدون الشموع والأحطاب لتحضير طعامهم (٤٢) .

وقد كان لسكان القاهرة عدة مشاهد ومزارات دينية يتبركون بها وقد خصصوا لزيارة كل مشهد يوما معينا من أيام الأسبوع (٤٣) وهو الأمر الذى يكشف عن رواج الاعتقاد فى الكرامات والمعجزات فى المجتمع المصرى آنذاك ، وبالغوا أحيانا إلى حد التطرف فى اعتقاداتهم تلك ، وهو الأمر الذى أدى إلى إقامة الموالد السنوية فى شتى أنحاء البلاد المصرية لتكريم أولئك الأولياء وإحياء ذكراهم .

وقد اعتبر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور أن إقامة هذه الموالد كانت مما ابتلى به المصريون فى ذلك العصر نظرا لما يحدث فيها من مظالم وتهتك وفضائح خلقية (٤٤) وهو رأى نوافق عليه تماما ، لأنه يكشف عن معالم الثقافة العامة فى مصر آنذاك ، ونوعية التدين الشكلى العاطفى الممتزج بالخرافات والخزعبلات اللتين ميزتا الحياة الاجتماعية المصرية فى عصر سلاطين المماليك . وفى تصورى أن بداية هذا النمط من التدين الظاهرى تعود إلى أيام صلاح الدين الأيوبى وحرصه على تشجيع الشعوذة وتصوف الدراويش كما أوضحنا فى الصفحات السابقة من هذه الورقة .

---

(٤١) نفسه ، ص ٥٥ ـ ص ٥٦ .

(٤٢) ابن الحاج : المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات ، والتنبيه على بعض البدع والعوائد ، (المطبعة المصرية بالأزهر ، ١٣٤٨ هـ/ ١٩٢٩ م) ، جـ١ ، ص٢٦٩ ـ ص ٢٧٠ .

(٤٣) نفسه ، جـ١ ، ص ٢٦٩ ـ ص ٢٧٠ .

(٤٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٢٣٤ ـ ص ٢٣٥ .

حدثنا ابن بطوطة عن مظهر آخر من مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر وهو يوم المحمل أو يوم دوران المحمل . قال إنه يوم مشهود « . . . وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال، والمحتسب ، وقد ذكرنا جمعهم ، وركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ، وأرباب الدولة، ويقصدون جمعيا باب القلعة ، دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ومعه عسكره والسقاءون على جمالهم . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم ، يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر ، والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب . فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون فى التأهب والاستعداد لذلك »[٤٥] .

كان موسم الحج محط اهتمام الحكام وعامة الناس على السواء . وفى هذا الموسم تسرى الحركة والنشاط فى أوصال المجتمع المصرى ، فتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج . وكانت كسوة الكعبة الشريفة توضع على جمل مزين يطوف القاهرة والفسطاط فيما عرف اصطلاحا بدوران المحمل[٤٦] وكان دوران المحمل مرتين فى السنة إحداهما فى رجب على النحو الذى أشار إليه ابن بطوطة .

بعد ذلك وصف الرحالة ابن بطوطة الطريق من القاهرة إلى أسيوط ، بيد أن كلامه اقتصر على ذكر البلاد المصرية وبعض منتجاتها ، وتحدث عن العلماء الذين لقيهم فى مدن صعيد مصر[٤٧] ولكنه لم يقدم لنا أية إشارات تتعلق بالحياة الاجتماعية فى تلك المدن .

ووصف لنا المدن الواقعة على الطريق من أسيوط إلى البحر الأحمر[٤٨] . وقد ذكر لنا أن مدينة عيذاب (التى كانت من أهم موانىء مصر على البحر الأحمر والتى خربت فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) . وذكر أن ثلثى المدينة لملك البجاة وثلثها للسلطان الناصر محمد بن قلاوون. وقال إن البجاة قوم سود البشرة يلتحفون بملاحف صفراء ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة أصبعا « . . . وهم لايورثون البنات ، طعامهم ألبان الإبل . ومن المهم أن نشير إلى أن ملك البجاة كان يحارب المماليك فى البحر فعاد ابن بطوطة ورفاقه إلى القاهرة ليسافروا منها إلى بلاد الشام(٤٩).

* * *

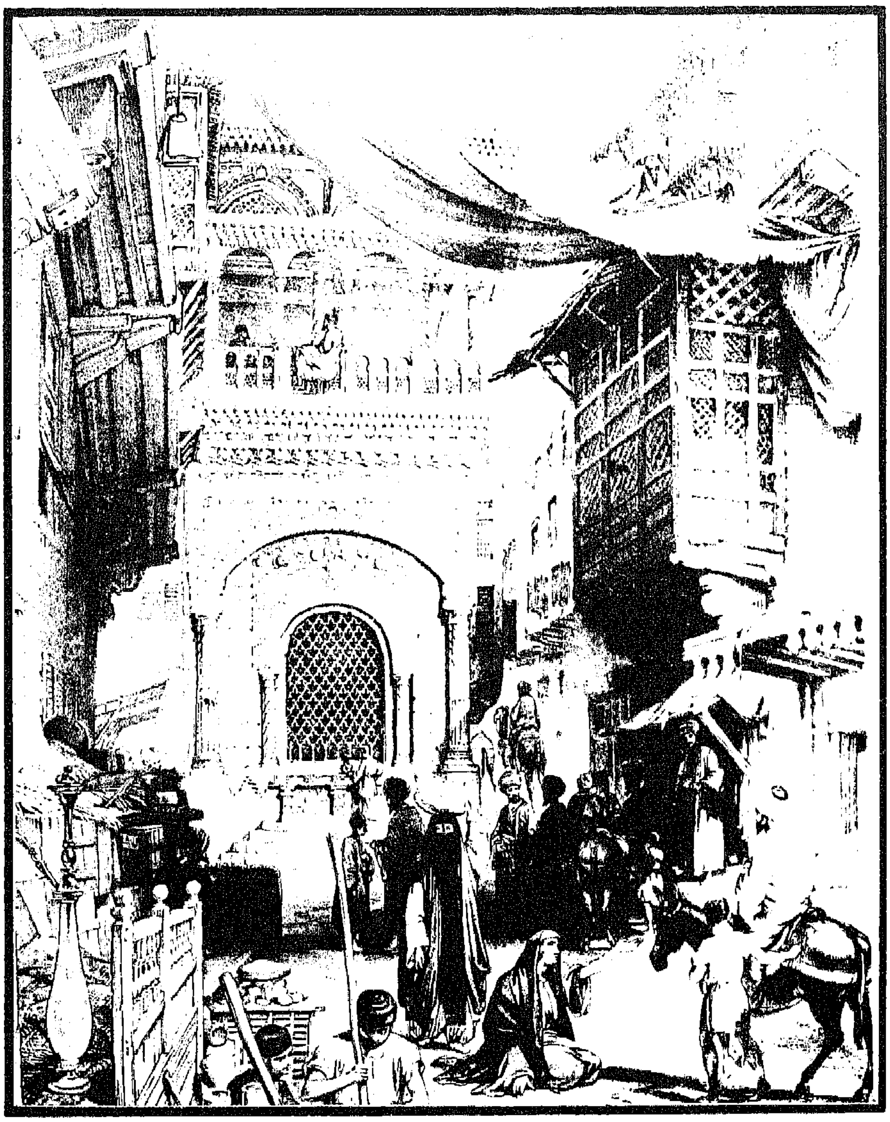
(٤٥) الرحلة ، جـ١ ، ص ٦٢ .

(٤٦) كان السلطان الظاهر بيبرس هو أول من أدار المحمل بمصر سنة ٦٥٧ هجرية . انظر : المقريزى : الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك (نشره الدكتور جمال الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م) ، ص ١١ . السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ، جـ٢ ، ص ٨٨ .

(٤٧) الرحلة ، جـ١ ، ص ٦٣ ـ ص ٦٦ . (٤٨) نفسه ، جـ١ ، ص ٦٧ ـ ص ٦٩ .

(٤٩) نفسه ، جـ١ ، ص ٧٠ .

عرضنا فى هذه الصفحات القليلة لبعض مشاهدات الرحالة ابن بطوطة فى مصر التى زارها إبان عصر الناصر محمد بن قلاوون (منتصف القرن السابع الهجرى / القرن الثالث عشر الميلادى) . وقد حاولنا من خلال ملاحظاته أن نلقى بعض الضوء على جوانب معينة من الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك . وقد تنوعت ملاحظات ابن بطوطة ما بين رصد الجوانب الدينية والمعتقدات والعادات والتقاليد المصرية والملاحظات الخاصة بالنشاط اليومى فى القاهرة ، وبعض الأمور ذات الدلالتين الاقتصادية والسياسية . ولكن هذه الملاحظات جمعيا تشى لنا بصورة بلاد مزدهرة اقتصاديا . قوية عسكريا وسياسيا ، تدفق حياتها الاجتماعية بالحيوية والنشاط . وهذه الصور تتفق بشكل عام مع ما نعرفه من المصادر التاريخية الأخرى وتوافق أيضا ما أجمع عليه المؤرخون من أن الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك كان عصر قوة ومهابة فى الخارج ، وازدهار ورخاء فى الداخل



الأسواق والحياة اليومية

أسباب النمو السكانى فى بداية عصر المماليك ـ المدن المصرية وأسواقها ـ أسواق العاصمة ـ أسواق الأقاليم ـ الأسواق المؤقتة ـ التقسيم النوعى للأسواق ـ كيفية تنظيم السوق ـ الباعة الجائلون ـ علاقة الدولة بالأسواق ـ الأسواق ومظاهر الحياة اليومية ـ أسباب تدهور حركة الأسواق منذ القرن الخامس عشر : تدخل الدولة ـ النظام السياسى ـ تدهور النقد ـ حالة الأمن ـ الأوبئة والمجاعات ـ التدهور السكانى.

شهدت مصر مع بداية عصر سلاطين المماليك نموًا سكانيًا ، وكان ذلك النمو السكانى راجعًا إلى بعيد إلى أن مصر عاشت فترة سلام امتدت أكثر من مائة سنة . وفى عصر المماليك البحرية . ى يمثل خط الصعود فى تاريخ المماليك ، كان النظام السياسى راسخا ، كما كانت القوة العسكرية ماليك بمثابة الدرع الواقى لهذا النظام الذى شيده فى مصر وسوريا أولئك العبيد على أنقاض دولة تهم الأيوبيين .

ومنذ بداية ذلك العصر الزاخر بالأحداث استطاعت مصر أن تصد الهجمة التترية الشرسة . قبل نستطيع هذه الجحافل الظالمة اختراق الحدود المصرية . وهو مايعنى أن جماهير المصريين نجت من ـ المذابح الجماعية المرعبة التى اقترنت بالغزو ، ومن ثم استطاعت مصر أن تحتفظ بمعدل ثابت مو السكانى . وفى الداخل انعكست حالة الرواج والرخاء على خط النمو السكانى الذى بدأ ىوده بشكل مطرد حتى القرن التاسع (الخامس عشر الميلادى) .

ومن ناحية أخرى ، فإن حقيقة أن مصر فى ذلك الزمان قد صارت هى المعقل الأخير للحضارة سلامية ـ على حين كان العالم الإسلامى فى الشرق والغرب يتعرض لضربات موجعة من التتر سيحيى غرب أوربا ـ تفسر لنا سبب هذه الهجرات الكثيرة التى جاءت إلى مصر آنذاك . فقد دفعت وات التترية بالكثيرين من سكان العراق والشام إلى مصر ، كما أن حرب الاسترداد الأسبانية دفعت د آخر من مسلمى الأندلس إلى مصر . كذلك تشير مصادر تلك الفترة إلى بعض الهجرات المغولية كردية والتركمانية التى وفدت إلى مصر فى عصر المماليك البحرية . فقد جاءت إلى مصر طائفة من

المغول أبناء القبيلة الذهبية التى كانت ترتبط مع مصر بعلاقات الود والصداقة فى عصر السلطان بيبرس . وقد استقدم السلطان العادل كتبغا عددًا كبيراً منهم [1] . وبالإضافة إلى ذلك جاءت إلى مصر فى بداية عصر المماليك بقايا جيش الخلافة العباسية ، وبعض المحاربين الأكراد الذين تجاوز عددهم بضعة آلاف .

هذه الهجرات كان لها تأثيرها ، بطبيعة الحال ، على معدل النمو السكانى . ذلك أن وفود مثل أولئك المهاجرين إلى مصر كان يمثل زيادة طارئة فى أعداد السكان .

على أية حال ، فإن بعض الباحثين المحدثين يقدر عدد سكان مصر فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى بحوالى ثلاثة ملايين نسمة ، على حين يقدر باحث آخر عدد سكان القاهرة فى الفترة نفسها بحوالى ستمائة ألف نسمة [2] . وتبدو لنا هذه الأرقام معقولة تمامًا فى ضوء ما نعرفه من مصادر تلك الفترة عن المدن المصرية عمومًا ، ومدينة القاهرة بصفة خاصة فضلا عن عدد قرى مصر آنذاك وكان يقترب من ألفين وخمسمائة قرية [3] .

كانت المدن المصرية فى ذلك الحين مدنًا كبيرة واسعة ، كثيفة السكان غاصة بكافة المنشآت الدينية والاجتماعية ، مثل القياسر والخانات والمساجد والأسبلة والأضرحة وغيرها . والواقع أن كتابات الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر فى تلك الفترة تشير إلى هذه الحقيقة بشكل أو بآخر . فابن بطوطة . على سبيل المثال ، يذكر فى رحلته الشهيرة من أوصاف المدن المصرية مايؤكد انبهاره بها [4] . كذلك فإن بعض الرحالة الغربيين قد بهرتهم المدن المصرية الكبيرة الحجم . لاسيما وأن مدن أوربا كانت ماتزال مدنا صغيرة المساحة قليلة السكان حتى ذلك الحين . فهاهو بيلوتى الكريتى Piloté de Crête ، مثلا ، يصف القاهرة بأنها أكبر مدينة فى الدنيا [5] كما أن الرحالة بيروتافور Ta-fur تحدث عن القاهرة بنغمة إعجاب مشابهة [6] كما تحدث عن غيرها من المدن المصرية مثل دمياط [7] ورشيد والإسكندرية [8] وعلى الرغم من أن زيارة كل من بيلوتى الكريتى ، وتافور لمصر قد حدثت فى القرن الخامس عشر فإن كلامهما يكشف عن كبر حجم العاصمة وغيرها من المدن المصرية .

---

(١) ابن أيبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ٨ ، ص ٣٦١ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، جـ٢ . ص ١٩٤ ـ ص ١٩٩ حيث يورد تفصيلات الهجرات المغولية وأعدادها .

(٢) Ashtor, A Social and economic hist., pp. 286 - 291 .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ص ٧٣ .

(٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، (دار التراث ببيروت ١٩٦٨) ، ص ١٦ ، ص ٢٤ ـ . وانظر أيضًا ما ذكره عن مدينة القاهرة ص ٢١ ـ ص ٢٥ .

(٥) Dopp (P.H.) L'Egypte au commencement du quanziémesiécle, p.3.

(٦) تافور ، الرحلة ، ص ٦٢ ـ ص ٦٤ ، ص ٩٧ ـ ص ٩٨ .

(٧) المصدر نفسه ص ٥٩ ـ ٦٠ . (٨) المصدر نفسه ، ص ٩٩ ـ ص ١٠٠ .

هذا النمو السكانى انعكست نتائجه فى أسواق البلاد المصرية التى كان عددها كبيرا من ناحية ، كما كانت تموج بالحركة والنشاط وتكتظ بأصناف البضائع من ناحيه أخرى ونستطيع من خلال مصادر ذلك العصر أن نلاحظ أنه كانت لكل مدينة من المدن المصرية أسواقها الخاصة بها . وكان لبعض تلك المدن ، عدة أسواق ، قد تزيد أو تقل حسب مساحة المدينة. فقد كان لأخميم وإسنا وغيرهما من مدن الوجه القبلى أسواقها المزدهرة . وفى الوجه البحرى كانت لكل مدينة أسواقها الخاصة بها (٩) . وقد ذكر ابن دقماق أن مدينة المحلة كانت « قصبة إقليم الغربية من الديار المصرية » ، وهو ما انعكس على أسواقها الكثيرة الرائجة ، كما أن مدينة قليوب كانت تمد أسواق القاهرة بمعظم حاجاتها من الفواكه والألبان ومنتجاتها(١٠) .

كذلك فإن ماذكره بيرو تافور عن المدن المصرية التى زارها (١١) ، وماذكره ابن بطوطة من أن المسافر على صفحة نهر النيل لايحتاج إلى أن يحمل معه زادًا « . . . **لأنه مهما أراد النزول للشاطىء سيجد سوقًا يشترى منه مايريد . . . والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مدينة مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد . . .** »(١٢) ـ هذا الكلام يؤكد حقيقة أن مدن مصر فى ذلك الحين كانت لها أسواقها الدائمة والمزدهرة فى بداية عصر سلاطين المماليك . وهى الحقيقة التى يؤكدها أيضًا ما ذكره المؤرخ تقى الدين المقريزى فى خططه وهو يتحدث عن بلاد الوجه البحرى(١٣) .

والواقع أن أسواق الأقاليم والقاهرة قد تشابهت من حيث نظامها (١٤) ، وإن كان من الواضح أن بعض الأسواق التى وجدت بالعاصمة لم يكن لها نظائر بالأقاليم مثل سوق السلاح ، وسوق المهامزيين وغيرهما من الأسواق التى تخصصت فى بيع لوازم الجيش المملوكى ، وأبناء الطبقة الحاكمة .

ويبدو من مصادر تلك الفترة أن الريف المصرى قد عرف الأسواق الدورية التى كانت تقام فى يوم معين من أيام الأسبوع (١٥) ، وهذا النوع من الأسواق الدورية مايزال معروفًا فى الريف المصرى . وبعض مدن الأقاليم حتى يومنا هذا .

وبخلاف أسواق العاصمة وأسواق الأقاليم ، عرفت مصر أيام المماليك نوعا من الأسواق المؤقتة التى كانت تقام فى مواقع التجمعات حيث يجتمع عدد كبير حول مناسبة بعينها ، سواء فى مولد أو

---

(٩) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٥ ؛ صفحات ٢٥ـ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٧ـ٤٨ ، ٧١ ، ٨١ـ٨٢ . ٩٢ ، ٩٩ـ١٠١ .

(١٠) المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص ٩٩ ـ ص ١٠١ .

(١١) تافور الرحلة ، ص ٦٣ ـ ص ٦٤ .

(١٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣١ .

(١٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٦٢ .

(١٤) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى : ص ٨٦ ـ ص ٨٨.

(١٥) ذكر المقريزى (الخطط ، جـ١ ، ص ٢٠٥) أنه كان للجيزة فى كل يوم أحد سوق عظيم « . . . يجىء إليه من النواحى أصناف كثيرة جدًا ، ويجتمع فيه خلق عظيم . . . » .

احتفال دينى ، أو لبناء جسر على النيل أو شق ترعة ، أو لبناء جامع أو مدرسة (١٦) كما كانت الأسواق تقام فى ميادين الحروب لتقدم للمحاربين مايحتاجونه ، نظرًا لأن جيوش تلك العصور لم تعرف أسلحة الخدمات التى تعرفها الجيوش الحديثة .

والواقع أن الأسواق المصرية عرفت نوعًا من التخصص فى نوع البضائع التى يبيعها كل منها . وهو مايبدو متسقًا مع طبيعة الحياة الاجتماعية آنذاك ، إذ كان أبناء كل طائفة حرفية يسكنون حارة ، أو حيًا ، يعرف باسمهم . ويضيق بنا المقام عن محاولة إحصاء كل أسواق القاهرة ، ومن ثم فإننا سنكتفى بتقسيمها إلى مجموعات نوعية ، بمعنى أن تكون أسواق المواد الغذائية فى مجموعة ، على حين تكون أسواق الملابس ومستلزماتها فى مجموعة ثانية ، ونضع أسواق تجهيزات السفر فى مجموعة ثالثة . . . وهكذا .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن أسواق المواد الغذائية كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد سواء فى القاهرة أو الأقاليم ، وهو أمر يتمشى بالضرورة مع توزيع التجمعات السكانية . وفى القاهرة كان هناك عدد كبير من أسواق المواد الغذائية . وقد لفتت انتباه الرحالة « بيروتافور » فقال « **إن أحسن وأبهى وأروع شىء يراه المرء فى القاهرة هو سوقها الذى تعرض فيه أكداس هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند . . .** » (١٧) .

وكان سوق باب الفتوح واحدًا من أشهر تلك الأسواق ، ويبدو أنه كان سوقًا جامعًا لأن الناس كانوا يقصدونه « . . **من أقطار الأرض لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر وشراء أصناف الخضراوات**» . كذلك اشتهر سوق حارة برجوان الذى كان من أكبر أسواق القاهرة بتوفير اللحم بأنواعه . كما كان به عدد كبير من الزياتين والجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوائين والعطارين والخضريين . بل كان بهذا السوق حانوت لايباع فيه سوى حوائج المائدة من البقل والكرات والشمار والنعناع (١٨) . والجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الصيرفى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥م) قد عدد لنا أصناف اللحوم والجبن التى كانت تباع فى مصر آنذاك (١٩) . مما يكشف عن حال من الرواج والرفاهية النسبية التى يمكن أن نستنتج أن المصريين عاشوا فى ظلها فى بداية ذلك العصر كما يتضح من تعدد هذه الأصناف وكثرتها ، ذلك أن الفترة التى يتحدث عنها ابن الصيرفى كانت فترة تدهور واضمحلال اقتصادى ، ومع ذلك كان هناك هذا التعدد فى منتجات اللحوم والأجبان، وهو مايدفعنا إلى التساؤل عما كانت عليه الحال أثناء فترة الرواج والازدهار السابقة .

---

(١٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص ٢٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٤ : ص ٢٦ ؛ ابن إياس . بدائع الزهور ، جـ٤ ص ٢١٤ ، ص ٢٧٥ .

(١٧) تافور ، الرحلة ، ص ٩٧ .

(١٨) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٣ ـ ١٠٦ .

(١٩) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ١٨٧ ـ ص ١٨٨ ـ ص ٤٧٧ .

أما الطيور والدواجن فكانت تباع فى « سوق الدجاجين » الذى كانت تباع فيه كميات كبيرة من الدجاج والأوز ، كما كانت تباع به أيضًا طيور الزينة (٢٠) . ويبدو أنه كان فى القاهرة سوق مركزى للفاكهة ، هو « دار التفاح » أو « دار الفاكهة » التى كانت الفواكه التى تنتجها البساتين المصرية . والفواكه المستوردة من بلاد الشام ترد إليها . ومن هذا السوق المركزى يتم توزيع الفاكهة على أسواق القاهرة وضواحيها . وقد بنى هذا السوق بعد سنة ٧٤٠ هـ ثم بنيت حوله عدة حوانيت لبيع الفاكهة التى كان الباعة يرتبونها فى شكل بديع وحولها الزهور . وكان هناك سقف من القماش يصل ما بين تلك الحوانيت لحماية الفواكه من حرارة الشمس (٢١) .

وتحفل مصادر عصر سلاطين المماليك بأسماء وأخبار عدد كبير من الأسواق التى تخصصت فى بيع المواد الغذائية ، والتى انتشرت بجوار الأحياء السكانية . ولم تكن الحركة تنقطع ليلا أو نهارًا فى بعض الأسواق المقامة فى الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية (٢٢) .

أما أسواق الملابس ولوازمها . فقد تنوعت مابين الأسواق المتخصصة فى بيع الخلع والتشاريف التى كان السلطان يمنحها للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم ، مثل « سوق الشرابشيين » (٢٣) الذى كان به عدد من التجار يشترون هذه الخلع والتشاريف ويبيعونها لديوان الخاص السلطانى وللأمراء ، ومثل «سوق الحوائصيين » الذى كانت تباع به فى بداية عصر المماليك المناطق التى يتمنطق بها الجنود حول أوساطهم ، ومابين الأسواق التى كانت تباع بها الثياب المستعملة مثل « سوق الخلعيين » ، والأسواق التى تباع بها لوازم الحياكة مثل « سوق الأبارين » ، الذى كانت تباع به إبر الخياطة وغيرها (٢٤) كذلك كان هناك سوق متخصص فى بيع الجوخ المستورد من أوربا ، والذى راج استخدامه نتيجة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السلبية فى عصر الجراكسة على نحو ما سنرى فى الصفحات القادمة .

كذلك كانت هناك أسواق خاصة بلوازم الجنود من الأسلحة ومعدات الركوب وما إلى ذلك ، فقد كان سوق السلاح ـ الذى أنشىء فى العصر الأيوبى بين القصرين ـ محلا لبيع أدوات القتال من الرماح والقسى والنشاب والزرديات والسيوف والخناجر وغيرها . ويتصل بهذا السوق ويقترب منه « سوق المهامزيين » الذى كانت حوانيته تبيع المهاميز التى تسخدم فى ركوب الخيل . كذلك كان هناك سوق تباع به أدوات اللجم وغيرها من المعدات الجلدية التى تستخدم لركوب الخيل وغيرها من الدواب

---

(٢٠) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٩٣ ـ ص ١٠٦ .

(٢١) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ، ص ٩٣ ، السلوك جـ ١ ، ص ١٨٤ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٠ .

(٢٢) انظر ماذكره المقريزى عن « سوق المتسيشين » ، وسوق « خط بين القصرين » على سبيل المثال (الخطط ، جـ ١ . ص ٣٣٤ ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ـ ٢٨) .

(٢٣) الشرابشيين نسبة إلى الشربوش ، وهو لباس رأس مثلث بدون عمامة : وقد بطل استخدامه فى دولة الجراكسة ـ انظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٧ ـ ص ٩٨ ؛ ماير ، الملابس المملوكية ، ص ١٠١ يتبع .

(٢٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٩٣ ـ ص ١٠٦ ، ص ٣٤ .

وهو « سوق اللجميين » الذى كان مجاورًا لسوق المهامزيين ، وكان به عدد من صناع الطلاء . والكفت (التطعيم بالمعدن) ، وصناع السروج ولوازمها (٢٥) . وفى عصر المماليك كان بالقاهرة عدد من أسواق لوازم السفر ، مثل « سوق المرحلين » الذى كان يزدهر أيام موسم الحج ، وكانت تباع به أدوات تجهيز الجمال التى كانت وسيلة المواصلات البرية الوحيدة للمسافات الطويلة ، وكان هذا السوق من الضخامة بحيث أنه كان يمكن تجهيز أكثر من مائة جمل فى يوم واحد منه . ويماثله فى هذا « سوق المحايريين » ، الذى كانت تباع به المحاير التى يسافر فيها الناس إلى الحجاز وبيت المقدس . وفى مرحلة متأخرة من عصر المماليك أنشىء سوقان آخران لبيع المحاير ، أحدهما بسوق جامع أحمد بن طولون ، والثانى « بسوق الخيميين » . ويبدو أن تجار ذلك السوق لم يكونوا يهتمون بزبائنهم على اعتبار أن المرء لايطرق سوقهم سوى مرة واحدة فى العمر (٢٦) .

أما الأسواق التى كانت تباع بها حاجات الناس اليومية ، فكانت كثيرة ومتنوعة . فقد كان هناك «سوق الصنادقيين » الذى كانت تباع فيه الصناديق والخزائن والأسرة وغيرها من المصنوعات الخشبية التى كانت أهم قطع الأثاث الذى يستخدمه المصريون فى بيوتهم فى ذلك الحين . كذلك كان هناك «سوق العنبريين » الذى أنشأه المنصور قلاوون مكان أحد السجون وفاء لنذر كان قد قطعه على نفسه. وفى البداية كان هذا السوق يموج بالحركة والازدهار والرواج لأن المصريين على اختلاف مشاربهم كانوا مولعين بالعنبر ، ولكن الغش عرف طريقه إليه فى أخريات القرن الثامن الهجرى (١٤م) حتى بات اسمًا لايعنى شيئًا .

كذلك كان « سوق الشماعين» من الأسواق التى يتعامل معها المصريون فى حياتهم اليومية ، على الرغم من أن هذا السوق كان يزدهر فى مواسم معينة . وكانت حوانيت هذا السوق تظل مفتوحة حتى منتصف الليل مما كان يغرى الناس باتخاذها أماكن للنزهة .

ومن البديهى أن الأسواق التى ذكرناها لاتمثل كل الأسواق التى عرفتها البلاد فى ذلك الحين ، وإنما هى أمثلة على مدى التنوع فى أنماط هذه الأسواق ، وربما يكون من المفيد أن نقرر أننا لم نقصد إحصاء هذه الأسواق ، وإنما التعرف على طبيعة أسواق مصر فى ذلك الزمان .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن كثيرًا من أسواق القاهرة آنذاك ـ وأسواق المدن الأخرى بطبيعة الحال ـ قد تعرضت لتغيرات نوعية ومكانية بحكم التطورات التى طرأت على المجتمع المصرى آنذاك ، مما كان يؤدى إلى اندثار بعض الأسواق القديمة وظهور أسواق جديدة من ناحية ، أو إلى تغيير أسماء الأسواق نتيجة تغير نشاطها أو بسبب سكنى أبناء طائفة حرفية جديدة من ناحية أخرى . مثال ذلك أن «سوق الشوايين » كان يسمى فى البداية « سوق الشرايحيين » ، ولكن بعض بياعى الشواء سكنوا السوق

---

(٢٥) انظر المقريزى ، الخطط ؛ جـ ٢ ، ص ٩٦ ـ ص ٩٧ حيث أورد عدة معلومات مفيدة عن تطور صناعة السروج فى عصر سلاطين المماليك .
(٢٦) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٦ ـ ١٠٣ .

فى أوائل القرن الثامن الهجرى فأصبح يعرف بهم . ثم تغير اسم السوق مرة أخرى إلى « سوق الغرابليين » (المغربلين) فى القرن التاسع .

كما ينبغى أن نلاحظ أن أسماء الأسواق لم تكن دائمًا مشتقة من نوع النشاط الذى يقوم به أصحاب السوق ، بل كانت هناك أسواق اتخذت اسماءها من الأماكن التى أقيمت بها مثل سوق جامع ابن طولون ، وسوق الخانكاه ، وسوق حارة برجوان ، وسوق باب الفتوح وغيرها . كما كانت لبعض الأسواق أسماء بعض الجماعات التى سكنت مصر فى ذلك الحين ، مثل « سويقة العراقيين » و«سويقة المغاربة » و « سويقة اليهود » التى ذكر ابن دقماق أنها صارت خربة فى زمانه (٢٧). وقد حملت بعض الأسواق أسماء أشخاص مثل « سويقة معتوق » و « سويقة ابن العجمية » و « سوق وردان » التى تنسب إلى وردان مولى « عمرو بن العاص » والتى ذكرها « ابن دقماق » ضمن أسواق الفسطاط (٢٨) كذلك كانت لبعض الأسواق فى ذلك العصر أسماء طريفة مثل « سوق البراغيث » و «سوق لحاف (٢٩)» « وسوق العياطين (٣٠) .

ويبدو من كلام ابن دقماق والمقريزى (٣١) عن أسواق ذلك العصر أن هذه الأسواق كانت تقام فى أماكن يراعى أن تكون للسوق منافذ متعددة حتى يسهل على رواده أن يدخلوا إلى السوق ويخرجوا منه . كما يتضح أيضًا أنه كانت لبعض الأسواق مخازن خاصة بها . كذلك عرفت الأسواق المصرية فى عصر المماليك نظام الصيارفة ، الذين كانت مهمتهم استبدال العملات وتغييرها لرواد الأسواق ، فقد ذكر المقريزى أن الصيارفة كانوا يجلسون فى حوانيتهم طيلة النهار على باب سوق السلاح (٣٢) .

وإلى جانب الأسواق عرفت الحياة المصرية آنذاك الباعة الجائلين الذين كان بعضهم يفترشون أرض الأسواق ببضائعهم ، على حين كان البعض الآخر يتجولون بما يحملونه من بضاعة فى شوارع وأزقة المدن المصرية .

---

(٢٧) تنسب « سويقة العراقيين » إلى العراقيين الذين سيرهم زياد بن أبيه من العراق (ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ . ص ٦٤) . ولم يشر ابن دقماق إلى تاريخ خراب سويقة اليهود ، كما أنه لم يخبرنا عما إذا كان قد تجدد غيرها أم لا (نفسه ، ص ٢٢) .

(٢٨) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ١٤ ، ص ٣٢ ـ ص ٣٤ .

(٢٩) المصدر نفسه والجزء والصفحة نفسها .

(٣٠) ذكر المقريزى فى خططه (جـ ٢ ، ص ١٠٦) أن السبب فى تسمية السوق بهذا الاسم يرجع إلى أن ناظر الخاص السلطانى فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون طرح على تجار هذا السوق كمية من عسل القصب (أى أجبرهم على شرائها بالسعر الذى يحدده) ، وكانت الأسعار التى طلبها باهظة فوقف التجار فى طريق موكب السلطان « وعيطوا» حتى أعفاهم ، وسمى السوق منذ ذلك الحين باسم سوق العياطين . وفى ذلك الوقت كانت كلمة « عياط » عند المصريين تعنى الصياح .

(٣١) ابن دقماق ، المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٣٢ يتبع ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

(٣٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٩٦ .

أما الباعة الذين كانوا يفترشون أرض الأسواق ببضاعتهم فقد عرفتهم مصادر تلك الفترة باسم «أرباب المقاعد» . وكان أولئك يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات والفواكه والخضراوات أو الخواتم والأساور وغيرها من لوازم زينة النساء ، ففى سوق السلاح كان أولئك الباعة من أرباب المقاعد يفترشون السوق أمام حوانيت بيع السلاح وحوانيت الصيارفة . وإذا ما أقبل الليل أشعلوا المشاعل التى تضفى على المكان جوًا بديعًا كان يغرى الناس باتخاذ هذا السوق مكاناً للنزهة فى أمسيات الصيف . وفى القصبة ـ التى كانت الشارع التجارى الرئيسى فى القاهرة آنذاك ـ كان أرباب المقاعد يجلسون على طول الشارع « . . . **بأطباق الخبز وأصناف المعايش** . . . » (٣٣).

وقد وجد بالقاهرة فى ذلك العصر سوق بأكمله خصص لهذا النوع من الباعة الجائلين وهو « سوق القفيصات » الذى كان الباعة يجلسون فيه ، تجاه القبة المنصورية ، على تخوت عليها أقفاص صغيرة (قفيصات) من الحديد ، وقد شبك عليها الخواتم والفصوص ، وأساور النساء وخلاخيلهن وغير ذلك ، وكان أولئك الباعة يستأجرون الأرض التى يجلسون عليها من المشرف على المارستان (المستشفى) المنصورى الذى كان السوق من أوقافه . وفى فترة لاحقة بنى المشرف على المارستان خيمة كبيرة لكى يستظل بها أصحاب القفيصات ، ثم نقل هذا السوق إلى مكان جديد بالقرب من الصاغة سنة ٨٣٣ هـ (٣٤) .

ويبدو من كلام المقريزى أن المنافسة بين أولئك الباعة من « أرباب المقاعد » من جهة وأصحاب الحوانيت المقامة فى الأسواق من جهة ثانية ، كانت تشتعل أحيانًا لدرجة تتطلب تدخل الدولة من آن لآخر . إذ يذكر ما نصه « . . . **كل قليل يتعرض لهم الحكام لمنعهم وإقامتهم من الأسواق لما يحصل منهم من تضييق الشوارع وقلة بيع أرباب الحوانيت** . . . »(٣٥) .

أما الصنف الثانى من الباعة الجائلين فكانوا يطوفون شوارع المدن وأزقتها ينادون على بضائعهم كما هو الحال اليوم . ويطوفون فى الأماكن البعيدة عن الأسواق فتخرج إليهم النسوة من بيوتهن للشراء ، كما كان بائعو الأقمشة والدلالات يدخلون البيوت لعرض بضائعهم على ربات هذه البيوت(٣٦) .

وقد ذكر تافور أنه شاهد فى شوارع القاهرة الباعة وهم ينادون على كافة أصناف البضائع من مأكولات أو فاكهة(٣٧) .

كذلك كان أهل المناطق الريفية المجاورة للمدن يفدون إلى أسواقها ببضائعهم من منتجات الريف التى يحملونها على ظهور دوابهم ويعودون إلى قراهم بعد بيعها . وفى فترات الاضطراب كان سكان

---

(٣٣) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ـ ص ٩٥ .
(٣٤) المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٩٣ يتبع .
(٣٤) المصدر نفسه . جـ٢ ص ٩٣ يتبع .
(٣٥) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص٩٣ ـ ص ٩٥ .
(٣٦) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ص ١٠٢ ـ ص ١٠٣ .
(٣٧) تافور ، الرحلة ، ص ٩٧ ـ ص ٩٨ .

المناطق الريفية المجاورة للقاهرة يحجمون عن الحضور بمنتجات حقولهم إلى أسواقها خوفا من أن يستولى عليها فرسان المماليك أو الأعراب أو قطاع الطرق[٣٨] .

وكان من الطبيعى أن تخضع الأسواق لرقابة الدولة التى اتخذت عدة أشكال ، منها أولئك الموظفون المسئولون عن مراقبة الأسواق ، ومنها الضرائب التى كانت تفرض على أرباب الأسواق ، كما تدخلت الدولة من آن لآخر لتنظيم الأسواق وتخطيطها .

فقد كان لكل طائفة من أرباب الأسواق عريف ، وكان أولئك العرفاء هم الواسطة بين الدولة من ناحية « وأرباب البضائع » من ناحية أخرى . ويبدو أن عرفاء الأسواق كانوا يخضعون لإشراف المحتسب الذى كان يثق فيما ينقلونه إليه[٣٩] ، كذلك كانت الدولة تتقاضى ضريبة معينة من عرفاء الأسواق ، إذ يذكر ابن تغرى بردى (٤٠) أن السلطان الناصر محمد بن قلاون ألغى فى سنة ٧٢٠ هجرية ضريبة كانت تؤخذ من عرفاء الأسواق . وفى وسعنا أن نستنتج من صمت مصادر ذلك العصر عن أصحاب هذه الوظيفة ، أن عرفاء الأسواق فقدوا أهميتهم بمرور الوقت .

وذكر القلشقندى وظيفة أخرى هى ، « نظر دار الضيافة والأسواق » ، ويتضح من كلامه أن صاحب هذه الوظيفة لم تكن له سلطة الإشراف على جميع الأسواق ، وإنما كان مسئولا عن الأسواق التى تتبع الديوان السلطانى ، أى أن الضرائب المجباة منها من حق الديوان السلطانى ، كما كان هذا الموظف يشرف على وجوه إنفاق إيرادات هذه الأسواق[٤١] . أما الأسواق التى لم تكن تابعة للدولة فكانت تدخل ضمن إقطاعات الأمراء ، أو ضمن أوقاف المدارس والجوامع والمارستان ، وعلى أية حال فقد أورد لنا المقريزى أسماء بعض من تولوا وظيفة نظر الضيافة والأسواق[٤٢] .

أما الموظف الذى كثيرا ما ارتبط اسمه بالأسواق فهو المحتسب الذى كان له الإشراف الفعلى على الأسواق ، وكانت وظيفة الحسبة من الوظائف الجليلة فى ذلك العصر فقد كانت تأتى فى المرتبة الخامسة بين الوظائف الدينية . ولم يكن يتولاها فى أوائل عصر المماليك إلا وجهاء الناس وأعيانهم من المتعممين « . . . لأنها خدمة دينية . . . »[٤٣] .

---

(٣٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٦ ص ١٢٦ ، جـ ٥ ، ص ٦٧ ؛ قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٦١ ـ ٦٣ .

(٣٩) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر الدكتور جمال الدين الشيال) ، ص ٢٨ .

(٤٠) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٤٤ ـ ص ٤٦ .

(٤١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٣ .

(٤٢) المقريزى ، السلوك جـ ٢ ص ٢٤٤ ص ٣٧١ ، ص ٤١٢ .

(٤٣) عن شروط المحتسب انظر ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٧ وعن تطورها منذ العصر الفاطمى حتى عصر سلاطين المماليك انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ص ٤٥١ ـ ص ٤٥٢ ؛ السبكى معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٩٢ ، وعن مهام المحتسب انظر القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ حيث يورد وثيقة من العصر الأيوبى تحدد مسئوليات المحتسب التى لانعتقد أنها تغيرت كثيرا فى عصر المماليك .

وكانت هناك ثلاثة مناصب للحسبة فى مصر آنذاك هى : حسبة القاهرة ، وحسبة الفسطاط وحسبة الإسكندرية . وكان محتسب القاهرة هو أعلى الثلاثة قدرًا ، إذ كان يحضر المواكب السلطانية ويجلس مع السلطان فى دار العدل ، كما كان نفوذه يشمل القاهرة والوجه البحرى . أما محتسب الفسطاط ، فكان يشرف على الوجه القبلى ، بينما اقتصر نفوذ محتسب الإسكندرية على مدينته . وفى بعض الأحيان ، ولاسيما فى أواخر عصر المماليك ، كان من الممكن أن يجمع شخص واحد بين حسبة القاهرة وحسبة الفسطاط (٤٤) .

وفى الشطر الأخير من ذلك العصر صار من الممكن أن يتولى الحسبة أحد المماليك (٤٥) . كذلك صار من المألوف أن يجمع شخص واحد بين الحسبة وغيرها من الوظائف ، كما صارت وظيفة الحسبة تشترى بالرشوة وبعد أن كان يتولاها الفقهاء وأولاد الناس صار المماليك يتنافسون عليها ويسعون إلى توليها بالمال « . . **وهذه الأموال العظيمة التى سعى بها هؤلاء ما يستخلصونها إلا من أضلاع المسلمين والأمر لله**»(٤٦) .

ويهمنا فى هذا المقام أن نوضح أن المحتسب كان مسئولا عن الأسواق من النواحى الصحية والسعرية ، كما كان مسئولا عن حالات غش البضائع والسرقة فى الموازين والمكاييل . وكان له مجموعة من الأعوان يطوفون الأسواق فيما يشبه الحملات التفتيشية التى نسمع عنها اليوم ، للكشف على نظافة القدور والأوانى التى تباع فيها الأطعمة ، ومعاقبة من يغش البضائع ، ومصادرة المأكولات الفاسدة وإعدامها ، على نحو ما حدث سنة ٧٤٢ هجرية حين ضبط المحتسب أحد البواردية (تجار الطيور المحفوظة بالتمليح والتى كانت من المأكولات الشائعة بمصر حينئذ) ، وكان يخفى كميات كبيرة من الطيور الفاسدة فعاقبه المحتسب وشهره كما أعدمت الكمية المضبوطة(٤٧) .

وتبدو أهمية هذه الوظيفة فى استقرار الأسواق واضحة من خلال الحقيقة القائلة بأن السلطان «المؤيد شيخ » تولى الحسبة بنفسه سنة ٨١٨ هـ لمواجهة ارتفاع الأسعار (٤٨) : بيد أن هذه الوظيفة كانت لها هيبتها ومكانتها فى بداية عصر المماليك : ثم فقدت رونقها وسطوتها فى خضم التدهور العام الذى كانت البلاد تعانى منه فى عصر الجراكسة . كما سنرى فيما بعد .

---

(٤٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٢٠٧ ص ٣٤٩ ، السلوك جـ ٤ ، ص ٥٦٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ١٦ ، ص ٢٤٩ .

(٤٥) يذكر ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة : جـ ١٦ ، ص ١٥٣) أن المدعو « تنم من نخشباى ، المعروف برصاص» تولى الحسبة سنة ٨٦٥ هـ « فكان أول تركى ولى الحسبة بالبذل . . ولم نسمع ذلك قبل تاريخه لاقديما ولاحديثا . . » وهو مايكشف عن أن الرشوة قد أصبحت هى السبيل لهذه الوظيفة الهامة .

(٤٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ ، ص ٢٣٣ ، جـ ٥ ، ص ٢٧ ، انظر كذلك السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢٦١ ؛ ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٤٢ ـ ص ٤٣ .

(٤٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ : ص ٩٦ ، السلوك ، جـ ٢ ص ٦١٣ .

(٤٨) العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٣٤١ ـ ص ٣٤٢ .

وبالنسبة للمجتمع كان المحتسب يحتل مكانة هامة ويعد مسئولا فى نظر الناس عن حالة الأسواق . فإذا ما كانت الأسعار معقولة والأسواق مستقرة كان المحتسب يلقى رضاء الناس عنه وربما يحملون بغلته وهو راكب عليها ويصبون عليه ماء الورد ويشعلون له الشموع والقناديل على طول الطريق ، على حين تقف الفرق الموسيقية الشعبية والمطربون الشعبيون يحيونه بالأغنيات ويزفونه حين يمر بهم(٤٩) أما إذا كان المحتسب دون مستوى المسئولية فإنه كان يتعرض لكافة ضروب المهانة ، وقد يلزم بيته فترة طويلة خوفا من غضب الناس الذين ينسبون إليه سوء الأحوال وغلاء الأسعار(٥٠).

ولم يكن المحتسب وغيره من الموظفين المسئولين عن الأسواق هم التعبير الوحيد عن سلطة الدولة ورقابتها على الأسواق فى عصر المماليك ، بل إن الضرائب على كافة أنواعها كانت تكشف عن مدى تدخل الدولة فى شئون الأسواق وأربابها ، وتكشف عن حقيقة العلاقة بين الدولة التى كانت تفرض هذه الضرائب ، وأرباب الأسواق وروادها الذين كانوا جميعا من رعايا هذه الدولة ، والواقع أن هناك كثيراً من الضرائب التى كانت تفرض وتلغى ، أو تزيد وتنقص دون سبب واضح . وقد زاد معدل هذه الضرائب فى عصر الجراكسة(٥١) . والواقع أننا لانقصد حصر هذه الضرائب، لأن هذا يتطلب أن نفرد له بحثا مستقلا ، وإنما نهدف إلى توضيح أحد وجوه سيطرة الدولة فى ذلك الزمان على الأسواق.

ومن ناحية أخرى ، ارتبطت الأسواق بالكثير من عادات المصريين الاجتماعية ، كما كانت تعبيرا عن جوانب هامة من حياتهم اليومية .

ففى داخل كل سوق من هذه الأسواق كانت تقام مجموعة من الحوانيت . ولكن صغر مساحة الحانوت كان يستدعى بناء مصطبة أمام كل حانوت يجلس عليها البائع لمساومة المشترين أو للحديث مع زواره . وقد أثار استياء أحد المعاصرين أن أصحاب الدكاكين فى الأسواق كانوا يمازحون بعضهم بعضا . وقد يجلس البعض فى الدكاكين التى تفد عليها النساء لشراء حاجياتهن . وقد لاحظ أن إقبال النساء يكثر على دكاكين باعة القماش (٥٢).

---

(٤٩) المقريزى ، السلوك جـ٢ ، ص ٢٣٩ يتبع .

(٥٠) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ٩ ، ص ٤٣٥ ؛ العينى ، عقد الجمان تاريخ أهل الزمان ، (مخطوط) . جـ٢٥ ، ق٤١٣ ـ ق ٤١٤ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٩٥ .

(٥١) انظر على سبيل المثال ابن تغرى بردى (النجوم جـ٨ ، ص ٤٦) حيث يتحدث عن ضريبة نصف السمسرة التى كانت تفرض على كل من باع شيئا بها قيمته ٢٪ من ثمن البيع ، وكذلك المقريزى (السلوك جـ٣ ، ص ٢٤٤ (حيث يتحدث عن ضرائب سوق الجمال ، والسخاوى التبر المسبوك ، ص ٢٦٨) عن « مكس الجلود » الذى كان يؤخذ بسوق النعال ، أيضا ابن إياس (بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٢٥ ـ ص٧٧ ، ص ٣٠٤ ـ ص ٣٠٥ . جـ٥ ، ص ١٧) حيث يتحدث عن ضريبة جديدة كان يتعين على التجار فى الأسواق أن يؤدوها إلى المحتسب مع بداية كل شهر .

(٥٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج٤ ص ٢٢ .

وفى ذلك العصر كان من عادة النساء أن تخرجن إلى الأسواق لشراء حاجياتهن وربما يهازحن الباعة أثناء المساومة على الأسعار . وقد يحدث أن تأتى المرأة بصحبة زوجها إلى الدكان ثم يتركها ويذهب إلى مكان آخر ، وغالبا ما كانت النساء تشترى لأزواجهن ما يحتاجونه من ملابس (٥٣) .

كذلك كانت النساء تمثلن غالبية رواد الأسواق فى بعض المواسم مثل خميس العهد الذى كان المصريون جميعًا يحتفلون به على الرغم من كونه عيدًا مسيحيًا . وفى هذا اليوم كانت النساء تخرجن إلى الأسواق ، التى تزدحم بهن ، لشراء البخور والخواتم . ويذكر ابن الحاج أنه لايمكن لأحد أن يمر بالسوق فى هذا اليوم إلا بمشقة لزحمة النساء « . **ولو أن رجلا منع اهله من الخروج فى ذلك اليوم لوقع التشويش بينهما ، وقديئول الأمر إلى الفراق . . .** » (٥٤) .

والجدير بالذكر أن بعض المعاصرين كانوا يرون فى خروج النساء إلى الأسواق أمرًا منكرًا ، وكثيرًا ما ثارت المناقشات فى الدوائر الحاكمة بحضور الفقهاء والقضاة لمنع النساء من ارتيادالأسواق لاسيما فى أوقات الأزمات الاقتصادية أو الأوبئة . وهو مايكشف عن المفاهيم الأخلاقية التى كان أهل ذلك الزمان يفسرون بها أسباب الكوارث والشدائد (٥٥) .

ومن مظاهر ارتباط الأسواق بعادات المصريين وسلوكياتهم الاجتماعية أن الناس كانوا يتوجهون صباح كل يوم جمعة إلى « سوق الدجاجين » بالقاهرة ، وهو سوق كانت تباع به الدواجن بكميات كبيرة كما كانت تباع طيور الزينة من العصافير الملونة وغيرها من الطيور المغردة ، وهناك يشترى الناس لأطفالهم العصافير لكى يطلقوها حبًا فى عمل الخير لأن الناس كانوا يعتقدون أن العصافير تسبح بحمد الله (٥٦) .

كذلك ارتبط « سوق الحلاويين » بعادات المصريين ومواسمهم . ويبدو من اسم هذا السوق أنه كان مخصصا لبيع الحلوى المصنوعة من السكر . ويذكر المقريزى أن هذه الحلوى كانت تصنع على هيئة الحيوانات من قطط وسباع وغيرها . وقد عرفت هذه التماثيل السكرية باسم العلاقات (مفردها علاقة) لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت ، ويتراوح وزن كل منها بين ربع رطل وعشرة أرطال . وكان هذا السوق يزدهر فى مواسم أول رجب ونصف شعبان ، وعيد الفطر الذى كان الاستعداد له يبدأ من منتصف شهر رمضان . وكان الناس يحرصون على شراء هذه التماثيل السكرية ـ التى تمتلىء بها أسواق القاهرة والأقاليم فى هذه المواسم ـ لأطفالهم . كذلك كان الناس يهادون الأقارب والأصهار بهذه الحلوى، لاسيما إذا كانت المصاهرة جديدة ، أو إذا لم يكن العريس قد دخل بعروسه . وفى البيوت كان لابد من شراء هذه الحلوى لأهل المنزل (٥٧) على نحو مايحدث الآن فى احتفال المولد النبوى .

---

(٥٣) المصدر نفسه ، جـ١ ص ٢٤٥ ، جـ٢ ص ٥٥ ، جـ٤ ص ٢٢ .
(٥٤) المصدر نفسه جـ٢ ، ص ٥٤ . (٥٥) قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٧١ .
(٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٣ يتبع .
(٥٧) المصدر نفسه ، والجزء والصفحة ؛ ابن الحاج ، المدخل ، ص ٢٩٣ .

وكان « سوق الشماعين » الذى تخصصت حوانيته فى بيع الشموع بأنواعها المختلفة ، من الشموع الموكبية والطوافات والفوانيس يزدهر أيضًا فى شهر رمضان ، وفى غطاس النصارى . والواقع أن هذا السوق ـ الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى عصر الدولة الفاطمية ـ يمدنا بصورة رائعة من صور الحياة الاجتماعية فى مصر أيام المماليك . ففى موسم شهر رمضان ، وغطاس النصارى ، كانت تباع فى هذا السوق كميات كبيرة من الشموع الموكبية التى كانت الواحدة منها تصل إلى عشرة أرطال ، بل إن بعض الشموع كانت تصل فى وزنها إلى أكثر من قنطار . وكان الناس يقبلون على حوانيت هذه السوق التى تظل مفتوحة حتى منتصف الليل ، وقد حولت الشموع ليله إلى نهار ، لشراء الشموع أو تأجيرها . ذلك أن الشموع الضخمة ، التى كانت تؤجر ، كانت تحمل على عجلات ويجرها الصبيان فى موكب لصلاة التراويح « . **يعجز البليغ عن حكاية وصفه** . . » . ومن المهم أن نشير إلى أن تقدم صناعة الشموع قد تمثلت فى هذا السوق . كما أن حالة الرخاء التى عاشها المصريون فى عصر المماليك البحرية ، من ناحية أخرى ، قد انعكست على اهتمامهم بصلاة التراويح وشراء الشموع الضخمة ، أو استئجارها لهذا الغرض ، وهى صورة اختفت فى أواخر ذلك العصر نتيجة التدهور الاقتصادى كما سنرى .

وعلى الجانب الآخر ، يكشف « سوق الشماعين » عن جانب معتم من الحياة المصرية فى ذلك العصر ، ففى هذا السوق كانت بنات الليل تجلسن فى الحوانيت حتى ساعة متأخرة من الليل وقد ارتدين زيًا مميزًا هو الملاءات الطرح والسراويل الحمراء . وقد عرفت أولئك البغايا باسم « زعيرات الشماعين » (٥٨).

ونستطيع من خلال المعلومات التى أمدنا بها المقريزى عن « سوق الجوخيين » أن نتعرف على بعض التطورات التى جرت على الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك ، فقد كان التجار فى هذا السوق يبيعون الجوخ المستورد من أوربا لكى يستخدموه فى صناعة المقاعد والستائر والسروج . ذلك أن المصريين لم يكونوا يلبسون الجوخ سوى فى الأيام المطيرة فوق ثيابهم لكى يقيهم مياه المطر . ولكن تدهور الأحوال الاقتصادية ، وارتفاع أثمان الثياب الحريرية وغيرها من الثياب الفاخرة ، جعلا المصريين يتخلون عن نظرتهم تلك ، ويقبلون على ارتداء الملابس الجوخية ، مما أدى إلى إزدهار « سوق الجوخيين » (٥٩) .

وتكشف دراسة الأسواق أيضًا عن أنه لم يكن من عادة المصريين بشكل عام أن يعدوا الطعام فى منازلهم ، بل إن العامة كانوا يتناولون طعامهم خارج منازلهم التى يبدو أنها كانت منازل متواضعة فى الغالب (إذا مااستثينا بيوت الأثرياء التى حفظ الزمن آثارها) . وانتشرت فى القاهرة آنذاك عدة آلاف من المطاعم التى كان المصريون يأكلون فيها (٦٠) . والحقيقة أنه قد وجد فى ذلك العصر نوعان من المطاعم : المطابخ التى كان الطباخون يعدون فيها الأطعمة التى يبيعونها لحسابهم ، وحوانيت «الشرائحيين » ، أو « الشرايحية » التى كان الناس يرسلون إليها مايريدون طهيه من لحوم وخضراوات

---

(٥٨) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص ٩٤ . يتبع .

(٥٩) المصدر نفسه . (٦٠) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٨٧ .

وغيرها ، ويقوم الشرايحية بطهيها بعد خلطها بالتوابل وغيرها ثم يرسلونها مع صبيانهم إلى المنازل فى قدور مغطاة ، وذلك مقابل أجر معين يأخذونه من زبائنهم (٦١) .

وإلى جانب هذه المطاعم كان هناك عدد كبير من الباعة يغدون فى الشوارع جيئة وذهابا حاملين المواقد والنيران ، وأطباق الطعام المعدة للبيع على حين ترى سواهم حاملين صحاف الفاكهة (٦٢) . كذلك كان بعض الباعة يفترشون الأرض فى الأسواق والشوارع وبجوار الجوامع وأمامهم طبليات عليها شتى صنوف الطعام التى يبيعونها للناس (٦٣) .

أما الخبز فكان منه مايباع جاهزًا فى الأسواق ، ومنه مايعد فى البيوت ثم يرسل إلى الأفران . وكان بعض الناس يخبزون فى الفرن مشاهرة (أى يدفعون أجر الخبز كل شهر) ، على حين كان البعض الآخر يدفع نقدًا عن كل مرة . والجدير بالذكر أن « الخباز » فى ذلك العصر كان يعنى من يصنع الخبز لبيعه فى السوق ، أما « الفران » فهو الذى يخبز الخبز الخاص بالبيوت لقاء أجر معلوم (٦٤) .

وكانت المياه تجلب من نهر النيل ، ويحملها السقاءون على ظهور الجمال ، ويمرون بها على بيوت عملائهم لتفريغها فى الأزيار وغيرها من الأوانى . وكان الماء يباع بالقربة ، وربما يأخذ السقاءون الأجر مقدما و يرسلون صبيانهم بقرب المياه إلى المنازل . وكان من المناظر المألوفة والتى تسترعى انتباه كل غريب فى شوارع القاهرة ، ذلك العدد الكبير من السقائين الذين يروحون ويجيئون لبيع المياه التى يحملونها على ظهور الجمال والحمير ، أو فى القرب على ظهورهم وينادون عليها بالصلاة على النبى حتى يفسح الناس لهم الطريق .

كذلك كانت الأسواق تعتبر بمثابة « مراكز إخبارية واجتماعية » ، على حد تعبير أحد الباحثين المعاصرين (٦٥) فالواقع أن السوق كان بؤرة اجتماعية هامة نظرًا لأن عددًا كبيرًا من الناس يوجدون فيه ، إما كمشترين وزبائن للسوق ، وإما بقصد النزهة كما أوضحنا من قبل ، وإما باعتبارهم من أصحاب الحوانيت أو غيرهم من أرباب السوق . ومن الطبيعى أن يتداول الناس الأخبار ، ويتناقشوا حول ما يشغلهم من أمور سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . ومن ثم فإننا يمكن أن نقول إن السوق كان مركزًا من مراكز تكوين الرأى العام على حد تعبيرنا المعاصر .

ومما يؤكد الفرض الذى طرحناه أن مصادر عصر المماليك التاريخية كثيرًا ما تحدثنا عن النداء فى الأسواق لسبب أو لآخر (٦٦) ، فقد كان المنادون يقومون بالدور الذى تقوم به وسائل الإعلام فى

---

(٦١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ص ١٨٦ ـ ص ١٨٩ .

(٦٢) تافور ، الرحلة ، ص ٩٧ .

(٦٣) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص ٩٣ يتبع ؛ ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ص ٧٩ ـ ص ٨٠ .

(٦٤) تافور ، المصدر السابق ، ص ٩٨ ؛ ابن الحاج ، المصدر السابق جـ٤ ، ص ١٨٢ .

(٦٥) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٨٧ .

(٦٦) انظر على سبيل المثال : المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٣٠ ؛ العينى ، عقد الجمان (مخطوط) ق ١٨٣ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٤ ، ص ٢٦ ـ ص ٢٩ ؛ ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٢٠٥ ، ص ٣٣٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٢٠ ، ص ١٠٥ ـ ص ١٠٦ .

حياتنا الحالية من حيث توصيل أوامر الحكومة أو قراراتها إلى أفراد الرعية . والانطباع الذى تتركه أخبار هذه النداءات هو أن المنادين كانوا يختارون أماكن التجمع ومنها الأسواق لإعلام الناس بمضمون النداء . كذلك تتحدث هذه المصادر عن تكرر النداء فى الفترة الأخيرة من ذلك العصر ، بألا يتحدث الناس فى الأسواق فى أمور الدولة وأخبار الحكام وإلا تعرضوا للعقاب(٦٧) .

ومن ناحية أخرى ، كانت أسواق ذلك العصر تعكس جوانب متعددة من العلاقة بين الحكام والرعية ، فقد كان لابد من الحصول على ترخيص رسمى من الدولة مقابل مبلغ من المال لبناء الحوانيت والمصاطب وإقامة السقائف فى الأسواق (٦٨) . كذلك كان الوالى يلزم الباعة فى الأسواق بكنس الشارع ورشه بالمياه ، ويعاقب كل من يمتنع عن ذلك ، وكان على كل حانوت أن يعلق قنديلا يضىء طوال الليل ، كما كان على أصحاب الحوانيت فى الأسواق أن يزينوا حوانيتهم فى الأعياد والاحتفالات العامة ، فضلا عن تظاهرات استقبال سلاطين المماليك التى كان يفرض على الجميع المشاركة فيها(٦٩) .

وكان طبيعيًا فى ذلك العصر ـ كما هو الحال الآن ـ أن يؤدى أصحاب الحوانيت فى الأسواق الصلاة أمام حوانيتهم ، كما كان من المألوف أن تفرش الحصر والبسط أمام الحوانيت لأداء الصلاة(٧٠) . وكان أربا ب الأسواق يؤدون صلاة الجمعة فى السوق مما أثار استنكار بعض المعاصرين (٧١) .

إلا أن هذه الصورة الزاهية الألوان للحياة المصرية كما تعكسها الأسواق خلال الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك لم تلبث أن تلاشت بفعل عوامل التدهور التى عانى منها المجتمع المصرى منذ أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل القرن التاسع (١٤ ، ١٥ م) . ونجد فى مواجهتنا سؤالا يفرض نفسه عن عوامل تدهور الأسواق . ومن الضرورى أن نوضح منذ البداية أن بعض عوامل التدهور كانت نتائج فى حد ذاتها ، وهو مايشير إلى أن مشكلة السببية فى التاريخ مشكلة صعبة الحسم ، إذ إن استمرارية العملية التاريخية تجعل من الصعب تتبع جذور هذه العوامل من ناحية ، أو الفصل بين العوامل والنتائج من ناحية أخرى ، بيد أن هذا لايمنع من أن نحاول رسم صورة صادقة ـ بقدر الإمكان ـ لهذا التدهور والأسباب التى أدت إليه .

ولقد تأثرت حركة أسواق مصر بعدة عوامل متباينة فى أواخر ذلك العصر ، وكان لبعض تلك

---

(٦٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ـ ص ١٥ ، جـ٥ ، ص ٦ ـ ص ٧ .
(٦٨) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٢٧ ، جـ٥ ، ص ١٤ .
(٦٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٥٧ ـ ص ٥٨ ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ١١ ، السلوك جـ ٤ ، ص ٨٧٠ ـ ص ٨٧٥ .
(٧٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٦٥١ .
(٧١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

العوامل آثارها السلبية على حركة الأسواق التى انكمش حجمها وتوقفت فيها حركة البيع والشراء وغير ذلك من مظاهر الكساد ويكفى للدلالة على ذلك أن نشير إلى ما قاله المقريزى فى هذا الشأن ونصه :

« . . . كان بمدينة القاهرة ومصر وظواهرها من الأسواق شىء كثير جدًا قد باد أكثرها ، وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقا أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا ، وهذه من جملة ظاهر القاهرة **الغربى ، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر . . . »(٧٢) .**

ومن الممكن أن نفسر كلمات المؤرخ الكبير فى ضوء الحقيقة القائلة بأن مصر شهدت هبوطًا كبيرًا فى عدد السكان منذ منتصف القرن الرابع عشر ، وقد انعكس هذا على أسواق البلاد ، من حيث عددها وحركة البيع والشراء بها ، فقد ذكر المقريزى أيضا أن كثيرًا من أسواق القاهرة التى شهد بنفسه مدى رواجها تقلصت بعد القرن الخامس عشر إلى مجرد عدة حوانيت لاتزيد عن أصابع اليد الواحدة . فقد آل أمر « سوق الحوائصيين » مثلا ، إلى بيع الطواقى التى يلبسها الصبيان . كذلك تدهور « سوق الشماعين »، ولم يتبق منه فى أربعينيات القرن التاسع الهجرى (١٥م) سوى خمسة حوانيت . وهناك أمثلة أخرى كثيرة يسوقها المقريزى فى خططه على مدى التدهور الذى أصاب أسواق مصر آنذاك(٧٣) .

والواقع أن هبوط عدد السكان فى حد ذاته ، كان نتيجة لكثير من العوامل المتشابكة التى انعكست أيضا على الأسواق التى اختفى بعضها وانكمش حجم البعض الآخر ، كما قلت حركة البيع والشراء وارتفعت الأسعار ، فضلا عما نتج عن ذلك بالضرورة من كساد .

وتتصل بعض العوامل والأسباب المؤثرة فى حركة الأسواق بالدولة نفسها ، من حيث مدى الاستقرار السياسى ، ومن حيث الإجراءات الاقتصادية المختلفة ، وحالة الأمن فى البلاد ، والنظام النقدى ، وغير ذلك من الأسباب .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الاضطراب السياسى الداخلى لم يكن ظاهرة قاصرة على عصر الجراكسة فقط ، وإنما كان ظاهرة عامة طوال ذلك العصر . وتفسير ذلك فى تصورنا هو أن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك والتى جعلت العرش من حق الجميع قد أدت إلى تنافس أمراء المماليك على عرش السلطنة الذى اعتبروه حقا للأقوى . وبين الآونة والأخرى كان بعض الأمراء الطموحين يترجمون طموحهم إلى عمل عسكرى فى شوارع القاهرة التى تتحول إلى ميدان قتال لجيوش المماليك المتحاربة ، وقد تمتد على مدى عدة أيام تضطرب أثناءها الأحوال ، وتموج البلاد بالفوضى والفزع . وسرعان ما تخلو الطرقات من روادها ، وتقفر الأسواق . ويهجرها الباعة لتكون ميدانا لقتال

---

(٧٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٦٥١ .

(٧٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٩٣ ـ ص ١٠٦ .

فرسان المماليك ومعاركهم الدموية : وتحفل مصادر ذلك العصر بالأمثلة التى تؤكد ذلك ، فقد حدث، على سبيل المثال ، أن أغلق التجار حوانيتهم عدة مرات فيما بين سنة ٧٨١ هـ وسنة ٧٨٣ هـ، أثناء النزاع بين الأميرين برقوق وبركة حول العرش (٧٤) .

بيد أن هذه الحوادث العنيفة زاد معدل وقوعها فى الشطر الأخير من العصر ، إذ كانت مثل هذه الحوادث فى عصر البحرية مرهونة بتصارع الأمراء الكبار حول عرش البلاد فى الغالب . ولكن نظام تربية المماليك الصارم . . (٧٥) كان يكفل للسلاطين والأمراء السيطرة القوية على مماليكهم . وساعدهم على ذلك مواردهم التى وفرتها الزراعة المزدهرة والتجارة المربحة . ومنذ أواخر عصر الدولة الأولى بدأ شراء المماليك بعد سن البلوغ ، وعرف أولئك المماليك فى مصطلح ذلك العصر باسم «الجلبان » أو « الأجلاب » . وقد أدى ذلك إلى انهيار نظام تربية المماليك الذى كان يشكل ركناً من أركان النظام السياسى آنذاك ، إذ إن رابطة الأستاذية ، التى كانت تربط بين المماليك وأستاذهم (سيدهم) الذى أشرف على تربيتهم منذ نعومة أظفارهم ، قد انهارت كما تفككت عربى رابطة الخشداشية التى كانت تجمع بين المماليك من أبناء الطائفة الواحدة . كذلك رفع الحظر على نزول المماليك من ثكناتهم فى القلعة والسكن بالقاهرة منذ عصر السلطان الطاهر برقوق فى أواخر القرن الرابع عشر ، وكانت النتيجة أن ضعفت الرقابة عليهم ، وقلت فرصة السيطرة على حركتهم .

وفى الشطر الثانى من عصر سلاطين المماليك زاد معدل التدهور السياسى الداخلى بفعل النفوذ المتنامى للمماليك الجلبان وعدم قدرة السلطان والأمراء على ردعهم . ومن ثم تكررت حوادث الشغب والاضطراب التى كانوا يثيرونها ، فضلا عن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس فى الشوارع والأسوق حتى أمست تلك الحوادث بمثابة النغمة الدالة فى حياة المصريين آنذاك . وكانت النتيجة الطبيعية لمثل تلك الحوادث دائماً أن يسرى الفزع فى النفوس ، وتضطرب البلاد وسكانها بالفوضى والخوف ، وتتوقف بالتالى حركة البيع والشراء وتغلق الأسواق .

ولعل من المفيد أن نورد بعض الأمثلة ذات الدلالة فى هذا المجال . ففى سنة ٧٦٨ هجرية (١٣٦٨ م) حدث صراع بين « السلطان الأشرف شعبان » « والأمير يلبغا » الذى لجأ إلى تولية سلطان آخر هو « الأمير آنوك » شقيق السلطان ، وبذلك صار هناك سلطان على كل من حافتى النيل فيما بين جزيرة الروضة والقاهرة ، ولكل منهما أتباعه من الأمراء والمماليك واستمر القتال بين الطرفين عدة أيام « . **وأسواق القاهرة طوال هذه الأيام مغلقة والأسباب متعطلة ، وليس للناس شغل سوى التفرج فى شاطىء النيل على المقاتلين من السلطانية واليلبغاوية . .** » (٧٦) .

---

(٧٤) المقريزى ، السلوك ؛ جـ٣ ، ص ٣٥٢ ـ ص٣٥٣ ، ص ٣٨٦ ، انظر كذلك ابن أيبك ، كنز الدرر ، ، جـ٨ . ص ٣٧٢ .

(٧٥) عن هذا الموضوع انظر سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١١ ـ ص ٣٨ .

(٧٦) المقريزى ، جـ٣ ، ص ٢٨٠ ـ ص ٢٨٢ .

أما الحوادث التى أثارها الجلبان فالأمثلة عليها كثيرة ومتواترة ، بيد أن ابن أياس يذكر أن أول حوادثهم قد وقعت سنة ٨٧٧ هـ حين هاجموا أحد كبار موظفى الدولة (٧٧) . وتعددت اعتداءاتهم بعد ذلك على الأمراء وكبار موظفى السلطة دون أن يجدوا قوة تردعهم أو تقف فى طريقهم ، ففى العام التالى هاجم جماعة من الجلبان « الأمير يشبك الدوادار » ففر منهم إلى مدينة الجيزة حيث ظل بها طوال خمسة عشر يوما ، وكانت النتيجة أن امتنع الأمراء من الصعود إلى القلعة ، على حين اعتكف السلطان قايتباى احتجاجًا على تصرف مماليكه (٧٨) . ولكن الجلبان تأكدوا من عدم قدرة السلطان أو كبار الأمراء على كبح جماحهم فعاودوا إثارة الشغب فى العام التالى رغبة منهم فى قتل يشبك . وهنا أمر السلطان قايتباى أمراءه بالاستعداد لقتال الجلبان فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة بالفوضى وأغلقت الأسواق (٧٩) .

ويورد لنا ابن إياس مزيدا من أمثلة الحوادث التى أثارها الجلبان فى العقود الأخيرة من ذلك العصر، وهى الحوادث التى كانت تتسبب دائمًا فى تعطل الأسواق وإثارة الرعب والفزع نتيجة لما كان يصحبها من أعمال النهب والقتل وغيرها من مظاهر العنف (٨٠) .

وعلى الرغم من أن الأوامر كانت تصدر من حين لآخر بعدم تعرض المماليك الأجلاب للناس والباعة والتجار : فإنه يبدو أن تدهور سلطة الحكومة وعجز السلاطين جعلا مثل تلك الأوامر « . . كضرب رباب أوكطن ذباب » على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى . ومع مرور الزمن تزايد عبث الجلبان بمقدرات الناس وأمنهم مما أدى بالتالى إلى ارتفاع الأسعار « . . . فى سائر الأشياء من المأكول والملبوس والغلال والعلوفات . . فضر ذلك بحال الناس قاطبة ، رئيسها وخسيسها . . » (٨١) . وهو ما يشير إلى مدى النتائج الضارة والآثار السلبية الناتجة عن تدهور سلطة الدولة فى الداخل . وانعدام السيطرة على الجلبان الذين كثرت حوادث اعتداءاتهم وتزايد شرهم ، بحيث صاروا يخطفون القماش والبضائع من الأسواق . كما أظهروا استخفافهم بالسلطان وكبار الأمراء (٨٢) .

وعلى الرغم من تدهور أحوال الدولة ، وانهيار الاقتصاد ، فإن مرتبات المماليك تزايدت نتيجة لكثرة أعدادهم من ناحية ، وتفشى الفساد من ناحية ثانية ، على حين لم تعد الدولة قادرة على الوفاء بهذه المطالب مما كان يدفع بالمماليك إلى التمرد وإثارة الشغب . فقد كانت جامكية المماليك السلطانية أحد عشر ألف دينار ، فى عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ ـ ٨٢٤ هـ) ، ثم وصلت إلى ثمانية عشر ألف دينار ، فى عهد الأشرف برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ) وفى أيام الظاهر جقمق زادت إلى ثمانية

---

(٧٧) ابن إياس ، بدائع الزهور جـ ٣ ، ص ٨٢ . (٧٨) المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، ص ٩٤ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ، ص ٩٦ .

(٨٠) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٤٧ ، جـ ٤ ، ص ١٣ ، ص٣٦٣ ، جـ ٥ ، ص ٤ ـ ص٧.

(٨١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٦ ، ص ٩٨ .

(٨٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص٣٣٥ ، ص ٣٨٨ .

وعشرين ألف دينار ثم وصلت إلى ستة وأربعين ألفا فى زمن قايتباى (٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ) (٨٣) ونتيجة لهذه الزيادة جمع قايتباى مجلسًا بالقلعة حضره قضاة القضاة ونوابهم وعدد من شيوخ العلماء ، وأخذ السلطان يدعو على نفسه بالموت ويتبرم من السلطنة نظرًا لأن الخزانة خاوية ومطالب المماليك كثيرة(٨٤) .

وعلى الرغم مما يحمله هذا المثال من دلالات واضحة على مدى تدهور الأحوال المالية فى أواخر ذلك العصر ، فإن الأمثلة التى تؤيد ذلك كثيرة ومتواترة فى مصادر تلك الفترة . ففى سنة ٩٠٦ هجرية تأخرت رواتب المماليك الأجلاب وثاروا على السلطان قنصوه الغورى الذى اشتكى من أن الخزانة خاوية وقد كثر العسكر من سائر الطوائف ما بين « **ظاهرية وأشرفية وإينالية وخشقدمية ، وقايتبايهية وناصرية . ومماليك الظاهر قانصوه ومماليك الأشرف جانبلاط ، ومماليك العادل طومانباى ، ومماليك النواب والأمراء الذين قتلوا . . فمن أين أسد هؤلاء المماليك ؟** » (٨٥) .

وفى العام التالى تأخرت رواتب المماليك ثلاثة أشهر ، فتمردوا على السلطان وهددوه ، فأخذ يستولى على أموال الناس قسرًا ، ونتيجة لذلك طالب أصحاب الأملاك من السكان أن يدفعوا أجرة مساكنهم ودكاكينهم عشرة شهور مقدمًا « . . **فحصل لهم بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتعطلت الأسواق من البيع والشراء ، وغلقت غالب دكاكين القاهرة ، ووقع الاضطراب للغنى والفقير ، وصار الناس بين جمرتين** . . » (٨٦) .

وليت الأمر كان يقتصر على ذلك ، ففى بعض الأحيان كان المماليك ينزلون إلى الشوارع والأسواق يسرقون وينهبون . ففى سنة ٩١٦ هجرية ، عجز قنصوه الغورى عن دفع مرتبات المماليك فنزلت جموعهم إلى شوارع القاهرة ونهبوا سوق جامع ابن طولون ، وسوق الصليبية ، وسوق تحت الربع . وسوق البسطيين « . . **حتى كادت مصر أن تخرب عن آخرها فى هذا اليوم** » وأغلقت بقية الأسواق . وثبت أن عدد الحوانيت التى نهبها الجلبان فى ذلك اليوم خمس مائة وسبعين حانوتًا ، وقدرت خسائر التجار بحوالى عشرين ألف دينار (٨٧) .

ومما يؤكد أن العبث والإفساد اللذين سببهما المماليك الأجلاب فى حياة المصريين اليومية ، قد تركا تأثيرًا مدمرًا على الاستقرار الضرورى لرواج الأسواق ، مايذكره ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٨٦٠هـ ــ

---

(٨٣) ابن الصيرفى إنباء الهصر ، ص ٣٣ ـ ص ٣٧ . وقد ذكر هذا المؤرخ أن من أسباب هذه الزيادة أن الاستادار كان يبيع الجامكية (المرتب) ويهبها ، كما كان يزيد فى جوامك المماليك السلطانية ويرتب لأولادهم جامكية حتى ولو لم يكن لهم أولاد ، مقابل رشوة يأخذها .

(٨٤) المصدر نفسه ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٩ .

(٨٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٣ ـ ص ١٨ . والجدير بالذكر أن كل طائفة من طوائف المماليك المذكورة تنسب إلى السلطان الذى اشتراها وكانت تعمل فى خدمته .

(٨٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٨ ، ص ١٦ . (٨٧) المصدر نفسه .

موضحا مدى استهتار هؤلاء بالمصريين والأثر الذى تركوه فى نفوسهم ـ فقد حدث أن خرج جهاز إحدى العرائس محمولا على رؤوس الحمالين وعلى ظهور البغال ليزفوه كما كانت عادة المصريين آنذاك . وتصادف أن مر أحد فرسان المماليك بجوار الموكب ثم وقعت قطعة نحاس أحدثت صوتًا جعل الحصان يجفل ، مما أحنق الفارس فضرب حصانه وساقه مسرعًا . وهنا حدث أمر غريب « . . فلم **تشك العامة فى أن المماليك نزلوا إلى حوانيت القاهرة ، فأغلقت الأسواق فى الحال . .** »(٨٨)

ويبدو أن عجز الحكام عن منع المماليك الجلبان من الاعتداء على الناس قد جعل هؤلاء يعتمدون على أنفسهم فى التصدى للمماليك ، ويبدو أيضا أن المماليك قد نالهم بعض الأذى من الناس . فقد نودى فى القاهرة سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) بأن « . . **لاسوقى ولاتاجر يبهدل مماليك السلطان ، ولايمسك لأحد منهم فرس ، ومن فعل ذلك قطعت يده .** »(٨٩)ومن ناحية أخرى كانت هذه المناداة من أكبر أسباب الفساد ، إذ صار المماليك يدخلون الأسواق ويخطفون القماش دون أن يتمكن أحد من التصدى لهم .

وهكذا ، بينما كانت الاضطرابات السياسية الداخلية فى الشطر الأول من ذلك العصر راجعة إلى المنافسة بين كبار الأمراء والتنازع على العرش ، فإن فساد المماليك الأجلاب وهجماتهم المتكررة على الأسواق صارت أمرًا مألوفًا فى الحياة أواخر ذلك العصر ، مما ترك أسوأ الآثار على الأسواق والتجارة الداخلية .

ومن بين العوامل المؤثرة فى حركة الأسواق والتى تتصل بالدولة نظام طرح البضائع الذى ترك آثاره الوبيلة على حركة الأسواق آنذاك . ويمكن أن نستدل من المصادر التاريخية المتاحة على مدى ما كان هذا النظام يحمله فى طياته من مؤشرات دالة على مدى تدخل الدولة فى حركة الأسواق من جهة . والنتائج السلبية لهذا النظام من جهة ثانية .

وتقوم فكرة نظام طرح البضائع ـ التى كانت تختلف وتتنوع تنوعًا كبيرا مابين الأبقار والماشية والأقمشة والثياب والفراريج والزيت والعسل وغيرها ـ على أساس أن تفرض الدولة ما يتوفر لديها من سلع وبضائع ، لسبب أو لآخر على التجار بالسعر الذى تراه وبالكمية التى تريدها ، بغض النظر عن حاجة الأسواق ، كما أن التاجر لم يكن له حق الرفض أو حتى المساومة على الأسعار .

أما مصادر تلك البضائع ، فإنها تنوعت ما بين الهدايا الواردة صحبة السفارات التى كان الحكام المعاصرون يرسلونها إلى سلاطين المماليك ، والأسلاب والغنائم التى غنمتها الجيوش والأساطيل المصرية أو الحملات التأديبية التى كان الأمراء يقومون بها ضد العربان فى شتى أنحاء مصر . وفضلا

---

(٨٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٦ ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

(٨٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ٤٦٥ .

عن ذلك كان نظام طرح البضائع يعتمد على احتكار بضاعة بعينها (٩٠) .

ويبدو أن إجراء طرح البضائع كان يتبع من حين لآخر نتيجة لرغبة الدولة فى مواجهة متاعبها المالية . ومن ناحية أخرى ، كانت الدولة تلزم التجار بتسديد أثمانها فى الحال مما كان يسبب لهم كثيرا من المتاعب . ويتضح من النصوص التاريخية المتاحة أن أسلوب الحكام فى معاملة التجار عند طرح البضائع عليهم كان من القسوة والشدة بحيث كان التجار يتمنون الموت لأنفسهم فى بعض الأحيان (٩١) .

وقد تتعطل الأسواق نتيجة انشغال التجار بشراء ما تطرحه الدولة من بضائع مثلما حدث سنة ٨٢٧ هجرية ، حين عاد بعض رجال الأسطول بغنائمهم التى غنموها من قبرص وكان من بين الغنائم كميات كبيرة من الجوخ ، وكان نصيب السلطان منها مائة وثلاث قطع طرحت كلها على التجار وفقا للسعر الذى حدده . وكما حدث سنة ٨٢٩ هـ بعد الاستيلاء على جزيرة قبرص وأسر ملكها جانوس ، إذا أمر « السلطان برسباى » بجمع التجار لشراء الغنائم فتعطلت أسواق القماش عدة أيام لانشغال التجار بشراء الغنائم (٩٢) . وقد يهرب التجار حين يعجزون عن الوفاء بالثمن المطلوب كما حدث سنة ٩١٧ هـ ، حين طرح السلطان قنصوه الغورى على التجار فى الأسواق « زيتًا وعسلاً وزبيبا وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث . . » وكانت النتيجة أن هرب التجار واغلقت الأسواق عدة أيام (٩٣) .

وهكذا فإن نظام طرح البضائع ، كإجراء اقتصادى تعسفى من قبل الدولة ، سبب كثيرًا من المتاعب للتجار (٩٤) ، كما كان من عوامل انكماش حركة الأسواق الداخلية . إذ كان من الطبيعى أن يحاول التجار تعويض ماتكبدوه من أموال فى هذه البضائع المفروضة عليهم فضلا عن تحقيق نسبة من الربح ، وهو ماكان يؤدى بالضرورة إلى ارتفاع الأسعار وكساد حركة الأسواق .

والجدير بالذكر أن بعض كبار الأمراء كانوا يقومون بفرض حمايتهم على بعض الحوانيت مقابل امتياز معين ، وكان وجود « رنْك » الأمير (أى شارته) على أى حانوت هو رمز هذه الحماية التى تحمى

(٩٠) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٤٦ ـ ص ٤٧ . حيث ذكر فى حوادث سنة ٧١٠ هجرية أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أبطل « ماكان مقررًا من طرح الفراريج » ، ويبدو من خلال النص أنه كان يوجد بكل إقليم ضامن مهمته طرح الفراريج على التجار « ولايقدر أحد يشترى فروجًا إلا من الضامن » .

(٩١) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ص ٢٩٥ : جـ٣ ، ص ٧٣٨ .

(٩٢) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٧٢٢ ـ ص ٧٢٦ ، ص ٧٢٨ .

(٩٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٩٤) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٢٦١ ، حيث يذكر فى حوادث سنة ٨٧٥ هـ . أن الأساكفة قد طرح عليهم من ديوان الدولة جلود مقابل بعض المصنوعات الجلدية ، كما تعطل تجار الحوانيت لانشغالهم فى بيع تركة أحد كبار الأمراء .

صاحب الحانوت من قبول البضائع التى كانت الدولة تطرحها على التجار . بيد أن رغبة السلطان برسباى فى الحصول على الأموال من أى وجه جعلته يلغى تلك الحمايات فى سنة ٨٢٩ هـ فأمر بمنع الأمراء والأعيان من إلحمايات ومحيت رنوكهم عن الحوانيت والطواحين والمعاصر « حتى يتمكن مباشرو السلطان من رمى البضائع ما بين سكر وأرز وغير ذلك . . . فشمل الضرر كثيراً من الناس لما فى ذلك من الخسارة فى أثمانها . . » (٩٥).

كذلك كانت الدولة تحاول تسعير البضائع لاسيَّما فى أوقات الأزمات الاقتصادية . ومن الناحية القانونية اختلف الفقهاء حول شرعية نظام التسعير ، فبينما قال البعض إنه يحرم على المحتسب التسعير فى كل وقت أجاز البعض الآخر التسعير فى زمن الغلاء ، كما رأى بعض الفقهاء أن التسعير يجوز فى حالة إذا ماكانت البضائع الخاضعة للتسعير من إنتاج البلاد وليست من الواردات (٩٦) . وعلى أية حال فإننا نستطيع أن نستنتج من نصوص المصادر التاريخية أن نظام التسعير قد طبق بالفعل بقصد الحد من ارتفاع الأسعار ، بيد أنه تميز ـ كغيره من تصرفات الحكام ـ بالعشوائية والارتجالية . على أننا يجب أن نلاحظ أن الدافع إلى التسعير كان يختلف من وقت لآخر . كذلك أنه بينما كان الدافع فى أوائل ذلك العصر هو الرغبة فى تخفيف وطاة الأزمة الاقتصادية (٩٧) ، تمثل الدافع فى السنوات الأخيرة من العصر نفسه فى الخوف من تمرد المماليك الجلبان وغضبهم إذ إنهم كانوا قد أخذوا يتدخلون فى شئون الأسواق (٩٨).

وينبغى أن نلاحظ أن التسعير كان يأتى بنتائج عكسية لما كان مرجوًا منه فى بعض الأحيان ، وهو مايكشف عن حقيقة أن تدخل الدولة فى شئون السوق من خلال التسعير لم يكن يؤتى ثمارًا إيجابية دائما ، لاسيما وأن المحتسب المسئول عن مراقبة الأسعار لم يكن دائما على المستوى المطلوب من الكفاءة والأمانة، لاسيما فى عصر الجراكسة (٩٩) . بل إن الحسبة كانت تظل شاغرة فترة طويلة . وكان المحتسب عادة من أمراء المماليك فى أواخر ذلك العصر . وكان غالبية هؤلاء يجهلون حقيقة مسئولياتهم ، كما أنهم غالبا ما كانوا يعتمدون على أعوانهم الذين استغلوا مناصبهم فى تكوين الثروات . وكان البائع الذى لايدفع لهم الرشوة يتعرض للضرب والإهانة على الرغم من أن جميع الباعة فى الأسواق كانوا يبيعون بسعر أعلى من السعر الذى يحدده المحتسب(١٠٠) .

وكانت للضرائب الطارئة التى كان سلاطين المماليك يفرضونها على تجار الأسواق نتائج لاتقل من

---

(٩٥) المقريزى السلوك ؛ ج ٤ ، ص ٦٢١ . (٩٦) السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٩٢ .
(٩٧) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ ، جـ ٢ ص ٦٦٩ .
(٩٨) يذكر ابن إياس فى حوادث سنة ٩١٩ هـ . وسنة ٩٢٢ هـ أن عدة محاولات قد جرت لتسعير البضائع كلها حتى الكنافة خوفا من الجلبان « انظر بدائع الزهور » جـ ٣ ، ص ٣٣٨ ، جـ ٥ ، ص ٦ ـ ص ٧ ، ص ١٨ .
(٩٩) انظر ما سبق عن المحتسب .
(١٠٠) ابن الصيرفى . إنباء الهصر ، ص ٤٢ ، ص ٤٣ ، ص ١٢٥ ، ص ٢٠٣ ـ ص ٢٠٤ .

حيث ضررها عن طرح البضائع أو التسعير التعسفى ، فقد تعين على التجار أن يدفعوا هذه الضرائب الطارئة والتى كانت تزيد بشكل مطرد مع زيادة معدل التدهور فى مالية الدولة . ومن الطبيعى أن تساهم هذه الضرائب فى ارتفاع الأسعار من جهة ، وزيادة محاولات الغش والسرقة فى الموازين والمكاييل من جهة ثانية .

ومنذ بداية دولة سلاطين المماليك استحدثت عدة ضرائب سميت « الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية »[١٠١] . وأخذت أسواق البلاد تعانى من الضرائب التى ازداد عددها وتضاعفت قيمتها على مر السنين . وكان لهذه الضرائب الشهرية (مشاهرة) والأسبوعية (مجامعة) تأثيرها المدمر على الأسواق والتجارة الداخلية بوجه عام . ومن الأمور ذات الدلالة ما ذكره السخاوى فى حوادث سنة ٨٤٧ هجرية من أنه « . . . كثر التطفيف فى الموازين والغش فى البضائع . وفشا ذلك فشوًا منكرًا وطمع السوقة لما جعل عليهم من الرواتب الشهرية والجمعية . . . . »[١٠٢] . وهو ما يؤكده ابن إياس فى مرحلة لاحقة ، ففى سنة ٩٠٧ هجرية احتاج السلطان قنصوه الغورى لبعض الأموال لمواجهة مطالب المماليك ، فبدأ يفرض « مغارم » جديدة على الناس ، وكانت النتيجة أن تعطلت حركة البيع والشراء فى الأسواق ، وأغلقت أغلب حوانيت القاهرة[١٠٣] .

وكانت مثل هذه الضرائب تدفع بالباعة إلى رفع الأسعار عدة مرات فى بعض الأحيان ، دون خشية أو خوف من العقاب ، لأنهم كانوا يجدون المبرر والعذر فى تلك الضرائب التى تتزايد عبؤها على كواهلهم على مر السنين . ومن ناحية أخرى ، كان الباعة يلجئون إلى الغش فى الموازين والمكاييل ونوع المبيعات رغبة فى تعويض الأموال التى غرموها من جهة ، وتحقيقًا لمزيد من الأرباح من جهة ثانية . والنتيجة أن تقفز الأسعار ، ويظهر ما نسميه « السوق السوداء » بتعبيرنا المعاصر ، ويتزايد الضغط على المستهلك العادى مما يدفعه إلى الاقتصار على شراء الضروريات فقط ، ومن ثم تنكمش الأسواق من حيث حركتها ، ومن حيث حجمها وعددها على حد سواء .

كما تكشف هذه الضرائب ، من ناحية أخرى ، عن طبيعة العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم فى ظل المفاهيم السياسية التى حكمت ذلك العصر ، وهو يدعم ما ذهبنا إليه فى مدخل هذا الكتاب من أن مصر فى ذلك الزمان كانت « سلطان ورعية » ، على حد قول ابن خلدون .

ومن المنطقى أن يكون للنظام النقدى أثره الخطير على حركة أسواق مصر . ففى بداية عصر سلاطين المماليك ، كان رصيد الدولة من الذهب والفضة كبيرًا . فعلى مدى مائة وثلاثين عاما تقريبًا .

---

(١٠١) المقريزى ، السلوك جـ١ ، ص ٣٨٤ . كان ذلك سنة ٦٥٠ هجرية فى عهد السلطان المعز أيبك ، وتنسب هذه الضرائب إلى وزيره « هبة الله بن صاعد الفائزى » .

(١٠٢) السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٧٧ .

(١٠٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ١٦ ، والجدير بالذكر أن الضرائب الشهرية والأسبوعية تعرضت للإلغاء والإبقاء عدة مرات (المصدر نفسه ، ص ٤ ، ص ٢٥ ، ص ٧٧، ص٣٠٤ ، ٣٠٥جـ٥ ص ٦ ـ ٧ ، ص١٧).

لم تحدث أية أزمة نقدية خطيرة تسبب ارتفاعا مفاجئا فى الأسعار إذ كانت دور سك النقود تجد كفايتها من الذهب والفضة اللازمين لسك الدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، وكان الذهب يأتى أساسا من بلاد غانا والتكرور (مالى الحالية) ، التى كانت تربطها بمصر علاقات وطيدة فى ذلك الحين على المستوى الاقتصادى والدينى والثقافى . إذ كانت القوافل التجارية تتردد بين مصر ومناطق غرب أفريقيا بشتى المصنوعات المصرية مقابل الذهب وغيره من منتجات هذه البلاد . وقد تحدث ابن بطوطة فى رحلته عن توفر الذهب بهذه المناطق ، وعن كرم « منسى موسى » - سلطان مالى الذى زار مصر - كما تحدث عن رحلات التجار من أبناء هذه البلاد إلى مصر (١٠٤) . أما الفضة فكانت تصل إلى مصر بشكل أقل انتظامًا ، ولكنه كان كافيًا لسد حاجة البلاد وضمان استقرار النظام النقدى . وكانت ترد إما من أوربا أو من وسط آسيا . وبفضل توفر الفضة استطاع السلطان الظاهر بيبرس ، المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك ، أن يجعل نسبة الفضة فى الدرهم سبعين فى المائة من وزنه . وقد تمكن سلاطين البحرية من سك دراهم فضية ثابتة القيمة وصل متوسط وزنها إلى ٩٧ , ٢ جم(١٠٥) .

ولكن اختفاء العملات الفضية منذ أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كان إيذانا بالخراب الاقتصادى والتدهور السياسى الذى أودى بدولة المماليك فى نهاية الأمر، فقد تناقص رصيد البلاد من الفضة بالتدريج ، ومن ثم قلت نسبة الفضة فى الدرهم مما أدى إلى انخفاض سعره فبعد أن كان ١/ ٢٠ من الدينار فى بداية العصر ، وصل إلى ١/ ٢٥ ثم إلى ١/ ٣٠ من الدينار فى فترة لاحقه . وكان السبب فى ذلك راجعًا إلى ازدياد الطلب فى الجمهوريات الإيطالية التجارية على الفضة ، مما أدى إلى شرائها وسحبها من أسواق الشرق وهو ما أشار إليه المقريزى بقوله إن النصارى كانوا يصدرون الفضة من بلاد الشرق إلى أوربا . وعلى أية حال فقد توقفت الدولة عن سك الدراهم الفضية مع مطلع شمس القرن الخامس عشر ، وقد استعاض المماليك عنها بالنحاس الذى كان إنتاجه قد زاد فى أوربا ، ولاسيما ، فى البلاد الواطئة والمجر والبوسنة والهرسك(١٠٦) .

وحين كان رصيد الدولة من الذهب والفضة كبيرا ، كان النظام السعرى يستند على قاعدة ذهبية وفضية ضمنت للأسواق حالة من الاستقرار والرواج . ولكن ظهور الفلوس النحاسية منذ وقت مبكر، ثم حلولها محل النقود الذهبية والفضية كأساس للسعر فى مرحلة لاحقة ، كانا علامة على مدى تدهور الأحوال الاقتصادية . ويقدم لنا المقريزى تقريرًا مطولا عن بداية تدهور النظام النقدى . واستمرار هذا التدهور فى الشطر الثانى من هذا العصر . ويتضح من كلام مؤرخنا أن الفلوس النحاسية ضربت سنة ٧٥٩ هـ على أساس أن تكون قيمة كل فلس ١/ ٢٤ من الدرهم الفضة الذى كانت قيمته آنذاك ١/ ٢٠ من الدينار الذهبى ، ثم وصل سعر الدرهم نتيجة لانخفاض كمية الفضة به إلى $\frac{١}{٢٥}$ من الدينار . ويذكر المقريزى أن الدراهم فى عصر برقوق كانت تسبك ثلثها نحاس

---

(١٠٤) ابن بطوط ، الرحلة ، ص ٦٧٢ - ٦٧٣ .

(١٠٥) Ashtor, A social and economic hist., pp. 291 - 93.

(١٠٦) Ibid pp. 305 , f.

وثلثاها فضة وفى ذلك الحين كانت الفلوس قاصرة على شراء البضائع التى لاتصل فى قيمتها إلى الدرهم. ومنذ أواخر القرن الرابع عشر أكثر الظاهر برقوق من سك الفلوس النحاسية . وكادت الدراهم الفضية أن تختفى من السوق . ثم أصبحت الفلوس هى القاعدة السعرية (١٠٧).

وعلى الرغم مما تحمله المصادر التاريخية من المؤشرات الدالة على تدهور النظام النقدى والتدهور الاقتصادى بصفة عامة ، وكساد التجارة الداخلية والأسواق بصفة خاصة ، فإن الأمر لم يقتصر على حلول الفلوس النحاسية محل الذهب والفضة كقاعدة لنظام الأسعار ، بل إن محاولات تزييف هذه الفلوس اتخذت شكلا دائما . واتخذ تزييف العملة مظهرين أساسيين هما : إنقاص وزنها ، وخلط الفلوس النحاسية بمعادن أخرى أقل قيمة ، خاصة حين أصبح التعامل بالفلوس على أساس الوزن وليس العدد . وكان لعمليات التزييف هذه أسوأ الأثر على حركة الأسواق ، إذ كان الناس يمتنعون عن التعامل بها . ومن ثم تصاب الحركة التجارية الداخلية بالكساد ، كما ترتفع الأسعار فى موجة تضخم جنونية تصل إلى حد أن تغلق الحوانيت وتتعطل الأسواق .

ولابأس من أن نورد بعض الأمثلة الدالة على ذلك ، ففى سنة ٧٢٠ هـ ، تعرض السوق الداخلى لهزة مؤقتة بسبب الزغل (أى التزييف) فى الفلوس . وعلى الرغم من تسعير الحكومة للفلوس على أساس الوزن تارة ، وضرب وتشهير عدد من الباعة لإجبارهم على التعامل بهذه الفلوس تارة ثانية ، ثم الأمر بعدم تداول الفلوس مالم تكن عليها علامة دار سك النقود تارة ثالثة ، فإن الأسعار ظلت ترتفع حتى عاد السلطان الناصر محمد بن قلاون من سفره ، وأمر بسك فلوس جديدة بسعر جديد ، كما تحدد سعر الفلوس القديمة على أساس الوزن فانفرجت الأزمة (١٠٨).

كذلك حدث فى سنة ٧٢٥ هـ أن كثر غش الفلوس « . . . **فتوقف الناس عن أخذ الفلوس . وكثر ردها وعقوبة الباعة على ذلك بالضرب والتجريس إلى أن فسد الحال ، وغلقت الحوانيت وارتفعت الأسعار** . . » وتكررت مثل هذه الأزمة فى سنة ٧٤٥ هـ وفى سنة ٧٤٩ هـ (١٠٩).

وكانت الدولة تلجأ فى بعض الأحيان إلى إصدار عملات جديدة بأسعار جديدة لمواجهة التزييف وما ينتج عنه من آثار سلبية على الأسواق الداخلية . بيد أن حرص السلاطين على تحقيق المكاسب من سك النقود الجديدة بأسعار تفوق قيمتها الشرائية من ناحية ، وعدم وجود سياسة ثابتة فى هذا الصدد من ناحية ثانية ، فضلا عن تعود الناس على عدم ثبات سياسة الحكام من ناحية ثالثة ـ كل هذا كان يؤدى بالضرورة إلى ازدياد منحنى التدهور بمرور الزمن .

---

(١٠٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٩٤١ ـ ص ٩٤٤ .

(١٠٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٠٥ ـ ص ٢٠٦ .

(١٠٩) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص٢٥٣ ، ص٦٦٩ ، ص٧٧١؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٧٧ .

وفى عصر الجراكسة تفاقمت أزمة النقد فى مصر ، وأخذ الناس يخلطون الفلوس النحاسية ـ التى كان التعامل بها على أساس الوزن ـ بقطع الرصاص والحديد . ونتيجة لانهيار سلطة الدولة تمادى الناس فى ذلك حتى أن القُفَّة التى تزن مائة رطل « . . **لايكاد يوجد بها عشرون رطلا من الفلوس . .** » بل إن هذه الفلوس النحاسية كانت تهرب إلى الخارج حيث تباع بسعر أعلى ، كما كان الناس في الداخل يصهرونها ليصنعوا منها القدور والأوانى النحاسية التى كان سعر الرطل فيها أغلى من السعر الذى حددته الحكومة لرطل الفلوس (١١٠) .

والنتيجة التى نخرج بها من تحليلنا لهذه المعلومات هو أن الحكومة كانت تخفض من قيمة العملات المتداولة فى الأسواق رغبة فى تحقيق المكاسب للسلاطين من فروق السعر بين هذه العملات ، وبين العملات الجديدة التى يصدرونها ، ويؤكد ذلك ما تذكره مصادر تلك الفترة عن تسعير العملات المتداولة، أو إصدار عملات جديدة بأسعار تفوق أسعار جميع العملات المتداولة ، أو منع تداول العملات الأجنبية مثل الدينار الأفرنتى الذى حاز ثقة الناس وسيطر على سوق النقد فى مصر (١١١) .

وهكذا ، كان تدهور النظام النقدى فى مصر زمن الجراكسة ، عاملا حاسما فى تدهور الأسواق والتجارة الداخلية . فإن نضوب رصيد الدولة من الذهب والفضة أدى إلى تخفيض قيمة الدراهم الفضية بشكل مطرد ، ثم اختفائها من الأسواق المصرية تماما ، على حين سيطرت العملات الأجنبية الذهبية (الدينار الأفرنتى على السوق الداخلى ، ثم ظهور الفلوس النحاسية كقاعدة لنظام التسعير . وماحق بهذه الفلوس من غش وتزييف أو تهريب أو صهر لأغراض ذات ربح أكبر ـ نقول هذا كله انعكس على الأسواق بشكل سلبى فركبها الكساد ، وأغلق منها عدد كبير ، كما انكمش العدد الباقى إلى عدد هزيل من الحوانيت ، بل إن بعض البلاد ، لاسيما فى الصعيد ، عادت إلى نظام المقايضة البدائى(١١٢) .

---

(١١٠) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ص ٦٢٩ ـ ص ٦٣٠ ، ص ٦٣١ .

(١١١) يذكر المقريزى فى حوادث سنة ٨٢٦ هـ أن السلطان برسباى خفض قيمة الدينار الأفرنتى عشرة دراهم فخسر التجار كثيرًا (السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٣٨) ، كما يذكر ابن الصيرفى حوادث سنة ٨٧٣ مانصه : « نودى على الفلوس العتق المنقاة من الرصاص والحديد بأربعة وعشرين درهما الرطل على عادتهم ، وضربت فلوس جدد كل أربعة بدرهم ونصف ، والرطل بستة وثلاثين درهما . وهذا فيه ضياع أموال المسلمين ليحصل الشياطين أهل دار الضرب مقصودهم من جمع المال فإنهم يأخذون من الناس الفلوس بأربعة وعشرين ويخرجونها بستة وثلاثين فيخسرون المسلمين الثلث فى أموالهم . . . » (إنباء الهصر ، ص ١٣٣) ، وذكر ابن إياس (بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٠ ، ص ٢٩) . أن الأسواق تعطلت عدة أيام سنة ٩٠٧ هـ بسبب فلوس جدد سكها السلطان الغورى تخسر فى المعاملة الثلث ، كما كانت البضائع تباع بسعرين وفقًا للفلوس القديمة والفلوس الجديدة .
لمزيد من الأمثلة انظر المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، صفحات ٧١٠ـ٧١٢ ، ٨٠٥ ، ٨٥١ـ٨٥٣ ، ٩١٢ .

(١١٢) يذكر المقريزى (السلوك ، جـ ٣ ، ص ٧٠٥) مانصه « . . . وقد شمل الخراب إقليم مصر ، مدينته وأريافها ، لاسيما الوجه القبلى ، فمن شدة فقر أهله وسوء أحوالهم لايتبايعون إلا بالغلال لعدم الذهب والفضة بعد أن كانوا من الغنى والسعة فى الغاية . . . » .

وثمة عامل هام ارتبط بالأسواق من حيث تأثيره السلبى على الأسواق ، ونقصد به حالة الأمن الداخلى فى البلاد ، فمن المعروف أن التجارة وحركة الأسواق لا تزدهران وتروجان إلا فى ظل استقرار الأمن واستتبابه ، سواء على طول الطرق التجارية أو فى داخل البلاد . والعكس صحيح تمامًا . وتنسحب هذه المقولة على حركة الأسواق المصرية فى عصر المماليك كما تنسحب على غيرها فى العصور التاريخية الأخرى .

ذلك أن تدهور النظام السياسى تمثل فى فشل الدولة فى السيطرة على كافة شئون البلاد ، وانعكس هذ الفشل على حالة الأمن فى البلاد فى عصر الجراكسة على نحو خاص . بيد أن الواقع التاريخى يقتضى منا أن نقرر أن عصر المماليك البحرية ، قد شهد هو الآخر ، فترات من اضطراب الأمن لاسيما فى عهود السلاطين الضعاف ، أو حين يتنافس الأمراء على السلطة كما أوضحنا من قبل . ولكن التدهور الأمنى اتخذ صفة الدوام والثبات فى أواخر القرن الرابع عشر ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا بات هذا التدهور نغمة دالة فى حياة المصريين اليومية .

فإن حوادث سرقات الأسواق على أيدى عصابات كبيرة العدد من الفرسان والمشاة أصبحت مادة ثابتة فى حولية ابن أياس (١١٣) التى تؤرخ لأواخر عصر المماليك فيما يشبه اليوميات ، وكانت تلك العصابات تنهب البضائع من الأسواق وتقتل الخفراء دون أن تجد من يتعقبها .

كذلك فإن العربان ـ الذين سببوا كثيرا من المتاعب طوال عصر المماليك ـ كثيرًا ماتسببوا فى اضطراب الأحوال ، وانعدام الأمن فى سائر أنحاء البلاد . إذ تتحدث مصادر تاريخ هذا العصر عن كثير من هذه الحوادث فى عصر الجراكسة والتجاريد التى خرجت لردعهم دون أدنى فائدة (١١٤) . بل إن البدو كانوا يهاجمون المدن أحيانًا فى وضح النهار وينهبون الناس وقد يقتلون البعض ، أو يطلقون المساجين من السجن (١١٥) .

ومن مظاهر انهيار الأمن أيضا هروب السجناء ، كما حدث سنة ٩١٣ هـ ، واضطراب الأحوال فى البلاد ، أو حوادث العثور على قتلى دون التوصل إلى الجناة (١١٦) .

ومن نافلة القول أن نكرر أن هذه الحوادث والاضطرابات كانت تسبب نوعا من الكساد فى حركة الأسواق ، مما كان يساعد ، مع العوامل الأخرى ، على مزيد من التدهور . وهكذا نصل إلى صورة عامة للعوامل الاقتصادية والسياسية والأمنية والاجتماعية التى أثرت بشكل أو بآخر ، وبدرجة أو

(١١٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣٣٤ ، جـ ٤ ، ص ٢٠ ، ص ٢٥٩ ـ ص ٢٦٠ .

(١١٤) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر، صفحات ٩ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٧٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ صفحات ١٢ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٣ ، ٧١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٦٩ .

(١١٥) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ص ٤٤٣ ـ ص ٤٤٤ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق جـ ٣ ، ص ١٠٥ .

(١١٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ص ٣٣٥ ، ص ٢٠٠ .

بأخرى على حركة الأسواق الداخلية فى مصر زمن المماليك . بيد أن هناك من العوامل والظروف الطبيعية ما كان يساهم ، بدرجة تتزايد باطراد ، فى التأثير السلبى على حركة الأسواق والتجارة الداخلية . هذه العوامل الطبيعية تتداخل فى بعضها البعض ومنها نقص مياه الفيضان عن منسوبها العادى ، وما كان ينتج عن ذلك من مجاعة قد يتبعها الوباء ، ومنها تلك الأوبئة والطواعين التى حصدت بمنجلها الفتاك نسبة كبيرة من السكان . وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا الضمور الديموجرافى على الأسواق من حيث أعدادها التى تناقصت بدرجة كبيرة ، ومن حيث حركتها التى أصبحت اقرب إلى الكساد منها إلى الحركة التجارية . وإن نظرة على الإحصائية التى أمدنا بها كل من ابن دقماق (١١٧) (ت ٨٠٩ هـ) والمقريزى (ت ٨٤٥هـ) (١١٨) ، لأسواق القاهرة والفسطاط وماخرب منها لتؤكد ما ذهبنا إليه .

وأخيرًا ، فإننا لانستطيع أن نحصر العوامل المؤثرة فى حركة الأسواق فى إطار واحد بعينه ، سياسيًا كان أم اقتصاديا ، واجتماعيا كان أم طبيعيا ، فالواقع أن هذه العوامل كلها تداخلت وتشابكت فى حركتها بحيث يصعب تحديد دور كل منها ولكن أبرز مظاهر التدهور هو انخفاض السكان بشكل ملحوظ نتيجة لسلسلة الأوبئة والمجاعات المتتالية (١١٩) . ولعل قيمة المؤرخ تقى الدين المقريزى تتجسد من خلال ربطه للظاهرة الاقتصادية المتمثلة فى كساد الأسواق بفساد الجهاز الحاكم وظلم رجال الدولة ، فضلا عن الجهاز القضائى وإهمال وسائل الرى والزراعة وزلزلة القيم الاجتماعية وتدهور الأمن وتخلخل البناء الاجتماعى (١٢٠) . ولعل مؤرخنا كان يتنبأ بنهاية الدولة التى جاءت من القرن السادس عشر .

---

(١١٧) ابن دقماق الانتصار ، جـ٣ ص ٣٢ ، ص٣٣ .

(١١٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ص ٣٤١ ـ ص ٣٣٢ ، جـ٢ ص ٩٣ ـ ص ١٠٦ .

(١١٩) انظر دراستنا عن الأوبئة والأزمات الاقتصادية فى هذا الكتاب .

(١٢٠) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٦٧٨ .

الأقليات الدينية فى المجتمع المصرى

طوائف النصارى واليهود (المسيحيـون : الملكانية واليعاقبة ـ اليهـود : الربانون ، والقراءون ، والسامرة) ــ طبيعة العلاقة بين سلاطين المماليك والأقليـات الدينية ـ نفوذ أهل الذمة فى الجهازين الإدارى والمالى للدولة ـ دور اليهود والنصارى فى الحياة الاجتماعية ــ التأثيرات المسيحيـة واليهودية فى عـادات وتقاليـد المصريين ـ مـوقف المجتمع مـن أبناء الأقليـات الدينيـة (الأعياد) ــ دور اليهود والمسيحيين فى الحيـاة الثقافية .

لم يكـن هناك مـن الأقليـات الـدينية فى مصر زمـن المماليـك سـوى المسيحيين واليهود . بيـد أن المسيحيين كانوا ينقسمون ـ آنذاك ـ إلى فرقتين أساسيتين هما : الملكانية (أو الملكية) [1]، واليعاقبة أما اليهـود ، فكانـت ، طوائفهم ثـلاثا هى : الـربانـون (أو الربانيـون أو الربيـون) ، والقراءون . والسامرة . ومـن الطبيعى أن يكون سبب تعدد الطـوائف فى أية ديانة راجعا إلى الخلافـات والمنازعات التى تنشب بين أتباعها حول تفسير أمـور معينة ، وهو مايصـدق ـ بالضرورة ــ على كل من الديـانة اليهودية والديانة المسيحية .

وفيما يتعلق بالمسيحيين ، فإن انقسامهم إلى طائفتين فى مصر زمـن المماليك ، إنما هو امتداد لذلك النـزاع الذى كـان قد انـدلع فى أنحـاء العـالم المسيحى حـول طبيعة السيـد المسيح ، لاسيما بعـد أن ـ

(١) تستخدم المصادر العربية كلا اللفظين ، ولكن لفظ « ملكية » هـو الأكثر شيوعا فيها . وذكر القلقشندى أن أبناء هذه الطائفة ينسبون إلى « ملكان » الذى ظهر ببلاد الروم « وقيـل مركان أحد قياصرة الروم » ، كما ذكر أنهم يدينون بطاعة « الباب» الذى هو بطرك رومية (صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٦) . والواضح أن القلقشندى اقترب من حقيقة اشتقاق الاسـم ، ولكنه جانب الصواب حين ذكر أنهم يـدينون بالولاء للبابا فى رومـا . إذ إنه من المعروف أن كنيسة القسطنطينية كانت خاضعة لسلطة الإمبراطور البيـزنطى ، كما بدأت العلاقة تتدهور بين بيزنطة وروما بشكل مطرد منذ بدأ نجم البابوية فى البزوغ نتيجة للفراغ السياسى الناجم عن سقوط السلطة الإمبراطورية فى الغرب ـ انظر :

Norman F. Contor, Med Hist., (2nd. ed Macmillan, New York 1969) pp. 171 - 79.

انحسرت موجة الاضطهادات التى شنها أباطرة الرومـان ضد المسيحية وأتباعها ، وبعد مرسوم ميلانو الشهير الـذى أصدره الامبراطـور قنسطنطين الأول وشريكـه ليكينيوس فى سنـة ٣١٣ بإبـاحـة حريـة العقيدة للمسيحيين . فمنذ ذلك الوقت المبكر بدأ الصراع حول طبيعة المسيح عليه السلام ، وهل هو إله أم بشر ؟ وكان مجمع نقية سنة ٣٢٥ م هو أول المجامع المسكونية (العالمية) المسيحية التى تتصدى لمناقشة هذا الموضـوع . ومنذ ذلك الحين تفرق المسيحيون حول طبيعة المسيح ولم يجتمعـوا بعدها قط . وفى سنة ٤٥١م دعا الامبراطور البيزنطى « مـر قيانوس » (مركيان Mericianus ٤٥٠ ـ ٤٥٧ م) إلى ذلك المجمع الـدينى الذى عقد فى خلقدونية لمنـاقشة المذهب الذى قال بـه ديوسقورس Dioscorus ثامـن بطاركة الاسكندريـة ، وهو المذهب الذى يتلخـص فى أن للمسيح طبيعة واحدة هـى الطبيعة الإلهية . وقد حاول ذلك المجمع تبنى وجهة نظـر الإمبراطور البيزنطى فى المصالحة بين مختلف المذاهب المسيحية ، وتمثلث تلـك المحاولة فى تخريج مذهب عـام وشامل كحل وسط ينهى النـزاع حول طبيعة المسيح . ومن ناحية أخـرى قرر مجمع خلقدونية عزل ديوسقورس وتكفيره ونفيـه . وكانت النتيجة أن التف الأقباط حـول بطريركهم ، ووجـدت فى مصر وسوريا حركة مقـاومة قوية ضـد المذهب الجديد الذى تبنته الدولة . ونشأ عـن ذلك أن تباعد الشرق المونوفيزيتى عن الغرب الكاثـوليكى من ناحية . وبدأت حركة اضطهاد عنيفة من جانب الإمبراطورية البيزنطية ضد الأقباط من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة من ناحية أخرى .

ولكن بعـض المصريين اعتنقوا المذهـب الملكانى (الـذى نادى به الإمبراطـور مركيـانوس) كما أن العائلات البيـزنطية والموظفين البيـزنطيين الذيـن استقروا بمصر كـانوا ــ بطبيعة الحال ــ يدينـون بهذا المذهب . ومن هؤلاء وأولئك تكونت الطائفة الملكانية (الروم الأرثـوذكس) فى مصر . ويستفـاد من النصوص التـى أوردها المؤرخون المصريـون أن طائفـة النصارى الملكية فى عصر المماليـك لم تكن كبيرة العدد ، كما أنهم فى غالبيتهم لم يكونوا من أصول مصرية (٢) .

وكان لأبناء هذه الطائفـة بطريرك خاص بهم ، وقد حددت الوثائق سلطـات هذا البطريرك الذى كان عليه تنظيـم العلاقة بين الطائفة من جهـة ، والدولة من جهة أخرى . كما كـان له حق الإشراف على الكنائس والأديـرة الملكانية بمصر ، فضـلا عن تعيين رجال الاكليروس التـابعين له (٣). بيد أن وثائق ديرسانت كاترين تكشف أن هذا البطريرك لم تكن له أية سلطة على دير سانت كاترين ورهبانه . على الرغم من أنه دير ملكانى (٤) . بل إن هذه الوثائق تكشـف عن أن مقدم ديـز سانت كاترين كان يحمل لقب بطريرك فى بعض الأحيان(٥).

---

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٣٩٢ ، تاريخ ابن الوردى ؛ جـ ١ ص ٢٨٩ . .

(٣) ابن فضل الله العمـرى ، التعريف بالمصطلـح الشريف ، ص ١٤٤ ـ ص ١٤٥ ؛ القلقشندى ، صبـح الأعشى . جـ ١١ ص ٣٩٢ ـ ص ٣٩٣ .

(٤) مجموعة وثائق سانت كاترين . مرسوم رقم ٨٣ (قنصو الغورى) .

(٥) س . ك ، مرسوم ٥٥ (خشقدم) .

والحقيقة أن المصادر العربية لم تذكر البطريرك الملكانى إلا قليلا ، ويبدو أن ذلك كان راجعا إلى قلة عدد أتباعه مما جعل دوره فى أحداث تلك الفترة ضئيلا . وفى سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠م) توجه بطريرك الملكية فى سفارة إلى الإمبراطورية البيزنطية بناء على طلب من الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن[٦] . ولم تتحدث هذه المصادر عن بطريرك الملكانية مرة أخرى سوى فى سنة ٨٤٦ هـ حين كان البطريرك الملكانى فيلوتاوس ضمن زعماء الأقليات الدينية الذين حضروا اجتماعا برئاسة السلطان الظاهر جقمق لمناقشة بعض الأمور المتعلقة بطوائفهم[٧] .

وكان لأبناء هذه الطائفة عدد قليل من الكنائس فى أنحاء البلاد ، منها « كنيسة مارنقولا » بخط البندقانيين ، « وكنيسة غبريال الملاك » بالفسطاط . وكان مسكن البطريرك الملكانى يقع على مقربة من هذه الكنيسة . وفى الفسطاط أيضًا كانت لهم كنيسة تسمى « بكنيسة السيدة » وكنيسة أخرى هى « كنيسة ماريوحنا »[٨] . كذلك كانت الأديرة التابعة لأبناء هذه الطائفة قليلة هى الأخرى ، وهو مايبدو منطقيا فى ضوء الحقيقة القائلة بأن أعدادهم كانت ضئيلة بالفعل[٩] .

أما اليعاقبة ، فهم الأقباط اتباع مذهب الطبيعة الواحدة Monophysite وهم ينسبون إلى يعقوب البراذعى أحد زعمائهم . وقد ذكرت المصادر التاريخية أن هذا الإسم نسبة إلى البطريرك ديسقورس نفسه لأن اسمه كان قبل تولى البطريركية « يعقوب » ، كما ذكرت هذه المصادر أنه يحتمل أن يكون الاسم نسبة إلى أحد تلاميذ ديسقورس واسمه « يعقوب »[١٠] . على أية حال : فقد كان اليعاقبة (الأقباط الارثوذكس) ـ ولايزالون ـ يمثلون غالبية المسيحيين فى مصر .

وكان لهذه الطائفة بطريرك هو المسئول عن تنظيم الشئون الداخلية لجماعته ، وتحديد العلاقة بين أبناء هذه الطائفة والدولة . وقد تركت للجماعة القبطية حرية انتخاب البطريرك. ولم تكن الدولة تتدخل فى هذا الخصوص إلا بدافع من الرغبة فى الحصول على المال، أو بسبب شكاوى المنافسين[١١].

وقد أحصى المقريزى فى خططه مايزيد على اثنتين وثمانين كنيسة لليعاقبة فى الوجه القبلى بعضها مستحدث بخلاف الكنائس التى تهدمت لأسباب مختلفة[١٢] . ونستطيع من خلال التركيز الشديد

---

(٦) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ ٧ ، ص ١٧٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٧١ ـ ص ٤٧٢ .

(٧) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٩ .

(٨) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥١٨ .

(٩) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥١٠ .

(١٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص ٢٧١ ؛ الخالدى ، المقصد الرفيع ، (مخطوط) ، ق ١٣٩ . المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٤٨٨ .

(١١) لمزيد من التفاصيل انظر قاسم عبده قاسم، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، (دار المعارف ، ١٩٧٩ ط. ثانية ، ص ١٠٦ يتبع .

(١٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص٥١٦ ـ ص ٥١٨ .

لكنائس الأقباط فى الوجه القبلى أن نستتج أن غالبية الأقباط كانوا من سكان الصعيد . ونستدل على صحة هذا الفرض بما جاء فى بعض المصادر التاريخية من أن غالبية سكان بعض قرى الصعيد مثل أبنوب من النصارى (١٣) . كذلك ذكر المقريزى أن « طنبدى » كانت تسكنها غالبية مسيحية ، وأن «درنكه » بالقرب من أسيوط كانت قرية قبطية وأن أهلها يتحدثون اللغة القبطية ، كما ذكر أن المسيحيين من رعاة الأغنام كانوا يشكلون أغلبية سكان « بومقروفة » بالقرب من أسيوط أيضًا (١٤) . وكان لليعاقبة - كما ذكر المقريزى - تسع عشرة كنيسة فى القاهرة والفسطاط ، أما كنائس الوجه البحرى فقد ذكر منها خمس عشرة كنيسة ، على حين ذكر من كنائس الإسكندرية أربعا فقط (١٥) .

ومن المنطقى أن الأعداد التى أوردها المقريزى ليست سوى صورة تقريبية . كما يجدر بنا أن نشير إلى أن هذا العدد لم يظل ثابتا طوال عصر سلاطين المماليك بسبب هدم بعض الكنائس أوبناء كنائس أخرى جديدة .

أما الأديرة ، فقد أحصى المقريزى منها ستة وثمانين ديرا ، كان من بينها عدد قليل للسوريان والأحباش اليعاقبة (١٦) .

وعرف تاريخ اليهود الطويل انقسامهم إلى عدة فرق دينية تزعم كل منها أنها صاحبة المذهب الأمثل والأقرب إلى أصول الديانة اليهودية . وتركز الخلاف بين تلك الفرق حول الاعتراف بأسفار التوراة والتلمود أو إنكار بعض هذه الأصول . وكانت الفرق اليهودية الثلاث بمصر زمن المماليك هى : **الربانون ، والقراءون ، والسامرة** .

أما الربانون (الربيون . الربانيون) ، فقد كانوا يمثلون غالبية يهود مصر آنذاك ، وهذه التسمية تحريف للكلمة العبرية « ربانيم » التى تعنى الإمام أو الحَبر أو الفقيه . وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . . الآية » (١٧) ويعود سبب هذه التسمية إلى أن « الربانيين » أخذوا بتفسيرات أحبار اليهود وعلمائهم التى تضمنها التلمود(١٨)

---

(١٣) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ ٩ ، ص ٤٦٩ .

(١٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥١٧ - ص ٥١٨ .

(١٥) المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٥١٠ - ٥١٨ .

(١٦) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٠٠ - ص ٥١٠ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ، ص ١٣١ - ص ١٣٦ . حيث توجد تفصيلات عن الأديرة ومبانيها ونظمها .

(١٧) سورة المائدة : آية ٤٣ .

(١٨) التلمود كلمة مشتقة من مصدر عبرى هو « لمدّ» التى اشتقت منها كلمة « تلميد » العبرية التى تعنى « تلميذ » فى اللغة العربية . وذلك لأن التلمود يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة . وهو جزءان : « المشناه » و « الجمارا » ، الذى هو شروح « المشناه » . ويضم التلمود بحوث أحبار اليهود التى كتبوها على مر السنين ، وهو يتألف من ثلاثة وستين سفرا . وهناك تلمودان : أورشليمى ، وبابلى ، والتلمود الأورشليمى أقدم من البابلى ، وكان يضم أربعة أسفار فقط من المشناه ، ثم اكتشف السفر الخامس أخيرا وأضيف إليه ، كذلك فإن الجمارا فيه ناقصة فى مواضع كثيرة =

والمشناه (١٩) . وقد ذكرت المصادر العربية أن الربانيين فى مصر زمن المماليك تميزوا عن غيرهم من الفرق اليهودية بشروح لغوامض التوراة كتبها أحبارهم ، كما أنهم انفردوا بتلك التفريعات المنسوبة إلى النبى موسى عليه السلام . كذلك ذكرت هذه المصادر أنهم أباحوا تأويل نصوص التوراة ، ولم يكونوا يعتقدون بسابق القدر (٢٠) .

وقد ذكر ابن الوردى أنهم يشبهون المعتزلة فى الإسلام ، والحقيقة أنه قد جانبه الصواب فى هذا التشبيه لأسباب كثيرة لانرى مجالا لذكرها ، بيد أننا نعتقد أن السبب فى هذا التشبيه بين الربانيين والمعتزلة هو أن هذا المؤرخ قد خلط بين الربانيين والفريسيين الذين كانوا يشكلون ما يشبه الجمعية من كبار أحبار اليهود وفقهائهم . وكلمة « الفريسيون » (تنطق فروشيم فى اللغة العبرية) تعنى المفروزين أوس المعزولين ، والسبب فى هذه التسمية أن أعضاء هذه الجماعة كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر معرفة من أى إنسان آخر بالشريعة اليهودية كما جاءت فى النصوص المقدسة . وثمة اسم آخر كان أعضاء هذه الجماعة يطلقونه على أنفسهم ، وهو اسم « حسيديم » أى الأتقياء ، كما كانوا يسمون أنفسهم «حبرييم » بمعنى الرفاق والزملاء . كذلك فإن الفريسيين أطلقوا على جمهور اليهود اسم « عوام الأرض » نظرًا لأن الأفراد العاديين من اليهود كانوا يجهلون أصول الدين ، ومن ثم فإنهم كانوا بحاجة إلى القيادة والتوجيه من جانب « الفريسيين » . والجدير بالذكر أن أحد الباحثين قد خلط بين جماعة الصفوة هذه من أحبار اليهود ، وبين عامة اليهود من أبناء الفرقة المعروفة بالربانين أو « الربيين » . وذلك على اعتبار أنهم فرقة واحدة من الفرق اليهودية التى عرفها تاريخ اليهودالطويل (٢١) .

أما الفرقة الثانية ، من فرق اليهود فى مصر آنذاك ، فهى طائفة « القرائين » الذين اشتق اسمهم من الكلمة العبرية التى تعنى « قرأ» . وذلك لأنهم لايؤمنون بغير التوراة المكتوبة التى يمكنهم قراءتها . ومن ثم فإنهم لم يكونوا يعترفون بما جاء فى التلمود أو فى غيره من الكتب التى اعترف بها الربانون (٢٢) .

=انظر حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى (معهد الدراسات العربية ١٩٧١) ، ص ٩٥ ، ص ١٠٨ ؛ مراد فرج ، القراءون والربانون (القاهرة ١٩١٨) ، ص ٣٦ ـ ص ٤١ .

(١٩) المشناه ، كتاب عبرى بمثابة التفسير للتوراة ، ويعتقد الربانون أنه سنة عن موسى أوحى بها الله إليه أثناء الأيام الأربعين التى قضاها فى طور سيناء ، وأمره ألا يكتبها وأن يبلغها شفويا . ولذا فإنها تعرف باسم « التوراة الشفوية» . والمشناه تعنى « الثانى » ، أى الكتاب بعد التوراة وظلت المشناه تتداول شفويا حتى عصر « يهودا الناسى » الذى جمعها ودونها خوفا من النسيان أو التحريف وهى ستة أسفار .

(٢٠) الخالدى ، المقصد الرفيع ، ق ١٤٠ ـ ق ١٤١ ؛ تاريخ ابن الوردى ، ص ٧٥ .

(٢١) على عبد الواحد وافى ، اليهودية واليهود (١٩٧٠) ص ٨٤ ـ ص ٨١ . وعن الفريسيين انظر حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢١٢ ـ ص ٢١٦ ؛ إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام (القاهرة ١٩٤١) ص ٢٠ ـ ص ٢١ .

(٢٢) مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص ٣٦ ـ ص ٤١ ؛ الخالدى ، المقصد الرفيع ، ق ١١٠ ؛ القلقشندى . صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٢١٧ ؛ رحلة بنيامين التطيلى (ترجمة عزرا حداد بغداد ١١٨١ هـ) ص ١٩٢ .

ويرجع بعض الباحثين أصل هذه الفرقة إلى « عنان بن داود » (ت ٨٠٠ م) الذى دعا إلى مذهب جديد بسبب الخلاف الذى نشب بينه وبين أخيه الأصغر « حنانيا » حول تولى منصب رأس الجالوت (أى رئيس الطائفة اليهودية فى العالم الإسلامى) . ويرى هؤلاء الباحثون أن بعض علماء اليهود، الذين تأثروا بالمعتزلة والمتكلمين المسلمين ، كانوا فى ذلك الوقت قد أخذوا ينقدون تعاليم الربانيين . ويخرجون على أحكام التلمود . وتزعم هذه الحركة الجديدة ثلاثة من علماء اليهود ، ووجد هؤلاء فى «عنان » ضالتهم المنشودة ، نظرًا للمكانة والنفوذ اللذين كان يتمتع بهما فنصبوه زعيمًا لحركتهم الانشقاقية . وقامت قيامة الربانيين فأسرعوا بالشكوى إلى الخليفة العباسى « أبى جعفر المنصور » الذى أمر بحبس « عنان » . ويروى أحد مؤرخى اليهود أن « عنان بن داود » التقى فى سجنه بالإمام «أبى حنيفة النعمان » الذى أشار عليه أن يدعى أنه صاحب دين جديد وليس ثائرًا على رأس الجالوت . وقيل إن أتباع « عنان » بذلوا أموالاً جمة وجهودًا كبيرة حتى أطلق سراحه بشرط أن يرحل إلى فلسطين، وانتقل عنان ورفاقه إلى فلسطين حيث شيدوا لأنفسهم معبدًا ، وألف « عنان» كتابين ضمنهما أسس المذهب الجديد (٢٣) . إلا أن الدكتور حسن ظاظا يرفض رواية السجن ويقرر أنها رواية مختلقة من أساسها ، وينفى ما زعمه علماء الربانيين من تأثر القرائين بالشيعة ، وفى رأيه أن « عنان بن داود » كان تلميذًا للمعتزلة الذين وقفوا موقف الحذر من الروايات الشفوية فى الإسلام ، وتحرجوا من اعتبار الحديث النبوى مصدرًا أساسيًا من مصادر التشريع الإسلامى ، وذلك هو جوهر رفض عنان للتلمود ، وليس حقده على الربانيين بسبب الصراع على منصب رئيس الجالوت (٢٤) .

وثمة مؤرخ من اليهود القرائين يعود بنشأة هذه الفرقة إلى عصر قديم سابق على العصر الذى عاش فيه « عنان » ويرى أن جذور القرائين ، كفرقة دينية يهودية ، تعود إلى أعماق التاريخ اليهودى . حقيقة أن «عنان» لعب دورًا هامًا فى تاريخ هذه الفرقة ، كما أنه أعاد القرائين إلى التقويم القمرى ، مما زاد من اتساع الفجوة بين القرائين والربانين ، ولكن ذلك الانقسام لم يكن هو أول أدوار الانقسام التاريخى بين الطائفتين ، ولكنه جاء مكملاً للانقسام الذى حدث منذ عصور موغلة فى القدم (٢٥) . ومما يؤكد كلام هذا المؤرخ أن المقريزى الذى كان صاحب دراية واسعة بهذا الأمور ذكر أن « العنانية » (نسبة إلى عانان بن داود) فرقة أخرى غير القرائين الذين أرجع تاريخ نشأتهم إلى فترة سابقة فى تاريخ اليهود(٢٦) . وتتفق دائرة المعارف اليهودية مع المقريزى فى هذا(٢٧) .

---

(٢٣) عزرا حداد ، رحلة بنيامين التطيلى ، ص ١٩٢ ؛ على عبد الواحد وافى ؛ اليهودية ص ٩١ ـ ص ٥١ ، انظر أيضًا:
U.J.E., Art. Karaites

(٢٤) حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٩٥ ـ ص ١٠٦ .

(٢٥) مراد فرج ، القراءوه والربانون ، ص ٤١ .

(٢٦) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص ٤٧٢ ـ ص ٤٧٦ .

(٢٧) U.J.E., Art. Karaites

وعلى أية حال ، فإن مؤرخى عصر سلاطين المماليك اعتبروا أن كلا من الربانيين والقرائين بمثابة الفرقة اليهودية الواحدة ، على الرغم من تفهمهم لحقيقة الخلافات بين الجانبين .

أما « السامرة » فقد كانوا أقلية صغيرة العدد فى مصر أيام سلاطين المماليك كما يتضح من الوثائق [٢٨]. وعلى الرغم من أن الباحثين اليهود(قراءون وربانون) لايعتبرون السامرة فرقة يهودية فالواضح أن الدولة آنذاك قد عاملتهم على أساس أنهم فرقة يهودية تنطبق عليهم شروط أهل الذمة [٢٩] .

ويرجع تاريخ هذه الفرقة إلى الفترة التى أعقبت تدمير مملكة إسرائيل التى انشقت على مملكة سليمان بعد وفاته . وقد تم تدمير هذه المملكة على يد الملك الآشورى « تغلث فلا سر » فى سنة ٧٣٨ ق . م. وقد أجلى اليهود عن فلسطين وأسكنهم فى منطقة شمال إيران الحالية . وجلب بعض القبائل لتسكن فى مدينة السامرة القديمة بدلاً من اليهود . ويعتمد أصحاب هذا الرأى فى نشأة السامرة على نص الكتاب المقدس الذى يحكى هذه الحادثة [٣٠] وهم بهذا يصمون السامرة بأنهم حثالة من الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود .

ويذهب البعض إلى أن نشأة السامرة ترجع إلى أيام السبى البابلى سنة ٥٨٦ ق.م لأنهم بنوا هيكلهم المقدس فوق جبل جرزيم القريب من مدينة نابلس فى هذا التاريخ [٣١] . ويتهم اليهود أبناء هذه الطائفة بأنهم تعاونوا مع الرومان ضد اليهود أثناء ثورتهم ضد الحكم الرومانى ، وأن المكافأة التى منحها الرومان للسامرة لقاء هذا هى إعادة بناء مدينة السامرة القديمة (شيكيم) وأطلق عليها اسم «فلافيا نيابوليس Flavia Neapolis » التى عرفت باسم نابلس فيما بعد [٣٢] .

إلا أن التطورات التى أعقبت انتصار المسيحية بحيث صارت هى الديانة الرسمية لأباطرة الرومان، سببت الكثير من المتاعب والاضطهادات التى شملت اليهود والسامرة . ومن ثم تقارب الطرفان ، واعتبر اليهود أن السامرة فرقة يهودية ذات صبغة خاصة ، وأضيف إلى التلمود فصل خاص بالسامرة هو سفر « الكوتيين » الذى ينظم العلاقات بين السامرة واليهود من أبناء الطوائف الأخرى .

ولايعترف السامرة سوى بأسفار موسى الخمسة مما جعل بعض المصادر العربية تقول بأن لهم توراة خاصة غير القرائين والربانين . كذلك أنكر السامرة نبوة من أتى بعد « موسى » فيما عدا « يوشع » «وهارون» . أما قبلتهم فهى جبل الجزريم قرب نابلس ، وهم يقدمون أضاحيهم على هذا الجبل الذى

---

(٢٨) ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ١٤٤ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ١٩١ .

(٢٩) المصدر نفسه . (٣٠) الملوك الثانى : ١٧

(٣١) مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص ١٣ ـ ص ١٨ ؛ حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٤٧ ـ ص٢٤٨ .

(٣٢) عزرا حداد ، رحلة بنيامين ، ص ١٨٥ ـ ص ١٩٠ .

يزعمون أن الله كلم موسى عليه ، ولهم لهجة عبرية خاصة ، ولغة خطية متمايزة يزعمون أنها العبرية الصحيحة كما وصلتهم من عهد موسى عليه السلام (٣٣) .

أما زعيم الطائفة اليهودية فى مصر ، فقد عرفته المصادر والوثائق التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك باسم « رئيس اليهود » ، كما أطقت عليه أحيانًا اسم « الربيس » . أما الاسم العبرى فهو «الناجد » ، ومعناها الزعيم أو الأمير . وبينما يرى بعض الباحثين أن وظيفة الناجد أو رئيس اليهود فى مصر كانت من نتائج الفتح الفاطمى الذى ترتب عليه استقلال مصر عن الخلافة العباسية ، وبالتالى عدم تبعية يهود مصر لرأس الجالوت فى عاصمة الخلافة (٣٤) ، يرى البعض الآخر أن هذه الوظيفة قد أنشئت فى مصر فى فترة لاحقة (٣٥) .

وعلى أية حال ، فقد تمتع رئيس اليهود بسلطات واسعة على أبناء الطائفة اليهودية ، كما كان له حق الإشراف على شئون الطوائف الثلاث فى بداية ذلك العصر . كذلك كان عليه تنظيم علاقة اليهود بالدولة . كما كان من حقه تنظيم شئونهم الدينية واختيار واحد من كل فرقة يهودية لتنظيم شئون الفرقة(٣٦) ويبدو أنه قد أصبح لكل من السامرة والقرائين رئيس مستقل فى فترة متأخرة من عصر سلاطين المماليك (٣٧) .

وقد أحصى المقريزى أحد عشر معبدًا يهوديًا فى القاهرة والفسطاط والأقاليم (٣٨) . ويبدو من بعض وثائق الجينيزا التى نشرها « Mann » أن أعمال صيانة وإصلاح المعابد اليهودية كانت تتم عن طريق الهبات والتبرعات التى يدفعها بعض أثرياء الطائفة اليهودية (٣٩) . وتكشف أعداد المعابد اليهودية الضئيلة عن أن يهود مصر آنذاك كانوا أقلية ضئيلة بالفعل .

هذه هى طوائف الأقليات الدينية التى عرفها المجتمع المصرى زمن المماليك ، ويبقى علينا أن نناقش موقف سلاطين المماليك من هذه الأقليات ، ومحاولة تفسير هذا الموقف فى ضوء النظرية

---

(٣٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص ٢٦٨ ـ ص ٢٦٩ ؛ ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، جـ١ . ص ٩٠ ـ ص ٩٢ ؛ عزرا حداد ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ ـ ص ١٩٠ ، حسن ظاظا ، المرجع السابق . ص٢٤٩ .

(٣٤) Mann, (J.), The Jaws in Egypt and Plalestine under the Fatimid Caliphs (Oxford 1920), I, pp. 251 - 252.

(٣٥) Bosworth (C.E.) "Christian and Jewish digntaries in Mamluk Egypt" (J.M.E.S., Jan. 1972) II, pp. 210 -211.

(٣٦) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ، ص ٢١٦ ـ ص ٢١٧ ؛ ابن فضل الله العمرى . التعريف ، ص ١٤٢ ـ ص ١٤٣ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ؛ جـ١ ، ص ١٨٨ ـ ص ١٠٠ .

(٣٧) انظر مناقشة هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابنا ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ١١٥ ـ ص ١١٧ .

(٣٨) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص ٤٦٣ . (٣٩) lMann, op. cit., I, p. 247.

السياسية التى قام عليها حكم أولئك السلاطين من جهة ، والمفاهيم السياسية التى كانت تحركهم من جهة ثانية . وهو مـا يسهل علينا دراسة دور أبناء هذه الأقليات فى الحياة الاجتماعيـة ومدى تفاعلهم مع المجتمع الذى ينتمون إليه .

فعلى الرغم من أن النظرية السياسية للدولة الإسلامية ظلت تمثل الإطار العام لكل من الدول التى قامت فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، فإن طبيعة نظام الحكم فى دولة سلاطين المماليك جعلت لهذه الدولة خصـائص ميزتها كظاهر متفردة (٤٠) . فلم تكن النظريـة السياسية لهذه الدولة قـائمة على مبدأ الوراثة فى الحكم ، أو التفـويض الشعبى أو الانتخاب بل قـامت على أساس التنافس بين الأمراء على السلطنـة . ومن ثم اتخذت العلاقة بين سلاطين المماليك ورعايـاهم من أهل الذمة طابعًا خاصا . وفى هذا المجال حرص السلاطين على تقرير التزامهم العدالة تجاه أبناء الأقليات الدينية ــ عملاً بتعاليم الـدين الإسلامى ــ من ناحية ، كما أنهم مـارسوا عليهم ضغوطـًا شتى إرضاء لأهل العامـة الذين اعتمـد عليهم السلاطين كثيرًا نظرًا لنفـوذهم الواسـع من ناحيـة أخرى ، كما أن الثروات التى اقتناها بعـض اليهود والنصارى - نتيجة عملهم فى الجهاز الإدارى - كـانت تسيل لعاب السلاطين ، لاسيما فى أوقات الشـدة ، فيبادرون إلى مصادرتها . وهنا ينبغـى أن نشير إلى أن المصادرة كانت سمـة عامة من سمات السياسة الـداخلية فى عصر المماليك ولم تكن انطلاقًا مـن دوافع دينية . وإنما كانت تعبيرًا عن طبيعة علاقة أولئك الحكام العسكـريين برعاياهم من المسلمين وأهل الذمة على السواء (٤١) .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الحروب الصليبية قـد خلفت فى العالم الإسلامـى كله تراثًا يفيـض بالمرارة والعداء تجاه الغرب المسيحى ، كما جعل الدولة تتشكك كثيرًا فى ولاء رعاياها من المسيحيين الملكانيين على وجه الخصوص . وقد زادت الحملات الصليبية المتأخرة من هذه الشكوك (٤٢) . كما أن علاقات الدولة بالقوى العالمية المعاصرة كانت تؤثر على أحوال المسيحيين ، بالذات ، إما سلبًا أو إيجابًا .

ومن ناحية أخرى ، احتل أبناء الأقليات الدينية مكانة هامة فى جهاز الدولة الإدارى . والواقع أنه منذ سمح المسلمون للمسيحيين واليهود بأن يحلوا محل الموظفين البيزنطيين تكونت منهم فئة من الخبراء فى شئون المال والإدارة ــ لاسيما من الأقبـاط - لم تستطـع الدولـة الاستغناء عنهـم على الرغـم من كـل المحاولات التـى بذلـت فى هذا السبيل ، والحمـلات الضاريـة التى شنها ضـدهم القضـاة والفقهاء المسلمـون . فقد أمسـى وجودهـم فى الإدارة الحكوميـة ضروريـًا بحيث لايمكـن الاستغناء عنهـم فى دواوين السلطان والأمراء .

---

(٤٠) انظر مدخل هذه الدراسات .

(٤١) عن تفاصيل العلاقة بين السلاطين ورعاياهم من اليهود والمسيحيين انظر كتابنا، أهل الذمة، ص٦٣ - ص١٠١

(٤٢) Atiya (A.S.) The Crusades in the latter Middle Ages (London 1938) pp. 272 - 73.

وقد فزع المسلمون من نفوذ أبناء هذه الأقليات الناتج عن توليهم لوظائف الإدارة والمالية . فاتهموهم بالتحكم فى مقدرات المسلمين ، وبأنهم استخدموا نفوذهم « . . فى دفع من يتعرض لهم . . » ، وغير ذلك من التهم (٤٣) .

وعلى أية حال ، فإنه يهمنا أن نركز فى هذه الدراسة على دور الأقليات الدينية فى الحياة الاجتماعية آنذاك فقد شارك اليهود والنصارى فى نشاط المجتمع المصرى الذى كانوا جزءًا لايتجزأ منه ، يتأثرون بأحداثه الجارية ويؤثرون فيها ، كما يخضعون للظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التى يخضع لها المجتمع .

ففى تظاهرات الاستقبال السياسية ـ التى كانت سمة عامة من سمات الحياة المصرية فى عصر المماليك ــ كان أبناء الطوائف اليهودية والمسيحية يشاركون المصريين المسلمين فى استجابتهم لأوامر السلطات الحاكمة (ممثلة فى الوالى أو المحتسب) بتزيين الحوانيت والأسواق والتجمع على طول طريق الموكب السلطانى وهم يحملون كتبهم المقدسة والشموع الموقدة مشاركة منهم فى هذه المناسبة . ومن الأمثلة التى تحفل بها المصادر التاريخية على هذا ما حدث سنة ٦٥٨ هـ . (١٢٦٠ م) حين أعاد السلطان الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية بمصر ؛ فقد خرجت كافة طوائف المصريين للقاء الخليفة العباسى « أبو القاسم أحمد » وبينهم اليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الأناجيل (٤٤) ، وأثناء عودة الظاهر برقوق إلى عرش السلطنة فى سنة ٧٩٢ هـ . (١٣٩٠ م) تكررت هذه التظاهرة السياسية التى رتبها أنصاره وشارك فيها اليهود والنصارى . وفى العام نفسه استقبله المصريون . المسلمون واليهود والنصارى ، بتظاهرة مماثلة لدى عودته من إحدى رحلات الصيد . وفى سنة ٨٨٠هـ خرج المصريون وبينهم اليهود والنصارى لاستقبال السلطان الأشرف قايتباى بمناسبة عودته من رحلة صيد (٤٥) .

ومن الناحية الاقتصادية ساهم المسيحيون واليهود فى أعمال صيانة مرافق الرى مثل حفر الترع وبناء الجسور وما إلى ذلك . وكان اشتراكهم فى مثل هذه الأعمال يتم برغبتهم فى بعض الأحيان ، أو بإجبارهم وتسخيرهم مثل سائر المصريين أحيانًا أخرى .

ففى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) حدث أن جفت مياه النيل تجاه ساحل القاهرة بحيث صارت المياه ضحلة وملوثة لاتصلح للشرب ، فارتفعت أسعار المياه . وتم الاتفاق على بناء جسر على شاطىء

---

(٤٣) الإسنوى ، الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة (مخطوط) ق ٩ ، ق ٣٠ ــ ق ٢٢ ؛ ابن النقاش ، المذمة فى استعمال أهل الذمة (مخطوط) ق ٩٦ ـ ق ٩٧ ؛ ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٣٩ ، ص٤١ . ابن أيبك الدوادار ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٤٧ ـ ص ٥٠ .

(٤٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ١٠٩ .

(٤٥) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ ٩ ص ١٩٩ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ١٢ ص ١٣ .

النيل من ناحية الجيزة باتجاه القاهرة . وتقرر جمع نفقات بناء هذا الجسر من كافة طوائف الرعية بمن فى ذلك اليهود والنصارى ، ولم يعف أحد من أداء هذه الضريبة الطارئة ، بل إن الدولة أخذتها أيضًا من الجوامع والمساجد والخوانق والزوايا والأديرة والكنائس فضلا عن المنازل والحوانيت (٤٦) . وفى سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) ركب السلطان « المؤيد شيخ المحمودى » إلى موقع العمل فى شق خليج جديد من النيل ، ونودى بخروج الناس للعمل فى هذا المشروع ، وألزم والى القاهرة اليهود والمسيحيين بالخروج ضمن طوائف الرعية للمساهمة فى أعمال الحفر (٤٧) . وفى جمادى الأولى من العام نفسه . خرج الأمير « صارم الدين إبراهيم » ابن السلطان ، لتفقد سير العمل فى المشروع وألزم الناس من المسلمين وأهل الذمة بالخروج ليعملوا فى الحفر لمدة يومين (٤٨) .

ويغلب علىّ الظن أن الأقباط قد انفردوا بالمشاركة فى النشاط الزراعى فى البلاد ، على اعتبار أن الزراعة هى المهنة الرئيسية للمصريين منذ القدم ، وقد احتفظ الأقباط الذين لم يعتنقوا الإسلام بأرضهم على مر السنين منذ أمر الخليفة عمر بن الخطاب بأن يعامل المصريون على أساس أن بلادهم فتحت صلحًا ، وهو مايعنى أن يحتفظوا بالأرض مقابل ضريبة الخراج (٤٩) . أما جوانب النشاط الاقتصادى الأخرى التى مارسها اليهود والمسيحيون المصريون ، فقد تنوعت مابين التجارة والصناعات الصغيرة ، وبعض المهن الأخرى .

وفيما يتعلق باليهود فقد أثبتت الدراسات التى اعتمدت على وثائق الجينيزا أن عدد يهود مصر فى عصر سلاطين المماليك كان ضئيلا (٥٠) . وهو ما تؤيده أقوال بنيامين التطيلى عن أعداد اليهود فى العصر الأيوبى ، ولايبدو معقولاً أن يزيد عدد يهود مصر زيادة كبيرة خلال فترة تقل عن قرن من الزمان . كذلك فإن قلة عدد معابدهم تدل على ضآلة عددهم كما أسلفنا القول .

وعلى أية حال فإنه يبدو أن اليهود قد عملوا فى مختلف الحرف التى عرفها المجتمع المصرى آنذاك . ولاسيما النشاط المصرفى والأعمال المالية (٥١) . كذلك كان لبعض اليهود صناعات صغيرة يتعيشون منها ، فقد ذكر « ابن دقماق » أنه كانت توجد بالقاهرة ثلاثة مطابخ للسكر يملكها ثلاثة من اليهود . كما ذكر أنه كان لليهود سوق يعرف باسمهم فى القاهرة (٥٢) . ويستفاد من إحدى وثائق دير سانت

---

(٤٦) المقريزى ، الخطط ، جـ ، ص ١٦٧ .
(٤٧) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ص ٣١٣ ، ص ٣١٤ ؛ العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٣٣٢ .
(٤٨) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص٣١٧ ، ص ٣١٨ .
(٤٩) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص٢١٦ ـ ص ٢٢٠ .
(٥٠) Bosworth Chrisitian and Jewish dignitaries,I PP. 65-66.
(٥١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٤٤٣ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٤٠ ـ ص ٤١ ؛ تريتون ، أهل الذمة فى الإسلام (ترجمة د . حسن حبشى) ص ٣٠٧ .
(٥٢) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ ، ص ٤٢ ـ ص٤٤ .

كاترين أن بعض نساء اليهود كنّ يعملن كدلالات (٥٣) وكانت الدلالة تقوم بالمرور على السيدات في منازلهن لعرض ما يحتجن إليه من ملبوسات أو مفروشات وغيرها ، مما يوفر عليهن مشقة الخروج إلى الأسواق ، إذا كن من الشرائح الاجتماعية الثرية (٥٤) .

وقد عمل بعض اليهود في مهنة التنجيم وحاز فيها شهرة واسعة ، فقد ذكر ابن دقماق أن يهوديًا كان يمتلك حانوتًا في القاهرة يمارس فيه مهنة التنجيم مدة تزيد على أربعين سنة حتى اشتهر المكان باسمه (٥٥) . ويتضح من بعض وثائق الجينيزا التي تعود إلى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أن بعض اليهود كانوا يعملون في حرفة النسخ . فهذه الوثيقة عبارة عن خطاب من يهودي يعمل نساخًا متجولاً بأقاليم البلاد إلى زوجته (٥٦) .

أما المسيحيون ، فقد ساهموا بطبيعة الحال في كافة مناحي النشاط الذي مارسه المجتمع المصري في ذلك الحين ، ويبدو أثرهم واضحًا في النشاط التجاري الداخلي ، مثلاً ، فيما أوضحته بعض كتب الحسبة من أن بعض مثاقيل الموازين كانت تحمل كتابة عربية على أحد وجهيها ، وتحمل على الوجه الآخر كتابة قبطية (٥٧) . كما يتضح من وثائق سانت كاترين أن المسيحيين من الملكانيين واليعاقبة قد عملوا في النشاط التجاري الداخلي والخارجي على حد سواء (٥٨) . كما تكشف إحدى وثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس أن بعض المسيحيين قد اشتغلوا بالبيطرة ، إذ تذكر الوثيقة اسم « المعلم شحاته النصراني اليعقوبي البيطار بالفحامين » (٥٩) .

وهكذا يتضح لنا من هذه الأمثلة أن أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود أو من المسيحيين قد مارسوا كل المهن والحرف التي مارسها المسلمون تقريبًا . ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أن اليهود والنصارى قد تملكوا العقارات في شتى أنحاء البلاد إمّا عن طريق البيع والشراء ، وإما عن طريق الوراثة (٦٠) . كما تدل هذه الوثائق على أن اليهود والمسيحيين كانوا يتعاملون مع المسلمين

---

(٥٣) س . ك . وثيقة رقم ٢٥٢ (تاريخها ١٦ صفر سنة ٨٨٩ هـ) .

(٥٤) Ahmed Abd Arraziq, La femme au temps des Mamlouks en Egyte (Institut Francait d'Archéologie du Caire) pp. 63 - 64.

(٥٥) ابن دقماق ، الانتصار : جـ ٤ ، ص ٤٩ .

(٥٦) Mann, The Jews, I, p. 242.

(٥٧) ابن بسام ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة (بغداد ١٩٦٨)، ص ١٨٦

(٥٨) س . ك . وثيقة رقم ٢٥٦ (تاريخها سنة ٨١٠ هـ) ، ورقم ٢٦٢ (سنة ٨٥٤ هـ) ، ورقم ٢٩٥ (سنة ٨٨٢هـ)، ورقم ٢٥٨ (سنة ٨٤٩ هـ) .

(٥٩) ب . أ ، رقم ٢٣ .

(٦٠) س . ك . ، رقم ٢٥٢(٨٨٩ هـ) ، رقم ٢٥ (سنة ٩٠٧ هـ) ، رقم ٢٥٨ (سنة ٨٤٩ هـ) ، ورقم ٢٦٢ (سنة ٨٥٤ هـ) ، ورقم ٢٩٥ (سنة ٨٨٢ هـ) ، انظر كذلك السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٣٦ ـ ص ٣٨ ؛ ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ ـ ص ٤٢ .

فى عمليات البيع والشراء فى حرية تامة فى ظل القوانين الحاكمة آنذاك (٦١) . بل إن لدينا وثيقة تشير إلى المدين (وهو مسيحى) قد أحال الدائن (وهو مسيحى أيضًا) على أحد تجار « مدينة الطور» المسلمين لكى يضمنه فى تأجيل سداد دينه ، ويتضح من هذه الوثيقة أن الدائن قبل بالفعل تأجيل الدين للسنة التالية « . . . **لعلمه بحاله أنه لايقدر عليه** . . . » (٦٢) . ولدينا المزيد من الوثائق التى توضح أن التعامل فى مسائل البيع والشراء كان يتم بين اليهود والنصارى والمسلمين فى شكل طبيعى يكشف عن أنهم جميعًا تساووا فى حقوقهم فى هذا المجال (٦٣) .

كذلك كانت تصرفات أبناء الأقليات الدينية القانونية ، مثل البيع ، والرهن ، والوقف . ومصادقة شرعية ، واستيفاء الديون ، وتصفية التركات . . . وغير ذلك ، تتم على يدى أحد القضاة المسلمين (٦٤) . ويتضح من وثائق سانت كاترين ووثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، أنه فى بعض الأحيان كان الشهود على هذه التصرفات القانونية من المسلمين (٦٥) . وفى أحيان أخرى كان بعضهم من الذميين (٦٦) .

ومن الناحية الاجتماعية ، تشير المصادر المتوفرة لدينا إلى أن أهل الذمة قد تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية داخل إطار الحياة العامة للمجتمع ككل بل إن بعض الوثائق اليهودية المعروفة باسم «الجينيزا » كتبت بأيدى بعض المسلمين والمسيحيين الذين كانت تربطهم باليهود علاقة من نوع ما(٦٧). ولكن هذه الحريات الاجتماعية كانت تخضع ، من حين لآخر ، لبعض القيود التى كانت الدولة تفرضها لسبب أو لآخر . بيد أن ذلك لم يمنع أبناء الأقليات الدينية من القيام بدورهم فى المجتمع والمشاركة الإيجابية فى الحياة اليومية ، التى يؤثرون فيها بقدر ما تسمح ظروف تعدادهم وأوضاعهم الاجتماعية ، ويتأثرون ، بأحداثها ومجريات الأمور فيها .

ولعل الظاهرة الطبيعية والجغرافية الأولى فى مصر هى نهر النيل الذى قامت عليه حياة المصريين منذ العصور السحيقة وحتى الآن . وفى جميع العصور أدرك المصريون ومن جاوروهم أو خالطوهم أهمية نهر النيل فى حياة مصر والمصريين باعتباره الشريان الرئيسى لحياة البلاد وساكنيها . ومن ثم فإن

---

(٦١) س . ك أرقام ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ .

(٦٢) س . ك رقم ٢٨٣ (وثيقة مصادقة شرعية . آخر محرم سنة ٨٠١ هـ) .

(٦٣) س . ك رقم ٢٥٢ (وثيقة مصادقة شرعية ١٦ صفر سنة ٨٨٩ هـ) .

(٦٤) س . ك ، أرقام ٢٤١ (بيع) ، ٢٦٢ (بيع) ، ٢٥٥ ، ٢٥٠ (بيع) ٢٥٤ (بيع) ، ٢٤٤ (مصادقة شرعية) . ٢٥٩ (وقف) ، ٢٦١ (بيع) ، ٢٨٣ (إقرار بدين) ، ب . أ ، أرقام ٨ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٣ (وقف) .

(٦٥) س . ك . ، أرقام ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ب . أرقام ٨ ، ١٦ .

(٦٦) س . ك ، أرقام ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٢ حيث نجد أن الشهود جميعًا من المسيحيين ، ب أ ، رقم ٨ .

(٦٧) Rabie , The financial system, A.H. 567 - 741 - 1169/1341 (Oxford University press 1972),p.3.

القلق الذى يسود البلاد ، فى حالة انخفاض مياه النهر أو تأخر الفيضان ، كان يشمل اليهود والمسيحيين المصريين بطبيعة الحال ؛ فيخرجون مع غيرهم من أبناء مصر إلى الصحراء لأداء صلاة الاستسقاء يحملون كتبهم المقدسة ، ويبتهلون إلى الله تعالى أن يجرى مياه النيل .

وقد أمدتنا المصادر التاريخية العربية بالكثير من الأمثلة الدالة على هذا منها ما حدث سنة ٧٧٥ هـ (١٣٧٣م) حين توقفت مياه الفيضان عن الزيادة ، واختفى الخبز من الأسواق وبدأ شبح المجاعة بوجهه المرعب يتهدد البلاد ؛ فخرجت جموع المصريين وبينهم اليهود والمسيحيون على اختلاف مشاربهم إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء (٦٨) . وفى سنة ٨٥٤ هـ (١٤٥٠ م) نقص النيل وانخفض منسوب المياه ، فاشتد قلق الناس ، وخرجت جموعهم ، كما خرج اليهود والنصارى إلى الصحراء حيث ظلوا معظم ساعات النهار يبكون ويضرعون إلى الله أن يزيل عنهم هذه الشدة (٦٩) .

وظهر تأثير اليهود والنصارى واضحًا فى عادات وتقاليد المجتمع المصرى آنذاك فيما أشار إليه ابن الحاج من أن بعض نساء المسلمين كنَّ يأتين بعض التصرفات فى حياتهن اليومية تبدو التأثيرات اليهودية والمسيحية فيها واضحة تمامًا . فقد اعتادت بعض النساء ألا يشترين السمك ، أو أكله أو إدخاله فى بيوتهن يوم السبت (ومن المعروف أن اليهود قد حرموا على أنفسهم صيد السمك أو أكله يوم السبت) كما أن بعض النسوة تعودن عدم دخول الحمام أو شراء الصابون وغسل الثياب فى يوم السبت متأثرات فى ذلك ببعض العادات اليهودية المتعلقة بحرمة يوم السبت ، كما ظهر تأثرهن بالعادات المسيحية فى عدم الاشتغال بشىء فى ليلة الأحد . وإذا كانت المرأة حائضًا لاتكيل القمح أو غيره من الطعام ولاتدخل إلى مكان الطعام (٧٠) والمعروف أن اليهود يعتبرون الحيض نجاسة .

كذلك ذكر ابن الحاج أن من عادات نساء مصر فى ذلك الزمان أنهن كن يمنعن خروج أوانى المنزل بعد العشاء ، وأنهن اعتدن شراء اللبن فى أول ليلة من شهر المحرم (بداية السنة الهجرية) تفاؤلا منهن بأن تكون السنة كلها بيضاء (٧١) . كما كان من عادات المصريين أنهم لاينظفون البيت أو يكنسونه عقب سفر أى من أهل البيت ويتشاءمون إن هم فعلوا ذلك خشية ألا يعود المسافر مرة أخرى (٧٢) .

ومن العادات الاجتماعية التى أثارت احتجاج ابن الحاج واستنكاره ، باعتبارها ذات أصل غير إسلامى ، تلك العادة التى أشار إليها بقوله : « إذا نزلت الشمس فى برج الحمل فيخرجون فى صبيحة يومهم ذلك رجالاً ونساء وشبانًا أقارب ، يجمعون شيئاً من نبات الأرض يسمونه بالكركيس فيقطعون

---

(٦٨) ابن إياس ، بدائع الزهور (ط . بولاق) ، جـ١ ، ص ٢٢٩ .
(٦٩) ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة) . (ط . كاليفورنيا) ، جـ٧ ، ص ٢٠٦-٢٠٧ .
(٧٠) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٧٨ - ص ٢٧٩ ، جـ٢ ، ص ٦٨ .
(٧١) المصدر نفسه . جـ١ ، ص ٢٧٩ .
(٧٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٧ .

ذلك من موضعه بالذهب والفضة والخواتم النفيسة والأساور وغير ذلك ، ويتكلمون بكلام أعجمى يحتمل أن يكون كفرًا ، ويجعلون ما يقطعونه من تلك الحشيشة فى خرائط مصبوغة بالزعفران ثم يجعلون الخريطة فى صندوق ويزعمون أن ذلك مادام فى البيت يكون سببًا لإكثار الرزق عليهم . . . »(٧٣) .

ويبدو أن تأثير اليهود والمسيحيين فى العادات والتقاليد المصرية فى عصر سلاطين المماليك كان واضحًا لدرجة أثارت استياء ابن الحاج الذى يشكو أسفًا من أن المصريين المسلمين « . . . وضعوا تلك العوائدموضع السنن . . . »(٧٤) .

ولعل من أكبر الدلائل على أن روح الوئام الاجتماعى قد سادت فى كثير من الأحيان بين المسلمين وأبناء الأقليات الدينية فى ذلك العصر ما حدث سنة ٧١٤ هجرية (١٣١٤ م) حين استعار الأقباط بعض قناديل وأثاث جامع عمرو بن العاص لكى يستخدموها فى أحد اجتماعاتهم الدينية فى الكنيسة المعلقة بمصر القديمة(٧٥) . وهو ما يبعث على الاعتقاد بأن ثمة علاقات ودية وطيدة كانت تربط بين أبناء الأقليات الدينية وغيرهم من المصريين فى ظروف الحياة اليومية العادية . وتحفل مصادر ذلك العصر بالكثير من الأمثلة التى تحمل من الدلائل على روح الوئام الاجتماعى ما لايمكن تجاهله .

ومن ناحية أخرى ، كان للمسيحيين واليهود نصيبهم من الأمراض الاجتماعية المتفشية فى مصر آنذاك . وهو أمر طبيعى باعتبارهم جزءاً يرتبط عضويًا بالكل المصرى . وطبيعى أنهم خضعوا للعقوبات ذاتها التى كانت توقع على كل من يرتكب هذه الجرائم . بيد أن هناك اختلافًا بين عقوبة المسلم وعقوبة غير المسلم، وهو ما يتوافق مع روح الشريعة الإسلامية . ففى إحدى الحوادث زنى نصرانى بإحدى المسلمات فرجم الاثنان حتى الموت ، وأحرقت جثة النصرانى ودفنت المرأة(٧٦) . ومن الطريف أن جريمة مماثلة وقعت بين يهودى ومسلمة من بنات الطبقة الحاكمة فاختلفت العقوبة . رجم اليهودى حتى الموت ثم أحرقت جثته وصودرت أمواله ، على حين اكتفى بحبس المرأة(٧٧) . وفى جريمة أخرى زنى يهودى متزوج بيهودية ، ونجا الاثنان من عقوبة الرجم بفضل تدخل بعض أصحاب النفوذ ، مما أثار استياء واستنكار المؤرخ تقى الدين المقريزى(٧٨) . كذلك كان على المحتسب من الوجهة النظرية على الأقل ـ إذا رأى مسلمًا يشرب الخمر علنًا أن يريقها ويؤدبه ، أما إذا كان

---

(٧٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٨١ .

(٧٤) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٦٥ .

(٧٥) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ٤١٠ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جـ٢ ص ٢١٨ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ١١١ .

(٧٦) المقريزى، السلوك ،جـ٢ ص ١٣٥ ص ١٣٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب، جـ٣ (مخطوط) ص ٢٩٦ ـ ق ٢٩٩ .

(٧٧) تاريخ ابن الوردى ، جـ٢ ص ٣٠٦ .

(٧٨) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٢١١ ـ ص ١٢١٢ .

الفاعل من أهل الذمة اكتفى المحتسب بتأديبه لأنه يشربها علنًا(٧٩) . ويبدو أن هذه العقوبة لم تكن تنفذ فى كثير من الأحوال ، إذ يذكر « ابن الحاج » أن النصارى كانوا يشربون الخمر علنًا فى عيد النيروز ويقلدهم فى ذلك بعض العامة من المسلمين (٨٠) .

ويبدو أن أبناء الأقليات اليهودية والمسيحية فى عصر المماليك قد كونوا الثروات الطائلة ، وتباهوا بمظاهر العز والرفاهية نتيجة لعملهم فى الجهازين المالى والإدارى لدولة سلاطين المماليك مما جعلهم هدفًا لمطامع السلاطين وأمراء المماليك التواقين إلى جمع المال عن أى طريق من ناحية ، وإمتصاصهم لأحقاد عامة المسلمين المطحونين تحت أعباء « المظالم » و « المغارم » التى كانت أعباؤها تتزايد عليهم فى ذلك العصر من ناحية ثانية ، فضلاً عن أن الأوبئة والأزمات الاقتصادية التى أرهقت كاهل المصريين جميعًا ، والتى زاد معدل وقوعها فى أواخر ذلك العصر ، جعلت الفقراء يتطلعون بعيون ملؤها الحسرة والحقد نحو أولئك الذميين الذين رأوا فيهم أدوات السلطة فى ابتزازهم .

وينهض دليلاً على ذلك ما ذكره المقريزى من أن اليهود والنصارى « . . . **قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر ، وتفننوا فى ركوب الخيل المسومة ، والبغلات الرائعة بالحلى الفاخرة ، ولبسوا الثياب السرية . وولوا الأعمال الجليلة** . . . »(٨١) . كما أن ابن الأخوة الذى عاش فى الفترة التى تحدث عنها المقريزى (القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) يقرر أن دور المسيحيين واليهود فى مصر كانت تعلو على دور المسلمين ومساجدهم ، وأنهم اتخذوا لأنفسهم ألقاب المسلمين وكناهم ، كما ذكر أن اليهودى أو النصرانى من موظفى الدولة كان يسير بدابته والمسلم يجرى فى ركابه يطلب منه قضاء حاجة له . أما النساء الذميات فكن يتمتعن باحترام الجميع فى الحمامات والأسواق ، لأن ملابسهن كانت عادية بحيث أن أحداً لم يكن ليميزهن عن النساء المسلمات (٨٢) .

ويستفاد من إحدى وثائق مجموعة سانت كاترين (٨٣) . أنه إذا اشترى أحد أبناء الأقليات الدينية دارًا تعلو على دور جيرانه المسلمين . كان من حقه أن يحتفظ بها دون أن يهدم الجزء العالى الذى يتيح له كشف عورات جيرانه . كما أن المؤرخ ابن تغرى بردى يذكر فى حوادث سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) أن والى القاهرة أمر المسيحيين بإحضار ما لديهم من الجوارى بعد أن بلغه أنهم يملكون الجوارى المسلمات « . . . **فمن وجدها مسلمة فى الأصل ، أو سابيها ، ردها إلى الإسلام ، وأمر صاحبها ببيعها** . . . »(٨٤) . وهو مايدل على أن أهل الذمة المصريين كانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش

---

(٧٩) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٣٢ .
(٨٠) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص ٥١ .
(٨١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص ٩٢٣ ـ ص ٩٢٥ .
(٨٢) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٤٢ ـ ص ٤٣ .
(٨٣) س . ك ، رقم ٢٨٦ (١٣ جمادى أولى سنة ٨٨٣ هـ) .
(٨٤) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، جـ١ ، ص ١٢٤ ؛ السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٨٥ .

تسمح لهم باقتناء الجوارى . ومن المنطقى أن نقرر أن هذا لايمثل الحقيقة بالنسبة لجميع اليهود والنصارى ، وإنما ينطبق على أغنيائهم فقط .

وإذا كنا قد عرضنا فى الصفحات السابقة لبعض الأمثلة الدالة على أن روح الوئام والوفاق الاجتماعى كانت تسود المصريين جميعًا فى ذلك العصر ، فإنه يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الحال لم تكن هى السائدة على الدوام فى العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة ، فإن ذلك يبعد عن الحقيقة إلى حد كبير، كما أنه يتناقض مع المفاهيم التى أشرنا إليها . فالواقع أن حوادث المشاحنات بين الفريقين قد حدثت فى بعض الأحيان لكى تعكر من صفو العلاقات بينهما . ومن الأمثلة الدالة على ذلك ماحدث سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) حين نشب خلاف بين المسلمين والمسيحيين فى أحد الأقاليم بسبب شخص مسيحى ، ادعى بعضهم أن جده كان مسلما وحبسه القاضى على إعتبار أنه يعتبر مرتدًا عن الإسلام. ولكن المسيحيين فى هذا البلد لجئوا إلى الوالى الذى أمر بإطلاق سراح السجين ليلاً ، فهاجت مشاعر عامة المسلمين وساندوا القاضى ضد الوالى ، بل إنهم أغلقوا الحوانيت وعطلوا الأسواق لقتال الوالى الذى جمع بدوره بعض الأعوان لقتال الأهالى . وحين علم السلطان فى القاهرة بما حدث أمر بعزل كل من القاضى والوالى (٨٥) ، وثمة مثال آخر حدث فى سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) فى إحدى قرى الأقاليم ، فقد كان المسيحيون يحتفلون بزواج أحدهم ، وكان من عادتهم فى مثل هذه الاحتفالات أن يحضروا المطربين والموسيقيين لإحيائها . ويبدو أن سكان هذه القرية من المسيحيين كانوا يشكلون الأغلبية لأنه حين أراد المؤذن أن يؤذن لصلاة الفجر ، وأثناء قيامه بالتسبيح قبيل الصلاة صعد إليه عدد من المسيحيين وأنزلوه ثم اعتدوا عليه بالضرب ، وحين حاول إمام المسجد والخطيب أن يدافعا عن المؤذن نالهما مانال. وسافر ثلاثتهم إلى القاهرة لعرض شكواهم ، وانتهى الأمر بعد فترة من الزمن بضرب رقاب ستة من مسالمة ذلك البلد الذين شاركوا فى الاعتداء بدعوى أنهم زنادقة (٨٦) .

كما حدث فى سنة ٨٤٣ هـ (١٤٣٩ م) أن خرج جماعة من المسلمين المتطوعين من دمياط لقتال قراصنة الفرنج فى البحر المتوسط ، ولكنهم استشهدوا عن بكرة أبيهم . وأقام أهل البلد مأتمًا لهم . وأثناء تقبل الأهالى العزاء فى شهدائهم أقام أحد النصارى فرحًا « وأظهر الشماتة والمسرة بماحل بالمسلمين » . ومن ناحية أخرى كان ذلك الرجل النصرانى متهمًا بالتجسس لحساب الفرنج ، فرفع الأهالى دعوى ضده لدى القاضى الذى حكم بإدانته ، فلما أدرك أنه سوف يقتل أعلن إسلامه . ولكن ذلك لم يمنع المسلمين من قتله ، ثم اشتعل غضبهم على جميع نصارى دمياط فهاجموا كنائسهم ونهبوها (٨٧) .

لكن مثل هذه الحوادث ـ التى اتخذت طابعًا فرديًا على الدوام ـ يمكن أن نفسرها فى ضوء المفاهيم التى حكمت الناس فى تلك العصور من ناحية ، وفى ضوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

---

(٨٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٩٠٠ ـ ص ٩٠١ .

(٨٦) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ ـ ص ٢٧٤ .

(٨٧) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١١٧٠ .

فى مصر آنذاك من ناحية ثانية ، كما أن هذه الحوادث التى لم تأخذ طابع الاستمرار . لايمكن أن تقلل من قيمة الحقيقة القائلة بأن أبناء الأقليات الدينية من المسيحيين واليهود فى مصر عاشوا فى رحاب المجتمع المصرى كجزء عضوى منه ، ومن الطبيعى دائمًا أن تحدث بعض المشاحنات بين أبناء البلد الواحد الذين تجمعهم ديانة واحدة ، فما بالنا بالذين تجمعهم ديانات مختلفة فى زمن كان الدين فيه قوة تأثير طاغية على سلوك الفرد والجماعة على السواء ؟

وفى ذلك العصر كان المفروض ـ نظريًا على الأقل ـ أن يتمايز المسيحيون واليهود بملابس معينة حتى يمكن التفرقة بينهم وبين المسلمين فى زحام الحياة اليومية ، ولكننا ينبغى أن نشير إلى أنه من الثابت أن أهل الذمة لم يلزموا بارتداء الملابس المميزة أو ما اصطلحت المصادر على تسميته « بالغيار» فى أيام النبى عليه الصلاة والسلام . ومن البديهى ، كذلك ، أن المسلمين فى بداية مرحلة الفتوح الإسلامية . كانوا مختلفين بملابسهم عن أهالى البلاد التى فتحوها ، ومن ثم لم تكن هناك ضرورة لفرض أية قيود خاصة بالملابس على غير المسلمين فضلاً عن أن ذلك يتنافى مع روح الإسلام التى كان الفاتحون قريبى العهد بتطبيقها المثالى على أيدى الرسول وخلفائه . إلا أنه مع مضى الوقت بدأ المسلمون يتجهون صوب الأخذ بأسباب الترف والرفاهية من جهة ، فضلاً عن أن بعض أبناء البلاد المفتوحة أخذوا يحاكون المسلمين شأن كل الشعوب المغلوبة فى محاكاة الغالبين فى عاداتهم .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن القيود على ملابس أهل الذمة وسائر ما يتعلق بمظاهر حياتهم اليومية إنما ترجع إلى « العهد العمرى » أو « الشروط العمرية » المنسوبة إلى « عمر بن الخطاب » بيد أن هذا العهد بصورته التقليدية التى تناقلتها معظم المصادر العربية لم يبدأ فى الظهور سوى فى أواخر القرن الثانى الهجرى(٨٨) . وهو يعنى عدم صحة نسبة هذ ا العهد إلى الخليفة العظيم . وعلى أية حال ، فإن هذا العهد كان هو الأساس الذى فرضت بمقتضاه قيود الملابس على أهل الذمة ومظاهر حياتهم اليومية . فقد كان على النصارى اتخاذ اللون الأزرق لملابسهم فضلاً عن الزنار الذى يشدونه حول أوساطهم (وهو خيط غليظ يشبه الحبل اشترط أن يكون من الكتان) فوق الثياب . ويبدو أن الزنار كان كافيًا فى بعض الأحيان لتمييز أبناء الطائفة المسيحية ، على حين فرض على اليهود أن تكون ملابسهم صفراء اللون ، وتحدد اللون الأحمر لأبناء طائفة السامرة . أما النساء المسيحيات واليهوديات ، فكان عليهن الالتزام بهذه الألوان فى ملابسهن ،وتلتزم المسيحية الزنار فوق ثيابها تحت الازار(٨٩) كما كان على المرأة الذمية أن تنتعل خفين من لونين متباينين . بيد أن طريقة حياكة الملابس وطرزها كانت واحدة بالنسبة لجميع النساء مسلمات وذميات فى ذلك العصر(٩٠) .

---

(٨٨) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر ، ص ٢٦ ، ص ٢٨ .

(٨٩) الإزار : ملاءة فضفاضة كانت نساء عصر سلاطين المماليك يرتدينها فوق ملابسهن . انظر ماير ، الملابس المملوكية ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٩٠) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٤١ ـ ص ٥٣ ؛ ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ ؛ القلقشندى . صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٢ ـ ص ٣٦٥ ؛ ماير ، المرجع السابق ، ص ١١٦ .

وبالإضافة إلى قيود الملابس تعرض أبناء الأقليات الدينية ـ من الناحية النظرية ـ لبعض القيود على مظاهر نشاطهم فى الحياة اليومية . فقد حرم عليهم ركوب الخيل ـ التى كانت امتيازًا موقوفًا على الطبقة الحاكمة وحدها دون سائر المصريين ـ وحمل السلاح . كما كان المفروض ألا يدخلوا إلى الحمامات العامة دون علامة تميزهم عن المسلمين (٩١) وكان على رؤساء طوائف الأقليات أن يلزموا أتباعهم بالحرص على مراعاة هذه القيود التى اعتبرها الفقهاء من شروط عقد الذمة (٩٢) .

كذلك كان من المفروض أن تكون لأهل الذمة ألقابهم الخاصة بهم ، ومن الطريف أن غالبية هذه الألقاب تبدأ بكلمة « الشيخ » . وكان منهم من يحمل لقبًا مضافًا إلى الدولة مثل : « ولى الدولة » و«شمس الدولة » ومنهم من يحذف المضاف إليه ويُعَرِّف اللقب بالألف واللام مثل « الشيخ الصفى » و « الشيخ الشمسى » . فإذا أسلم أحدهم تغير لقبه ليصبح « ولى الدين » . مثلاً أو « شمس الدين» . أما إذا كان للذمى الذى اعتنق الإسلام لقب ليس له ما يوافقه فيما يضاف إلى الدين ، فإن اللقب يتغير فى حالة إسلامه ، إلى أقرب الألقاب إليه « فالشيخ السعيد » ، مثلاً ، يتحول إلى « سعد الدين » وهكذا (٩٣) . إلا أن هذا التحديد النظرى لألقاب أهل الذمة لم يوجد سوى بين سطور الصفحات التى سطرها الفقهاء وغيرهم فها هو أحد المعاصرين يشكو أسفًا من أن اليهود والمسيحيين « . . . يدعون بالنعوت التى كانت للخلفاء ، ويكنون بأبى الحسن وهو على بن أبى طالب ، وبأبى الفضل وهو العباس عم رسول الله عليه الصلاة والسلام . . »(٩٤) وهو مايشير إلى أن الحكام لم يكونوا يتذكرون هذه القيود إلا تحت وطأة ظروف معينة . كما كان من المفروض أيضًا أن يكون لأهل الذمة دعاء خاص بهم يشترط فيه ألا يكون فيه تمنى القوة لهم أو الرغبة فى إلحاق الضرر بالمسلمين ، وكانت لهم ، أيضًا ، أيمان خاصة يحلفون بها(٩٥) ومن الواضح أن الالتزام بمثل هذه الأمور فى الحياة اليومية أمر مستحيل تمامًا ، والظاهر أن الصيغ التى حددها القلقشندى بهذا الصدد إنما قصد بها أن تستخدم فى المكاتبات الرسمية الصادرة عن ديوان الإنشاء فقط .

وبوسعنا أن نؤكد ، اعتمادًا على المصادر التاريخية لتلك الفترة ، أن مثل هذه القيود لم تعرفها مصر فى عصر سلاطين المماليك قبل سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) . ففى هذه السنة زار وزير المغرب مصر . فى طريقه إلى الحجاز للحج ، وانتابه الغضب الشديد من جراء ما شاهده من تمتع أبناء الأقليات

---

(٩١) ابن طلحة ، العقد الفريد للملك السعيد ، ص ١٨١ ؛ القلقشندى ، المصدر السابق جـ ١٣ ، ص ٣٦٢ . يتبع .

(٩٢) العمرى ، التعريف ، ص ١٤٤ ـ ص ١٤٥ ؛ ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٢١٦ ـ ص ٢١٧ ؛ القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ١٣ ص ٣٩٢ .

(٩٣) القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٩٠ ـ ص ٤٩١ .

(٩٤) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٤٢ .

(٩٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٦ ، ص ٢٨٦ ؛ الخالدى ، المقصد الرفيع (مخطوط) ق ٣٣ ، ق ٣٠٤ .

الدينية بكل مظاهر الحريات السياسية والاجتماعية ، وتقلدهم لأعلى الوظائف ، وهو أمر لم يكن مألوفًا بالنسبة للأقليات الدينية وفقًا لمفاهيم العصور الوسطى . ومن ثم أخذ الوزير المغربى فى شن حملة ضد أهل الذمة ، وآتت هذه الحملة ثمارها فى تلك الضغوط التى تعرض اليهود والمسيحيون فى ذلك العام . فقد ألزم اليهود بلبس العمائم الصفراء ، على حين تعيَّن على النصارى أن يلبسوا العمائم الزرقاء ، وتحدد لعمائم السامرة اللون الأحمر . كذلك حرم على أبناء هذه الطوائف أن يركبوا الخيول وفرض عليهم ركوب الحمير « بالأكف عرضًا » أى من جهة واحدة ، كما تجددت كافة القيود الواردة فى تلك الشروط المنسوبة إلى عمربن الخطاب . وأعقب ذلك طرد اليهود والمسيحيين من الوظائف التى كانوا يتولونها فى ديوان السلطان أو فى دواوين الأمراء (٩٦) .

وأصدر السلطان « الناصر محمد » مرسوماً فى هذا الشأن ، ولكن بنود المرسوم كانت أكثر شدة من تطبيقاته، وما لبث التهاون والتغاضى عن مخالفات أهل الذمة لهذا المرسوم أن غلبا على تصرفات الحكومة . وفى سنة ٧٠٩هـ حاول الوزير « ابن الخليلى » أن يقضى على ماتبقى من مظاهر حملة سنة ٧٠٠ هـ ، وحاول إقناع السلطان « الناصر محمد بن قلاوون » أن يسمح لليهود والنصارى بالعودة إلى ارتداء العمائم البيضاء بالعلامات مقابل مبلغ من المال ، وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أنه لم تكن هناك قيود على ملابس الأقليات قبل أحداث سنة ٧٠٠ هـ سوى العلامات التى كانوا يضعونها فوق العمائم . على أية حال ، فإن معارضة الشيخ « تقى الدين بن تيمية » قد حالت دون تنفيذ اقتراح الوزير (٩٧) .

وفى سنة ٧٠٢ هـ تجددت أوامر فرض القيود على أهل الذمة . وجاءت القيود فى هذه المرة نتيجة لرد الفعل الغاضب من قبل الناس والدولة تجاه الحريق الذى دبره بعض الرهبان الملكانيين ، والذى التهم أجزاء كبيرة من أحياء مدينة القاهرة ، كما أثار الرعب والسخط فى نفوس الناس الذين تملكتهم المشاعر الدينية الجارفة ، فمارسوا ضغوطهم على الحكومة التى استجابت لهم بعد عدة مصادمات شهدتها شوراع القاهرة بين الناس والمماليك (٩٨) .

وكان من القواعد المرعية فى ذلك العصر أن يتناسب حجم العمامة تناسبًا طرديًا مع مكانة الفرد فى المجتمع ، بحيث لايجوز لشخص ذى مركز اجتماعى متواضع أن يضع على راسه عمامة كبيرة . ولذلك كان الغضب يستبد بالمتعممين من فقهاء المسلمين وقضاتهم إذا تجاوزت عمامة الذمى الحد المألوف . لأن فى ذلك اعتداء على حقوقهم . ولدينا الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك . ففى سنة ٧٥٥ .تعين على أهل الذمة ألا يزيدوا شال عمائمهم عن عشرة أذرع (٩٩) . كما نودى فى سنة ٨٢٠ هـ بألا يتشبه

---

(٩٦) ابن أيبك الدوادار ، الدر الفاخر ، ص ٤٧ ـ ص ٥١ ؛ السيوطى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١١ .
(٩٧) العينى ، عقد الجمان (مخطوط) حوادث سنة ٧٠٩ ؛ السيوطى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١٢ .
(٩٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ـ ص ٢٢٨ .
(٩٩) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٢٤ ـ ص ٩٢٥ .

اليهود والنصارى بقضاة المسلمين فى ملابسهم . وفى سنة ٨٢٢ هـ تجددت حوادث الاضطهاد ضد المسيحيين واليهود رداً على ما لحق بمسلمى الحبشة من أذى على يد الإمبراطور الحبشى المسيحى ، وحرم عليهم أن يزيدوا فى شال العمامة عن سبعة أذرع (١٠٠) . وفى سنة ٨٣٠ هـ. تقدم لنا المصادر مثالاً آخر على فرض هذه القيود ، ولكن شكوى أهل الذمة للسلطان جعلته يعقد اجتماعًا فى القلعة بحضور القضاة ، وانتهى الاجتماع إلى قرار بتخفيف حدة هذه القيود(١٠١) .

وتدلنا كثرة المراسيم الصادرة فى عصر سلاطين المماليك بشأن فرض القيود على أبناء الأقليات الدينية بوضوح على أن تلك القيود لم تكن مطبقة بصفة دائمة طوال ذلك العصر . كما أن فرض تلك القيود غالبًا ما كان يأتى ضمن حملة عامة ضد أهل الذمة يكون مبعثها سببا أو آخر . ومن المهم أن نورد فى هذا المقام ما قرره القلقشندى ، الذى عاش فى أوائل القرن التاسع الهجرى (١٥م) من أن كل ماكان يميز اليهود والنصارى عن المسلمين فى ذلك الوقت هو لون عمائهم ، وكونهم يركبون الحمير على البراذع ويثنى الواحد منهم رجله قدامه « . . . **ولايميز يعتادونه الآن سوى ماقدمناه** . . . »(١٠٢). مما يؤكد أنه فيما عدا هذه القيود الضئيلة مارس الذميون حياتهم الاجتماعية فى إطار النشاط العام للمجتمع المصرى جنبًا إلى جنب مع المسلمين .

وينهض دليلاً على قوة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأبناء الطوائف الذمية فى مصر العصور الوسطى أن بعض المواسم والأعياد الخاصة بالمسيحيين اتخذت طابعًا عامًا . وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل ، مما يشير إلى جذورها التى تمتد إلى أيام قدماء المصريين . كما شارك المسلمون المسيحيين واليهود فى بعض الأعياد الأخرى بمظاهر المجاملة الاجتماعية ، وتبادل الأطعمة والحلوى وغيرها من الهدايا(١٠٣) .

كذلك ارتبطت بعض عادات المصريين الاجتماعية ببعض الأعياد المسيحية ، فقد اعتاد المصريون أن يصنعوا نوعًا من العصيدة فى « عيد الميلاد » . وكانوا يعتقدون أن من يأكل منها لايصاب بالبرد طوال السنة (١٠٤) . كذلك تعود الناس على مشاركة المسيحيين عادة غمس أطفالهم فى المياه فى عيد «الغطاس » الذى يحل فى الشتاء ، بسبب ما اعتقدوه من أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم(١٠٥) . وكان من عادة النساء أن تطلق البخور فى بيوتهن فى « خميس العهد » بزعم أنه يصرف

---

(١٠٠) المقريزى ، السلوك جـ٨ ، ص ٤٨٦ ، ص ٤٩٥ ؛ العينى ، عقد الجمان ، (مخطوط) حوادث سنة ٨٢٢ هـ .
(١٠١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ٣٨٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٥ ، ص ٤٠٧ .
(١٠٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص ٢٦٣ .
(١٠٣) انظر دراستنا عن « الأعياد والاحتفالات » فى هذا الكتاب .
(١٠٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ص ٥٨ ، ص ٥٩ .
(١٠٥) المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٥٩ .

عنهن العين والكسل والأمراض (١٠٦) . وفى « سبت النور » كان البعض يكتحلون بالكحل الأسود على أساس أن ذلك يكسبهم نوراً زائداً فى أبصارهم (١٠٧)

ورب قائل بأن أبناء الأقليات الدينية فى مصر زمن المماليك مصريون مثل المسلمين ، ومن ثمَّ فإن لهم الحقوق نفسها . وهذا الكلام صحيح فى ضوء مفاهيمنا المعاصرة التى تتسم بالعقلانية إلى حد كبير. بيد أنه ينبغى أن نعيش الحدث التاريخى من داخله لكى نتفهمه بشكل يقربنا إلى الحقيقة قدر الإمكان . ويعنى هذا أن نحاول أن نتمثل المفاهيم والقيم التى كانت تتحكم فى الناس فى تلك الفترة التاريخية . ومن العبث المضلل أن نحاول إلزام الناس فى تلك العصور بمثلنا وقيمنا ، ونحاسبهم إذا لم يتصرفوا على أساسها ، لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا يعلمون شيئًا عن هذه المثُل والقيم والمفاهيم التى نطالبهم بها .

وفى تلك العصور كانت فكرة « الوطن » فكرة دينية بحتة ، وتتعلق بجماعة المؤمنين أكثر مما تتعلق بالأرض بحدودها الجغرافية ، أى أن « الوطن » الذى يجمع الناس فى الحياة الدنيا ـ التى هى مقام زائل ـ ليس هو الأرض كتعبير جغرافى ، بقدر ماهو الدين والعقيدة التى تربط بين أبناء الأمة . وتعيش الأقليات الدينية فى حماية جماعة المؤمنين ، ويتمتعون بكافة حقوقهم بشرط ألا تعلو مكانتهم فوق مكانة جماعة المؤمنين .

صحيح أن هذه المفاهيم تبتعد عن روح الإسلام وموقف الشريعة من أهل الذمة (١٠٨) . ولكن تراث الاحتكاك الحضارى بين المسلمين والغرب المسيحى ، بما تخلله من حروب طويلة وعَنيفة ، هنها تلك السلسلة المعروفة باسم الحروب الصليبية ، خلف شعوراً بالمرارة تجاه غيرالمسلمين . كما أن ثروات أهل الذمة التى كونوها بفضل عملهم فى الجهاز الحكومى ، والتدهور الاقتصادى المستمر لجموع المسلمين جعلت الناس يعبرون عن موقفهم الاجتماعى المتعالى على غير المسلمين تعبيراً دينياً . وبعبارة أخرى ، فإن العوامل الاقتصادية والاجتماعية قد ألبست ثوبًا دينيًا لتخلق هذا الموقف الاجتماعى على الرغم من تعارضه مع روح الإسلام . وعلى هذا الأساس يمكن ، فى تصورنا ، أن تفسر النظرة التى كانت تفترض ألا يكون أبناء الأقليات الدينية فى مصر زمن المماليك أعلى فى مكانتهم الاجتماعية من المسلمين .

ومهما يكن من أمر ، فالواضح أن المسيحيين قد عاشوا حياتهم بشكل عادى داخل إطار المجتمع المصرى . وغالبًا ما كان واقع حياتهم يتجاوز هذه المفاهيم التى ظلت فى كثير من الأحيان كامنة فى الصدور ولاتعبر عن نفسها سوى فى لحظات الإثارة أو الغضب .

---

(١٠٦) المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٥٤ . (١٠٧) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٨ .

(١٠٨) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، الباب الأول حيث يناقش هذا الموضوع بالتفصيل .

أما عن دور أهل الذمة فى الحياة الثقافية والعلمية فى عصر المماليك ، فالواقع أن المعلومات المتاحة بهذا الشأن قليلة بدرجة لاتمكننا سوى من إعطاء صورة عامة عن نشاط اليهود والنصارى الثقافى .

وبالنسبة لليهود ، فإننا نستطيع أن نقرر أن النضال المذهبى ، لاسيما بين القرائين والربانين . والذى كان محوره الأساسى ترجمة الكتاب المقدس وتفسيره ، قد أنتج نشاطًا أدبياً واسع النطاق فى تلك العصور ، وقد تمثل هذا النشاط فى تلك الأعمال اللاهوتية التى كتبت غالبيتها باللغة العربية . وعلى الرغم من تمسك اليهود فى معظم أنحاء العالم باللغة العبرية ، فإنهم فى مصر قد استخدموا لغتين إحداهما العربية والثانية هى اللغة العبرية . والواضح أن لغة الحياة اليومية كانت هى اللغة العربية ، على حين ظلت العبرية هى اللغة المرتبطة بالتراث الدينى إلى حد بعيد . وكان الشعر اليهودى يكتب بالعبرية فى غالب الأحيان ، أما النثر فإن معظم إنتاج الكتاب اليهود منه كان يكتب باللغة العربية . وفيما عدا بعض التعبيرات. والمفردات العبرية الخالصة التى وجدت طريقها إلى اللغة العربية . استخدم اليهود فى زمن المماليك اللغة العربية فى كتاباتهم ، حتى ما يتعلق بشروح الكتاب المقدس والتعليق على التلمود ، وذلك بعكس يهود البلاد المسيحية الأوربية الذين لم يستخدموا فى مثل هذه الكتابات ذات الطابع الدينى لغة أخرى غير اللغة العبرية . والحقيقة أن ظاهرة استخدام اليهود للغة العربية فى كتاباتهم وبحوثهم لاتقتصر على مصر وحدها وإنما تنسحب على يهود العالم الإسلامى عامة، وهو ماتشهد بصحته مؤلفاتهم العربية فى شتى ضروب المعرفة . وفى رأى بعض الباحثين المحدثين أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الكتابة باللغة العربية آنذاك ، كانت هى الشىء الطبيعى والأقل جهدًا ، كما أن اللغة فى المؤلفات التى تتناول موضوعاً علمياً لاتحمل مفهوماً إيديولوجياً كما هو الحال فى الإبدع الفنى مثل الشعر (١٠٩) بيد أننا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن الأسباب المباشرة لهذه الظاهرة إنما تتمثل فى تسيد اللغة العربية فى ذلك الحين ، فضلاً عن رغبة المؤلف فى أن ينتشر لدى جمهور عريض . وثمة دليل قوى على تسيد اللغة العربية بين يهود مصر فى تلك الفترة هو أن وثائق الجينيزا كتبت باللغة العربية فى حروف عبرية أو العربية اليهودية التى كانت لغة يهود مصر (١١٠).

وعلى الرغم من أن طائفة القرائين فى مصر قد عاشت فى سلام فى العصر المملوكى ، فإن ماأفرزته هذه الجماعة من مفكرين كانوا رجالاً عاديين من أمثال « صمويل بن موسى المغربى » (القرن الثامن الهجرى ـ ١٤ م) . وقد دارت كتابات أولئك الرجال من أهل الفكر حول تلخيص وتطوير كتابات أسلافهم . والاستثناء الوحيد بينهم هو « موسى بن ابراهام الدارى » الذى عاش فى القرن السابع

---

(١٠٩) Ibraham S. Halkin, " The Arab - Jewish literature " (The Jews; their history, culture, and Civilization , ed., Finkelstein L . New york) I, pp. 1116 - 1146.

(١١٠) Rabie, H. Financial System of Egypt, pp. 3- 4.

(١٣م) ، وهو شاعر ذو موهبة متميزة ، بيد أنه كان يعتمد على محاكاة الأنماط الشعرية والأساليب التى استخدمها شعراء اليهود فى الأندلس . وفى القرن التاسع الهجرى (١٥م) كتب أحد اليهود القرائين حولية تحدث فيها عن الكتاب اليهود ، وتعتبر حوليته هذه بمثابة وثيقة عبرية هامة (١١١) . كما أن « إبراهيم بن فرج الله بن عبد الكافى اليهودى العانانى » (ت ٨٤٤ هـ) ـ والذى يبدو من لقبه أنه كان من القرائين ـ كان يجمع بين معرفة حاذقة بالطب ، كما يبدو من كلام السخاوى عنه ، وبين الإلمام بأصول الديانة اليهودية « . . . ولم يخلف بعده من يهود مصر مثله كثرة فى حفظ نصوص التوراة وكتب الأنبياء . . . »(١١٢).

وعلى العموم ، فقد كان للجماعات اليهودية التى عاشت فى بلاد العالم الإسلامى تاريخ أدبى طويل ، بيد أن حظ الربانين منه كان أكبر من حظ غيرهم من طوائف اليهود . وتميز الربانون بذلك التراث الأدبى الذى تراكم على مدى عدة قرون . وعلى الرغم من المؤثرات الخارجية ، فإن النتاج الأدبى اليهودى كان نتاج الثقافة التى عاش فى رحابها . وقد تأثر اليهود بما لمسوه من نشاط ثقافى فى العالم الإسلامى ، مما دفعهم إلى التخلى عن اللغة العبرية واللغة الآرامية ، الأمر الذى جعل الأدب اليهودى يسلك بالضرورة دروباً جديدة . ومن ثم ظهرت اهتمامات جديدة عالجها الأدب اليهودى فى العصور الوسطى شعراً ونثراً . وكانت غالبية هذا النتاج الأدبى لاسيما المنثور منه ـ مكتوبة باللغة العربية . وقد وجد اليهود الفرصة متاحة أمامهم للتعبير عن اهتماماتهم الجديدة فى لغة العصر والثقافة آنذاك ، أعنى اللغة العربية (١١٣).

ونستطيع من خلال وثائق الجينيزا أن نستنج أن غالبية يهود مصر فى ذلك الحين كانوا يجهلون اللغة العبرية ، فالوثيقة التى لدينا عبارة عن خطاب أرسله ناسخ متجول بالأقاليم إلى زوجته بالقاهرة . والخطاب مكتوب باللغة العبرية ويرد فى الخطاب اسم من سيترجم الكتاب للزوجة (١١٤) . ويتضح من عبارات الأسف والاحتجاج على تجاهل يهود مصر للغة العبرية (وهى عبارات صاغها أشخاص يهود فى ذلك العصر. على الرغم من أنهم ظلوا يستخدمون اللغة العربية لنشر إنتاجهم الأدبى)(١١٥).

وتمدنا المصادر التاريخية العربية بأسماء بعض اليهود الذين لمعت أسماؤهم فى سماء النشاط الثقافى : منهم « موسى بن كجك » (ت ٧٦١ هـ) الذى برع فى الطب وغيره من العلوم ، كما ألف كثيراً من

---

(١١١) U.J.B., Art. " Karaites".

(١١٢) السخاوى ، الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع ، جـ١ ، ص١١٦ .

(١١٣) Ibraham S. Halkim, The Arab - Jewish lit., I, pp. 1118 - 19.

(١١٤) Mann, The Jews, I, p. 242.

(١١٥) Halkine, op, cit, I pp. 1111 - 22.

الكتب، وقد أسلم هذا الرجل فى مرحلة متأخرة من حياته(١١٦)، ومنهم « صدر الدين بن نفيس » الذى تقاسم رياسة الأطباء بعد إسلامه مع أحد بنى دينه (١١٧) ومنهم أيضاً « أحمد بن المغربى الإشبيلى » الذى عاش فى أواخر القرن السابع الهجرى واعتنق الإسلام فى عهد « الأشرف خليل بن قلاوون » وتولى رياسة الأطباء وكان مُلماً بالتنجيم والفلسفة(١١٨) .

أما المسيحيون فقد اشتهر من بينهم عدد ممن تميزوا فى الساحة الثقافية وإن كانت معظم مؤلفاتهم تدور حول الاهتمامات ذات الطبيعة الدينية أو الكهنوتية كما أن بعض تلك المؤلفات اتخذت شكل الردود على اليهود أو المسلمين ، أو الدفاع عن مذهب بعينه من المذاهب المسيحية ؛ مما يوحى بأن نوعاً من النقاش والحوار الثقافى قد دار فى تلك الفترة بين أبناء الديانات الثلاث .

وقد اشتهر من مثقفى المسيحيين أسرة « أبناء العسال » ، ومنهم « أبو إسحق ابن فخر الدولة أبو الفضل بن أبى البشر العسال » . وله عدة مؤلفات دينية وألف كتاباً فى قواعد اللغة القبطية . وكان أخواه « الأسعد أبو الفرج هبة الله » و « الصفى أبو الفضائل ماجد » ـ الذى ألف كتاباً فى الرد على «تقى الدين بن تيمية » ـ يسيران على دربه (١١٩) . كذلك عاش فى القرن السابع الهجرى (١٣م) كاتب آخر هو « ابن الدهيرى المصرى القبطى » الذى ألف كتابًا فى أصول اللغة القبطية . وفى تلك الفترة نفسها عاش المؤرخ النصرانى المعروف « بابن العميد » (ت ١٣٧٣ م) وقد ألف عدة كتب فى التاريخ منها كتاب لايزال مخطوطاً يبدأ بالخليقة وينتهى بالهجرة ، وله كتاب آخر مختصر لتاريخ الطبرى وعليه تتمة حتى عهد المعز أيبك . ومن المؤرخين الأقباط الذين عاشوا فى مصر عصر المماليك المؤرخ . « المفضل بن أبى الفضائل » الذى ألف كتابًا فى التاريخ قصد به أن يكون ذيلاً على تاريخ «ابن العميد » كما ذكر هو نفسه فى مقدمة كتابه(١٢٠) .

وفى القرن الثامن الهجرى (١٤م) ألف أحد مثقفى الأقباط ، وهو « بطرس أسقف مليج » بعض الكتب للدفاع عن المذهب اليعقوبى ضد أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى ، كما ألف كتاباً يرد فيه على المسلمين دفاعاً عن المسيحية(١٢١) .

---

(١١٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٥٦ .
(١١٧) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ، ص ٢١٦ .
(١١٨) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٨٧ ـ ص ١٨٨ .
(١١٩) لويس شيخو ، المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٤٢) جـ٤ ، ص ١١ ـ ص ١٣ .
(١٢٠) Patrologia Orientalis, XII, pp. 347 - 49
(١٢١) لويس شيخو ، المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ٦٢ .

والواضح أن معظم المؤلفات المسيحية فى عصر سلاطين المماليك قد كتبت باللغة العربية باستثناء ما كان متعلقاً منها بقواعد وأصول اللغة القبطية التى يبدو أنها لم تكن لغة التخاطب اليومى بين الأقباط، فيما عدا بعض قرى الصعيد . كما أنها من ناحية أخرى لم تكن معروفة لدى المسيحيين الملكانيين . والواضح أيضاً أن هذه المؤلفات كانت ذات موضوعات دينية فى أغلب الأحوال ، وهو ما يمكن أن يفسر لنا سبب عدم إشارة المؤرخين المسلمين إلى الكثير من الكتاب النصارى . كما أن حقيقة تركز معظم هذه الكتابات حول المواضيع الدينية والكهنوتية جعل تأثير المسيحيين فى النشاط الثقافى العام محدوداً .

وفى بعض الأحيان قامت العلاقات الطيبة بين المفكرين المسلمين والمفكرين من أهل الذمة . فقد ذكر السخاوى أن المؤرخ « تقى الدين المقريزى » كان ملماً بمذاهب أهل الكتاب حتى أن أفاضلهم كانوا يترددون عليه للاستفادة منه (١٢٢) . كما أن « الشيخ تقى الدين بن تيمية » يذكر أنه ألف كتاباً« . . . **رداً على كتاب ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى** . . . »(١٢٣) مما يوحى بأن الحوار الدائر بين أبناء الديانات الثلاث فى تلك الفترة قد تعدى حدود البلاد إلى خارجها .

ومن ناحية أخرى كانت مشاعر التزمت تفرض نفسها على الحوار بين المسلمين واليهود والنصارى، فيأخذ شكل الهجاء والسخرية من معتقدات الآخر . وقد بلغت العلاقة بين المثقفين المسلمين من جهة ، والمثقفين الذميين من جهة أخرى ، درجة من التزمت والتأزم فى بعض الأحيان بحيث نجد بعض المسلمين يعارضون مظاهر التقارب والوفاق الاجتماعى بين المسلمين وأبناء الأقليات الدينية ، بل إن البعض كانوا يعتبرون هذا التقارب خروجاً على الدين (١٢٤) .

ولا بأس أن نكرر ما سبق قوله من أنه من الخطأ أن نحكم على تلك الأمور بموازين عصرنا أو وفقاً لمفاهيمنا الحالية ، وإنما يجدر بنا أن نحاول تقييم تلك الظاهرة فى ضوء ظروف العصر الذى وقعت فيه . وعلى أية حال ، فإن المثقفين كانوا من فئة المعممين من القضاة والفقهاء الذين كان بعضهم يرى أن من واجبه أن يحمى دينه ، وأن هذه الحماية تتأتى بفرض بعض القيود على أهل الذمة . كما أن الطابع الخاص لدولة سلاطين المماليك ، وحرص السلاطين على الواجهة الدينية أتاحا لجماعة المتعممين نفوذاً واسع النطاق . فضلاً عن أن بعض العلماء والفقهاء كانوا يريدون أن يستأثروا لأنفسهم بوظائف الإدارة المالية التى نافسهم فيها أهل الذمة بما لهم من خبرة متوارثة فى هذا المجال . فادعوا أن فى استخدام المسيحيين واليهود فى الوظائف مخالفة صريحة لتعاليم الدين الإسلامى .

---

(١٢٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٣ .

(١٢٣) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (القاهرة ١٣٢٣ هـ) ، جـ١ ص ١٩ .

(١٢٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص ٤٦ ـ ص ٤٨ ، جـ٣ ، ص ٥٦ .

على أن هذا لايعنى بأى حال من الأحوال أن رجال العلم المسلمين اتخذوا من أهل الذمة موقف العداء الأعمى على الدوام . فالواقع أن لدينا من الشواهد مايؤكد عكس ذلك فقد كان بعض القضاة يرفضون مجاراة المشاعر العامة فى أوقات الاضطربات ، إذ وقف الشيخ « ابن دقيق العيد » موقفاً حازماً تجاه مسألة هدم الكنائس التى أفتى الفقهاء بوجوب هدمها أثناء حوادث سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠م)(١٢٥) . هذا عدا الوثائق العديدة التى تشير بعدم جواز تعرض المسلمين لأهل الذمة أو أموالهم ، وتقرر أن على الحاكم أن يضمن ذلك حتى ينال ثوابه(١٢٦) . كذلك تشهد بعض الوثائق بأن الحماية كانت تتوفر لهم ولأملاكهم من خلال أحكام القضاة المسلمين(١٢٧) .

---

(١٢٥) ابن النقاش ، المذمة ، ص ٩٩ .

(١٢٦) س .ك ، ٢٣٠ ، ٣٢٥ ، ٢٢٨ (فتاوى) .

(١٢٧) س .ك ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ .



الأعياد الدينية والاحتفالات العامة

مظاهر الأعياد وارتباطها بالاستقرار الاجتماعى والسياسى ـ أعياد المسلمين ـ ومواسمهم (الاحتفال بشهر رمضان ـ عيد الأضحى ـ المواسم ـ دوران المحمل ـ المولد النبوى ـ أعياد أهل الذمة ـ الأعياد التى شارك المسلمون فيها ـ الاحتفالات العامة (وفاء النيل وكسر الخليج ـ عيد الشهيد عيد النيروز) ـ التدهور والاضمحلال وأثرهما على الأعياد والاحتفالات .

لاشك أن الأعياد والاحتفالات مؤشر هام وصادق على مدى تقدم المجتمع ودرجة مايتمتع به من استقرار اقتصادى وسياسى اجتماعى . والأعياد والاحتفالات التى نقصدها فى هذه الدراسة هى الأعياد والاحتفالات المرتبطة بالشعوب والتى تنبع من تراثهم أو تتصل بدياناتهم ومن ثم تحظى باهتمامهم . ذلك أن هناك من الأعياد والاحتفالات ما يفرضه الحكام لسبب أو لآخر بغض النظر عن مدى رغبة واهتمام الناس بهذه الأعياد والاحتفالات . وهذا النوع من الاحتفالات قد يكون من عوامل التضليل عند محاولة المؤرخ التعرف على ملامح الحياة اليومية فى مجتمع من المجتمعات ؛ فكم من الحكام أقاموا الاحتفالات وحددوا الأعياد وبالغوا فى الاحتفال بمظاهرها الصاخبة فى محاولة لتغطية الواقع بمرارته ، وحجب صوت أنين شعوبهم وهى ترزح تحت وطأة الظلم والفاقة ؟!

وفى الصفحات التالية سنحاول أن نتعرف على جانب من جوانب حياة المصريين اليومية فى عصر سلاطين المماليك من خلال أعيادهم الدينية والعامة (القومية) . وإن نظرة على تلك الكثرة من الأعياد والاحتفالات المصرية فى ذلك الحين ، وما كان يصحبها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية ، ، لتكشف لنا عن صورة تفيض بالبهجة والإشراق لمجتمع يعيش حياة مستقرة فى ظل نظام سياسى متين ، واقتصاد مزدهر ، وأوضاع أمنية وطيدة الأركان . وهذه الصورة صحيحة فى مجملها . فقد كانت دول سلاطين المماليك فى طور الصعود والنمو والقوة ، تتمتع بقدر كبير من الثراء والقوة مما جعلها حاكمة قادرة فى الداخل ، مرهوبة مهابة فى الخارج . وتحقق للمصريين قدر كبير من السلام

والرخاء النسبى انعكس فى النمو السكانى والرواج التجارى الداخلى (١) . كما تمثل فى اهتمام الناس بجوانب التسلية والترفيه فى حياتهم . وقد ذكر ابن بطوطة ، الذى زار مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون (النصف الأول من القرن الرابع عشر) أن أهل مصر « ذوو طرب وسرور ولهو . . . » (٢) . ولاشك أن عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون يعتبر من أهم فترات التاريخ المملوكى وأكثرها استقراراً وازدهاراً . بيد أن ماذكرناه لايعنى ، بأية حال ، أن الصورة كانت مشرقة على الدوام فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك ، وإنما يعنى أن الألوان الزاهية فى هذه الصورة كانت غالبة على الألوان القاتمة والشاحبة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الفترات التى شهدت صراعاً على كرسى الحكم فى عصر المماليك البحرية كانت تترك تأثيراتها السلبية بالضرورة على الأعياد والاحتفالات التى يهتم بها المصريون . ولكن البلاد كانت تعيش حياة أفضل كثيراً من تلك التى شهدتها مع مطلع القرن الخامس عشر وحتى نهاية ذلك العصر .

وإذا ما بدأت دولة المماليك رحلتها صوب الغروب والأفول ، انعكس ذلك بوضوح على كافة مظاهر الحياة على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى والأمنى ، فإذا بالحال غير الحال، وإذا بالبهجة تخلى مكانها للكآبة ، وتعتم صورة مصر والمصريين وتتواضع مظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم والمناسبات العامة إلى أدنى مستوياتها . ولا غرو فقد كان ذلك إيذاناً بمغيب دولة ونهاية عصر .

والواقع أن مصر فى ذلك الزمان قد عرفت عدداً كبيراً من الأعياد والاحتفالات التى اهتم الناس بإحيائها . ومن الطبيعى أن عدداً من هذه الأعياد كان يتصل بعقائد المصريين ودياناتهم ، فقد كانت للمسلمين أعيادهم ومواسمهم التى اتخذ الاحتفال بكل منها مظهراً محدداً وارتبطت بعادات المصريين وتقاليدهم الاجتماعية . كذلك كان لأهل الذمة من اليهود والنصارى أعيادهم الخاصة بهم . وينبغى أن نشير إلى أن بعض هذه الأعياد ـ لاسيما أعياد المسيحيين ـ كان يتخذ سمة اجتماعية لافتة للنظر على نحو ما ستكشف عنه الصفحات القادمة ، وثمة من الأعياد ما كان يتخذ شكل الاحتفال القومى . على حد تعبيرنا المعاصر ، وذلك لارتباطه بحياة المصريين جميعاً (مثل الاحتفال بوفاء النيل) ، أو لارتباطه بالتراث الموروث عن قدماء المصريين .

وإذا بدأنا بدراسة الأعياد الدينية ، وجدنا أن أهم احتفالات المسلمين وأعيادهم كانت تتركز حول شهر رمضان وإحياء لياليه ، ثم الاحتفال بعيد الفطر فى نهاية شهر رمضان ، ويأتى بعد ذلك الاحتفال بعيد الأضحى المبارك . وعلى مدار السنة الهجرية كانت هناك مواسم ومناسبات دينية حرص المسلمون على إحيائها ، واتخذ بعضها شكل الاحتفال العام مثل دوران المحمل والمولد النبوى .

---

(١) انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٣٢ .

ويبدأ الاحتفال بشهر رمضان باستطلاع هلال الشهر الجديد ، وقد شهد الرحالة ابن بطوطة الاحتفال بهذه المناسبة فى مدينة أبيار (بالقرب من المحلة الكبرى) ووصفه وصفاً دقيقاً فقال :

«وعادتهم أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة . فإذا أتى أحد الفقهاء أو أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلاً : باسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ، ويجلسه فى مجلس يليق به فإذا تكاملوا هناك ، ركبوا جميعاً وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال عندهم . وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل القاضى ومن معه ، فيرقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس . ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ، ويصل الناس مع القاضى إلى داره ثم ينصرفون . هكذا فعلهم فى كل سنة[٣] .

ولاشك فى أن هذه الصورة التى ترسمها كلمات « ابن بطوطة » لاحتفال الناس برؤية هلال شهر رمضان كانت متكررة فى جميع أنحاء البلاد ، وإذا كانت ثمة اختلافات طفيفة ؛ فإن الشكل العام للاحتفال كان واحداً . وتمدنا المصادر التاريخية بما يؤكد هذا ، فإن بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك الحين استرعى انتباهم أن القاهرة فى شهر رمضان كانت تسبح فى الضوء نتيجة الأنوار والمشاعل والشموع والفوانيس فى الطرقات والأسواق وبأيدى الناس[٤] . وقد ذكر ابن الحاج أنه كانت من عادة المصريين فى ذلك العصر أن يعلقوا الفوانيس « . . التى جعلوها علماً على جواز الأكل والشرب وغيرهما مادامت معلقة موقودة . . . »[٥] .

وفى ليالى شهر رمضان كانت أسواق القاهرة والأقاليم تزدهر احتفالاً بهذه المناسبة . وقد لاحظ بعض الرحالة الأجانب أن المطاعم والمطابخ فى العاصمة كانت تظل مفتوحة طوال الليل لكى تستقبل زبائنها[٦] . والواقع أن المصريين ، فى معظمهم ، كانوا لايطهون الطعام فى بيوتهم ، وكانت غالبيتهم من رواد المطاعم ، كما كان بعضهم يرسل ما يحتاج طهيه من طعام إلى حوانيت الشرائحية لتجهيزه[٧] : ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يعولوا على هذه المطابخ والمطاعم فى وجبتى الفطور والسحور .

ومن ناحية أخرى ، كانت بعض الأسواق ترتبط بموسم شهر رمضان ومنها سوق الحلاويين . وسوق الشماعين . ففى هذا الشهر كان سوق الحلاويين يمتلىء بكافة أصناف التماثيل السكرية التى كانت تصنع على هيئة تماثيل الحيوانات من قطط وسباع وغيرها . وكانت هذه التماثيل السكرية تعرف

---

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٦ ـ ص ٢٧ .
(٤) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٨٥ .
(٥) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ .
(٦) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ .
(٧) انظر دراستنا عن الأسواق .

باسم « العلاليق » (ومفردها . . علاقة) . لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت . ويتراوح وزن « العلاقة » ما بين ربع رطل وعشرة أرطال . وكانت أسواق القاهرة والأقاليم تمتلىء بهذه الحلوى التى يحرص الناس على شرائها لأطفالهم وأقاربهم ، كما يحدث الآن فى المولد فى المولد النبوى (٨) .

كذلك كان سوق الشماعين من الأسواق التى ارتبطت بشهر رمضان ففى ليالى هذا الشهر كانت حوانيت السوق تفتح أبوابها إلى ما بعد منتصف الليل . وقد تلألأ السوق بأضواء مختلف أنواع الشموع ، الموكبية والفانوسية والطوافات . وقد ذكر المقريزى فى خططه أن حوانيت هذا السوق كانت تعلق الشموع التى عرفت آنذاك باسم الفوانيس « **فتصير رؤيته من أنزه الأشياء** . . » وفى شهر رمضان كانت تباع بهذا السوق كميات كبيرة من الشموع الموكبية (أى التى تستخدم فى المواكب) ، وكانت الواحدة منها تصل فى وزنها إلى عشرة أرطال . أما الشموع الضخمة التى كانت تصل فى وزنها إلى ما يزيد على قنطار ، فكانت تؤجر لكى تستخدم فى موكب صلاة التراويح . وقد وصف المقريزى لنا هذا الموكب الذى « . . **يعجز البليغ عن حكاية وصفه** . . » فقد كان هذا الموكب يتجمع حول إحدى الشموع الضخمة التى يجرها الأولاد على عجلات ، وقد أمسك كل منهم بفانوسه وهم يهزجون بأغنيات دينية جميلة ، ويطوف الموكب المضئ دروب البلد وأزقته من بعد المغرب حتى موعد صلاة العشاء والتراويح (٩) .

وفى موعد السحور يطوف « المسحراتى » بطبلته مردداً أهازيجه وأغنياته وحوله بعض الأطفال . ويدق بطبلته منادياً أصحاب البيوت الذين يعرفهم . أما فى الإسكندرية فكانوا يدقون الأبواب على أصحاب البيوت « **وينادون عليهم : قوموا كلوا** . . » (١٠) .

وفى ليلة **عيد الفطر** كان بعض الناس يسهرون لتجهيز ملابسهم الجديدة حتى الصباح ، على حين يسهر الأتقياء منهم فى الاستماع إلى القرآن الكريم والأذكار . ومع طلوع النهار يتوجه الرجال لأداء صلاة العيد فى موكب كبير وهم يهللون ويكبرون حتى يصلوا إلى المسجد . ثم تتبادل البيوت التهنئة بالعيد ، كما يتبادلون أطباق الكعك الذى كان تجهيزه يتم خلال الأيام الأخيرة من شهر رمضان . ويبدو أن البعض كان يفضل شراء الكعك جاهزاً ، إذ إن « ابن الحاج » يعيب على معاصريه أنهم يشترون الكعك الذى كان يصنعه اليهود بمناسبة عيد الفطر . وكانت الوجبة الأولى لغالبية الناس فى عيد الفطر من السمك المملح المشقوق . وكان من عادة الناس أن يشتروا الحلوى والتماثيل السكرية ويهادون بها أقاربهم وأصهارهم لاسيما إذا كانت المصاهرة جديدة ، أو إذا لم يكن العريس قد دخل بعروسه بعد (١١).

---

(٨) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٢ ـ ص ١٠٦ . (٩) المصدر نفسه .

(١٠) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(١١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٨ ؛ ابن الحاج ، جـ ١ ، ص٢٨٧ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى . ص١٨٤ ـ ص١٨٦ .

وفى أيام العيد يخرج الناس لزيارة القبور ، ويجتمعون فى القرافة التى كانت من أشهر أماكن التنزه والفرجة . وكانت النساء تركب الدواب فى الذهاب والرجوع من القرافة ، وهناك يجتمع الكل رجالاً ونساء يمزحون ويغنون . كما كان القراء يقرءون القرآن ، وقد عـــاب عليهم ابن الحـاج أنهم كانوا « . . **يقرأون القرآن بالترجيع والزيادة والنقصان ، ورفع الأصوات الخارجة عن حد السمت والوقار . والتمطيط والمد . . على ترتيب هنوك الغناء . .** » [١٢] ، كذلك كان الوعاظ يعظون الناس من فوق الكراسى والمنابر التى أقيمت بين القبور ، كما كان المحدثون من القصاص يروون القصص الدينية للناس الذين يتحلقون حولهم .

كذلك كان البعض يتوجهون إلى شاطئ النيل ويستأجرون القوارب ، وتكتسى صفحة النهر بهذه القوارب وبها الناس يلهون ويطربون ومعهم نساؤهم وأطفالهم .

وفى **عيد الأضحى** كان البعض يجهزون الأضاحى منذ ليلة العيد ، كما كان بعضهم يقضى هذه الليلة فى تجهيز ثيابهم الجديده، وربما يسهر أحدهم عند الخياط حتى ينتهى من إعداد ثياب العيد[١٣] . وجرت عادة بعض الناس على عدم ذبح الأضحية فى الغيد على الرغم من قدرتهم على ذلك ، وكانوا يكتفون بشراء اللحوم من الجزارين ويطبخون منها عدة أصناف .

وبعد صلاة العيد ، التى كان الخروج لأدائها يتم فى موكب يشبه موكب صلاة عيد الفطر ، كان الناس يخرجون لزيارة القبور والتجمع فى القرافـة أيضاً . وكانت النساء تتزين « **وتتجملن بغاية الزينة** » ، وتسير العربات التى تجرها الدواب فى شوارع المدينة ، وفوقها مجموعة من البنات والنساء وهن يغنين وينقرن على الدفوف [١٤] .

ولم تقتصر احتفالات المسلمين على شهر رمضان والعيدين ، وإنما كانت هناك مناسبات أو مواسم دينية أخرى حرص المسلمون على إحيائها ، واتخذ بعضها شكل الاحتفالات العامة .

ففى **أول شهر المحرم** من كل سنة كان المصريون يحتفلون بعيد رأس السنة الهجرية . ويبدو أن الاحتفال بهذه المناسبة كان يقتصر على تبادل التهانى وتوزيع العطايا على الفقراء . ومن العادات المصرية التى ارتبطت بهذه المناسبة أن النساء كن يشترين اللبن حتى تكون السنة بيضاء لا شر فيها[١٥]

وفى **عاشر شهر محرم** كان المسلمون فى مصر يحتفلون بيوم عاشوراء ، وقد جرت عادتهم فى هذا الموسم على ذبح الدجاج وطبخ حبوب القمح ، التى مـــا يزال المصريون يجهزونها حتى اليـوم باسم « عاشوراء » ، ويتهادون بها . كذلك كان من عادة الناس فى يوم عاشوراء أن يتبخروا بالبخور الذى

---

(١٢) ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٦٨ .
(١٣) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .
(١٤) المصدر نفسه ، جـ ١ ص ٢٨٣ ـ ص ٢٩٠ .
(١٥) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٧٧ ، ص ٢٨٨ .

يخزنونه طوال السنة لهذه المناسبة . وكانوا يعتقدون أن السجين إذا بخر بهذا البخور خرج من سجنه وأن هذا البخور يبرئ من العين والحسد . وفى هذا اليوم تتزايد أعداد زوار مشهد زين العابدين ، كما تخصص مسجد عمرو بن العاص للنساء اللاتى يمكثن به طوال اليوم ويتمسحن بالمصاحف والمنبر والجدران وتحت اللوح الأخضر (١٦) .

أما ليلة أول شهر رجب ، فكانت من مواسم المصريين الهامة التى كان الجميع يحتفلون بها على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية . فيشترون لأطفالهم تماثيل الحلوى التى صنعت من السكر على هيئة الخيول والقطط والسباع ، وتمتلئ أسواق القاهرة والفسطاط والأرياف بهذه التماثيل السكرية . وكان العرف يحتم على الناس مهاداة أقاربهم وأصهارهم بهذه الحلوى فى هذا الموسم كما كانوا يفعلون فى غيره من المواسم على نحو ما ذكرنا . وفى المساء يجتمع النساء والرجال حول القراء والمنشدين الذين يقرءون القرآن وينشدون الأغنيات الدينية احتفالاً بهذه المناسبة (١٧) .

وفى ليلة الإسراء والمعراج يجتمع الناس فى أكبر مساجد المدينة ، رجالاً ونساء . وتعلق فى أرجاء المدينة المشاعل والفوانيس والشموع ، كما يفرشون البسط والسجادات داخل المساجد وعليها الأوانى والأباريق التى امتلأت بالمشروبات التى اعتاد الناس احتساءها فى هذا الموسم ، ويستمعون إلى مشاهير قراء عصرهم وهم يرتلون آيات القرآن الكريم (١٨) .

كذلك كانت ليلة نصف شعبان من المناسبات التى يقبل الناس فيها على شـراء الحـلوى لأطفالهم ، وفيها كانت تسطع المساجد بالأضواء ويتحول ليل المدينة إلى نهار ، لأن الناس كانوا يربطون الحبال بالشرفات والأعمدة ويعلقون بها عدداً كبيراً من القناديل المضاءة ، وتمتلئ الجوامع بالرجال وبالنساء والأطفال الذين يحتفلون بهذه المناسبة (١٩) .

أما المولدالنبوى فكان الاحتفال به يتخذ شكلاً من الفخامة والعظمة يتناسب مع ما عرفته الحياة المصرية من رفاهية فى بداية عصر سلاطين المماليك . وكان السلاطين يحرصون على مشاركة رعاياهم فى الاحتفال بهذه المناسبة ، وهو الاحتفال الذى كان يبدأ مع مطلع شهر ربيع الأول ويستمر حتى الثانى عشر منه . ومنذ عهد السلطان الأشرف قايتباى جرت عادة السلاطين على أن يقيموا خيمة كبيرة عجيبة الأوصاف هى « خيمة المولد » ، وعند أبواب هذه الخيمة حوض جلدى قد ملئ بعصير الليمون والسكر ، وقد وقفت طائفة من صغار الخدم يناولون الناس أكواب الليمون بالسكر . وكان الاحتفال الرسمى يبدأ ظهراً ويستمر حتى ساعة متأخرة ، ويبدأ الاحتفال بقراءة القرآن ، ثم يقوم الوعاظ بدورهم ويأخذ كل منهم نصيبه من النقود والملابس التى يمنحها لهم السلطان والأمراء . وبعد صلاة

---

(١٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٣٥ ؛ ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٩٠ .

(١٧) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٩١ ـ ص ٢٩٣ .

(١٨) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٩٤ ـ ص ٢٩٧ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٠٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٦ ـ ص ١٠٣ .

المغرب تمد موائد الحلوى على اختلاف ألوانها ويتخطفها الفقهاء ، وبعد ذلك يبدأ المنشدون بأهازيجهم فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام حتى ثلث الليل (٢٠) .

هذا هو الاحتفال الرسمى ، ولكن الناس كانوا يحتفلون بالمولد النبوى على طريقتهم . فكان من المعتاد أن يقيم الناس الحفلات بهذه المناسبة فى بيوتهم أو أمامها . ويبدأ الاحتفال بالقرآن الكريم الذى يتلوه مشاهير القراء المعروفين بالتطريب وحسن الصوت . ثم يعقب ذلك المنشدون الذين تصاحبهم الآلات الموسيقية ، ويصدحون بالقصائد والأغانى فى مدح النبى ، عليه الصلاة والسلام فإذا ما انتهى المنشدون أقيمت حلقات الذكر « فيقوم الواحد منهم ويعيط وينادى ويبكى ويتباكى ويتخشع ، وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته . . » على حين تطل النساء من أسطح البيوت المجاورة لمشاهدة الاحتفال المقام أمام المنزل . كذلك كانت تقام فى داخل البيوت حفلات نسائية احتفالاً بهذه المناسبة وتلتف النساء حول إحدى محترفات الوعظ لسماع حديثها الدينى .

وكان بعض الناس الأتقياء يتحرج من أن يحتفل بالمولد النبوى فى بيته بالأغانى ومن ثم يكتفى بأن يحضر أحد القراء لتلاوة القرآن الكريم ، ويقتصر الاحتفال على هذه التلاوة ، وعلى حلقات الذكر .

ومن الطريف أن البعض كانوا يحتفلون بالمولد النبوى بغية استرداد الهدايا والنقوط التى كانوا قد أهدوها للآخرين فى المواسم والأفراح ، وهو ما يكشف عن أن المصريين كانوا يتبادلون النقوط والهدايا فى هذه المناسبة (٢١) .

وفى عصر المماليك اتخذ موسم الحج مظهراً اجتماعياً جعل منه مناسبة هامة فى حياة أبناء مصر فى ذلك الحين . فقد كان هذا الموسم محط اهتمام الجميع ، سواء كانوا على كراسى الحكم ، أم كانوا من عامة الناس . وفى هذا الموسم كانت تسرى الحركة والنشاط فى أوصال المجتمع المصرى فتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج ويستعد أهل الدولة والمماليك للسفر فى ركب الحاج ، على حين ينتظر أبناء الرعية هذا الاحتفال بشوق وشغف .

ويحتفل المصريون بهذا الموسم فى الاحتفال الذى عرف **بدوران المحمل** (٢٢) . والجدير بالذكر أن سلاطين المماليك قد اهتموا اهتماماً كبيراً بكسوة الكعبة فى إطار حرصهم على الواجهة الدينية لحكمهم ، والظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين (٢٣) .

---

(٢٠) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٧٧ ـ ص ١٨٠ .

(٢١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٥ .

(٢٢) كان السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى هو أول من أدار المحمل بمصر سنة ٦٥٧ هـ انظر المقريزى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ١١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٨٨ .

(٢٣) المعروف أن العرب كانوا يكسون الكعبة فى جاهليتهمْ ، واستمرت كسوتها بعد الإسلام . وحين سقطت الخلافة العباسية تولى سلاطين المماليك كسوة الكعبة . وكانت الكسوة تصنع من الحرير الأسود المرقوم بالحرير الأبيض ، ثم صارت الكتابة باللون الأصفر المشعر بالذهب . وكان هناك موظف هو « ناظر الكسوة » يشرف على إعدادها من الأموال التى أوقفت لهذا الغرض (القلقشندى) ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٥٨٧ ابن ظهيرة ، الفضائل =

وكانت كسوة الكعبة توضع على جمل مزين يطوف القاهرة والفسطاط ، وكان المحمل يدور مرتين فى العام ، وكان المصريون على اختلاف مشاربهم يحرصون على المشاركة فى الاحتفال بدوران المحمل . وكانت المرة الأولى لدوران المحمل فى نصف رجب ، أما المرة الثانية فكانت فى شوال . وفى رجب يظل المنادون يجوبون شوارع القاهرة والفسطاط وينادون فى الأسواق بموعد دوران المحمل ، وذلك قبل الموعد بثلاثة أيام يتكرر النداء خلالها ودعوة الناس إلى المشاركة فى الاحتفال . ويقوم أصحاب الحوانيت التى سيمر بها المحمل بتزيينها ، وهناك تبيت النسوة والأطفال حتى يتمكنوا من مشاهدة موكب الاحتفال فى اليوم التالى . ويكون دوران المحمل فى يوم الاثنين أو الخميس . وعلى طول الطريق تحتشد الجموع لمشاهدة موكب المحمل الذى يشق طريقه من باب النصر حتى ميدان الرميلة تحت القلعة . ويسير جمل المحمل وهو يتهادى وعليه الحرير الملون وفوقه المحمل قد غطى بالحرير تعلوه قبة فضية . وأمام هذا الموكب تركض كوكبة من فرسان المماليك بملابس الميدان الزاهية ومعداتهم وأسلحتهم تخطف الأبصار ببريقها . وينتزعون إعجاب المشاهدين وهم يستعرضون مهاراتهم فى القتال بالرماح . وفى الموكب مجموعة من صغار المماليك يقومون بأداء بعض الألعاب البهلوانية بالرماح وهم وقوف على ظهور الخيل . وتختلط أصوات الجماهير الصاخبة بدقات الطبول والموسيقى النحاسية ، ويمضى الموكب الصاخب إلى ميدان الرميلة حيث يطل السلطان عليه من القلعة ، وتشتد جلبة الاحتفال والمحتفلين ويقوم المماليك باستعراض مهاراتهم أمام السلطان . ثم تتجه الجموع إلى الفسطاط حيث يخترق الشوارع الرئيسية ليعود مرة ثانية إلى ميدان الرميلة . وكان هذا الاحتفال الصاخب يتكرر مرة أخرى فى شهر شوال . وفى هذه المرة لا يتوجه إلى الفسطاط وإنما يخرج إلى الريدانية مباشرة فى طريقه إلى الحجاز .

ويخرج موكب الحج على هذا الشكل المهيب يقوده أحد كبار أمراء المماليك ويلحق به من يريد الحج من الناس . وكان من الضرورى لركب الحج أن يضم بين أفراده عدداً من الأطباء والأدلة والمؤذنين والقاضى والشهود والأمناء وحتى مغسل الموتى (٢٤) .

أما أعياد أهل الذمة ، فقد كان الاحتفال ببعضها قاصراً على أبناء الطائفة وحدهم على حين شاركهم المسلمون الاحتفال ببعض أعيادهم . ويبدو من مصادر تلك الفترة أن اليهود على نحو خاص قد اقتصروا فى احتفالاتهم على أبناء الطائفة فقط . وكانت للطوائف اليهودية فى مصر زمن المماليك عدة أعياد يتصل بعضها بشريعتهم ، ويتعلق البعض الآخر بتاريخهم وتراثهم .

= الباهرة، ص ١٩٩ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٠١ ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك ص ٤٣ ـ ص ٤٤ السيوطى ، حسن المحاضرة ؛ جـ١ ص ٨٨) .

(٢٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٥٧ ـ ص ٥٨ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٩٩ ـ ص٢٠٠، السيوطى ؛ حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٤٢ ـ ص ٤٣ ؛ ابن الحاج المدخل ، جـ١ ـ ص ٢٧٢ ـ ص ٢٧٥ .

وكانت الأعياد اليهودية الشرعية خمسة أعياد أولها « عيد رأس السنة » واسمه العبرى القديم «راش هيشا » وبالعبرية الحديثة « روش هشاناه » وهو عندهم عيد يقدمون فيه الأضاحى فى ذكرى افتداء إسماعيل ، ويحل أول شهر تشرى اليهودى ، ويعتبر هذا العيد أيضاً عيد عتق وحرية عند اليهود لأنه يرتبط بخلاصهم من فرعون . وقد أسماه المقريزى « عيد البشارة » (٢٥) وثمة اختلافات بين طريقة كل من الربانين والقرائين فى الاحتفال بهذا العيد رصدتها مصادر تلك الفترة إذ كان الربانون ينفخون الأبواق فى معابدهم أثناء الصلاة ، اعتماداً على تفسيرهم لبعض النصوص المقدسة المتعلقة بهذا الاحتفال ، على حين اكتفى القراءون بالصلاة والتهليل حمداً وشكراً لله لأنه يوم عتق رقاب بالنسبة لهم (٢٦) .

والعيد اليهودى الثانى هو « عيد صومماريا » أو « الكبور » ، وهو يوم الغفران عندهم وعقوبة من لايصوم هذا اليوم أن يقتل. ويرى بعض الباحثين أن هذا العيد الذى يرجع إلى عصور العبرانيين الأولى مرتبط بأصول الشريعة اليهودية التى قررت يوماً فى العام لحساب الذات . وأن اليهود ، من طول ما عانوه من اضطهادات على طول تاريخهم ، جعلوا هذا اليوم لنقض مواثيقهم وأكل الديون التى يدينون بها لغير اليهود ، مما سبب معارضة بعض فقهاء اليهود فى العصر الحديث (٢٧) .

أما عيد « المظلة » أو عيد « الظلل » فكان الاحتفال به يبدأ فى الخامس عشر من شهر تشرى ويستمر سبعة أيام يعيدون فى أولها ، واليوم الثامن هو عيد الاعتكاف عند الربانين . وفى هذا العيد يحتفل اليهود بذكرى الغمام الذى أظلهم الله به فى التيه ، فيجلسون تحت سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون وغيرها من الأشجار الدائمة الخضرة (٢٨) .

والعيد الرابع هو عيد الفطير الذى سمى أيضاً بعيد الفصح ، وهو أيضاً يتصل بذكريات خروجهم من مصر . ويحل موعده فى خامس عشر شهر نيسان اليهودى . وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به ، فهى سبعة عند القرائين ، وثمانية أيام عند الربانين ، وستة فقط عند السامرة ، ويعتبر هذا العيد أيضاً من أعياد التضحية ومواسم الحج لدى اليهود . وبينما يحج الربانون والقراءون فى هذا العيد إلى بيت المقدس ويضحون على الصخرة المقدسة ، يحج السامرة على جبل جرزيم القريب من نابلس فى فلسطين ويضحون هناك (٢٩) .

---

(٢٥) المقريزى ، الخطط جـ٢ ص ٤٧١ .

(٢٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص٤٢٦ ـ ص ٤٢٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧١ يتبع النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٨٧ ـ ص ١٨٩ ؛ مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص ١٢٤ ـ ص ١٢٥ حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ١٩٤ ـ ص ١٩٨ .

(٢٧) حسن ظاظا ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ ـ ص ٢٠٣ .

(٢٨) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٧٢ .

(٢٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص ٢٦٨ ـ ص ٢٦٩ ؛ عزرا حداد ؛ رحلة بنيامين البطيلى ، ص ١٨٥ ـ ص ١٩٠ .

وخامس أعياد اليهود الشرعية هو عيد « الأسابيع » أو « العنصرة » أو « الخطاب » الذى يحتفلون فيه بذكرى الوصايا العشر التى أنزلها الله على نبيه موسى عليه السلام . وهذا العيد يحل فى السادس من شهر سيوان اليهودى . وكان اليهود يصنعون القطائف ويتفننون فى صنعها لكى يأكلوها فى هذا العيد فى ذكرى المن الذى أنزله الله عليهم فى التيه (٣٠) .

وأشهر الأعياد التى استحدثها اليهود من واقع تاريخهم عيد الفوز « البوريم » وعيد « الحنكة » أو «الحانوكة» .

وعيد الفوز هو ذكرى انتصار اليهود على الوزير الفارسى « هامان » الذى أخذته الغيرة من اليهود وأراد القضاء عليهم . ولكن نفوذ أستير الجميلة لدى الإمبراطور الفارسى جعله يقتل هامان ورجاله . على ما يحكيه سفر أستير عن الأسر البابلى لليهود . ويبدأ هذا العيد بصيام (صيام استير) يستمر من الثالث عشر من آذار حتى الخامس عشر منه ، ثم يقيم اليهود مهرجاناً صاخباً يحرقون فيه تمثالاً من الورق المملوء بالنخالة رمزاً لهامان . ويبدو أن هذا العيد كان يرتبط بمظاهر اللهو والخلاعة فى عصر المماليك لدرجة جعلت المؤرخين المسلمين يطلقون عليه اسم « عيد المساخر » أو « عيد المسخرة » . وكان اليهود يتبادلون الهدايا والهبات فى هذا العيد(٣١) .

أما عيد « الحانوكة » أو « الحنكة » فكان الاحتفال به يستمر على مدى ثمانية أيام تبدأ فى ليلة الخامس والعشرين من شهر كسليو فى ذكرى انتصار اليهود على « انتيوخوس ابيفانس » الذى حاول إرغام اليهود على عبادة الأصنام ، ولكنهم استعادوا هيكلهم وطهروه من الأصنام . والكلمة العبرية « حانوكة » تعنى التنظيف لأن اليهود نظفوا الهيكل من تماثيل آلهة اليونانيين . وفى عصر المماليك كان اليهود يوقدون المصابيح على أبواب دورهم ، وفقاً لعد تصاعدى ، ففى الليلة الأولى يوقدون قنديلاً واحداً ، وفى الليلة الثانية قنديلين . . . وهكذا حتى تتم ثمانية قناديل فى اليوم الثامن . ولم يكن القراءون يعترفون بهذا العيد على الإطلاق كما أن السامرة لم يهتموا به (٣٢) .

ويبدو من خلال المصادر العربية أن المصريين من المسلمين والمسيحيين لم يكونوا يساهمون فى إحياء هذه الأعياد بشكل فعال ، وربما لم يكونوا يساهمون فيها على الإطلاق نظراً لما اشتهر به اليهود من الحرص على العزلة .

أما النصارى فقد عددت المصادر لهم سبعة أعياد كبار ، وسبعة أعياد صغار (٣٣) . وأول الأعياد

---

(٣٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص ٤٢٦ ، المقريزى الخطط جـ٢ ـ ص ٤٧٢ .

(٣١) تاريخ ابن الوردى ، جـ١ ، ص ٧٨ ، النويرى نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ١٨٩ قاسم عبده قاسم أهل الذمة ص ١٢٦ ـ ص ١٢٧ .

(٣٢) النويرى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٨ ، القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ ـ ص٤٢٨ ؛ المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٤٧٢ .

(٣٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ٤١٥ ـ ص ٤١٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٦٣ ـ ص٢٦٥ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ١٨٣ ـ ص ١٨٦ ؛ ابن إياس ، نزهة الأمم فى الغرائب والحكم ، ص ٢١٩ ـ ص ٢٢٣ .

الكبار هو عيد البشارة فى التاسع والعشرين من برمهات فى ذكرى البشارة التى ساقها غبريال (جبريل عليه السلام) إلى مريم العذراء بمولد المسيح عليه السلام .

والعيد الثانى هو عيد الزيتونة (أو الشعانين ومعناها التسبيح) فى ذكرى دخول المسيح إلى القدس، ثم دخوله الهيكل . وفى عصر المماليك كان المسيحيون يخرجون إلى الأماكن الخلوية والمتنزهات لاسيما فى ضاحية المطرية حيث كان يوجد بئر البلسم التى يعتقد المسيحيون أن مريم العذراء غسلت فيه ثياب المسيح (٣٤) .

وكان العيد الثالث هو عيد الفصح الذى يفطرون فيه ، ويحتفلون فيه بذكرى قيام المسيح من قبره - حسب اعتقادهم - واجتماعه مع حوارييه وتناول الطعام معهم .

أما العيد الرابع فيتصل بالتراث الدينى المسيحى الذى يقول إن السيد المسيح صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامه وذلك بعد أن أكمل ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، ويسمى هذا العيد «خميس الأربعين» .

والعيد الخامس هو « عيد الخميس » أو « عيد العنصرة » فى السادس والعشرين من شهر بشنس . ويعتقد المسيحيون أنه فى هذا اليوم حلت روح القدس فى حواريى المسيح بعد أن تجلى لهم روح القدس فى شبه ألسنة من نار ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع اللغات ، وذهب كل منهم إلى البلد التى يعرف لغتها للدعوة إلى دين المسيح .

وفى «عيد الميلاد» الذى يحل فى التاسع والعشرين من كيهك كان النصارى يوقدون المصابيح بالكنائس ويزينونها . ويلعبون بالمشاعل . ويقول المقريزى إنـــه شاهـــد احتفالات الميلاد التى كانت «موسما جليلا» ،تباع فيه الشموع المصبوغة بالألوان الرائعة ويشتريها الناس جميعاً،ويزدهر سوق الشماعين لهذا السبب. وقد عرفت هذه الشموع باسم الفوانيس،وقد بالغ الناس فى الإنفاق على تزيينها (٣٥) .

والعيد السابع من أعياد النصارى الكبار هو عيد الغطاس الذى كان النصارى يحتفلون به فى حادى عشر طوبة فى ذكرى تعميد المسيح عليه السلام على يد يوحنا المعمدان (النبى يحيى بن زكريا عليهما السلام) فى مياه الأردن ، وفى هذا العيد كان النصارى يغمسون أولادهم فى المياه على الرغم من شدة البرد اعتقاداً منهم أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم (٣٦) .

أما أعياد المسيحيين الصغار فكانت سبعة أيضاً (٣٧) والجدير بالذكر أنه كانت للنصارى فى مصر أعياد أخرى غير تلك الأعياد الشرعية « . . . لكنها عندهم من المواسم الشرعية . . . » . وقد أحصى

---

(٣٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٥٩ - ص ٦٠ .
(٣٥) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ؛ ص ٢٦٣ - ص ٢٦٥ .
(٣٦) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .
(٣٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص ١٢٠ - ص ١٢٣ .

القلقشندى من هذه الأعياد والمواسم المسيحية مائة وثمانية وسبعين عيداً وموسماً موزعة على شهور السنة القبطية (٣٨) وقد انفرد الأقباط ببعض الأعياد التى اتخذ الاحتفال بها شكلاً عاماً وشارك المسلمون فى الاحتفال بها .

فقد احتفل المسلمون مع المسيحيين ببعض الأعياد المسيحية ذات الطابع الدينى البحت مثل عيد الميلاد الذى كان المصريون يصنعون فيه نوعاً من العصيدة ويزعمون أن من يأكلها يتقى البرد طوال السنة (٣٩) . وشاهد المقريزى احتفالات هذا العيد التى كانت تفيض بالبهجة والسرور قبل تدهور الأحوال مع بداية القرن الخامس عشر ، وفى هذا العيد كان الناس يتنافسون على شراء الشموع المصبوغة (الفوانيس) ويعلقونها فى الأسواق وعلى أبواب الحوانيت حتى أن المقريزى يقرر أنه شاهد شمعة تكلفت ألفاً وخمسمائة درهم . ومن الطريف أن بعض الشحاذين فى الطرقات كانوا يسألون الناس أن يتصدقوا عليهم بفانوس « . . . **فيشترى لهم من صغار الفوانيس ما يبلغ ثمنه الدرهم وما حوله . . .** » (٤٠) .

وفى عيد الغطاس كان بعض المسلمين يشاركون المسيحيين عادة غمس أطفالهم فى المياه الباردة لاعتقادهم أن ذلك يمنع عنهم المرض فى حياتهم (٤١) .

وفى خميس العهد ، أو خميس العدس ، كما درج الناس على تسميته آنذاك من باب الدعابة ، كان المسيحيون يهدون إلى المسلمين أنواع العدس المصفى والسمك المقلى والبيض الملون . وكان من عادة النساء أن تخرجن فى هذا اليوم إلى الأسواق لشراء الخواتم والبخور الذى يطلقنه فى بيوتهن حتى تصرف عنها العين والحسد والكسل والأمراض (٤٢) . وكان هذا العيد المسيحى من المواسم المصرية الهامة فى زمن المماليك ، وكانت تباع فى الأسواق كميات هائلة من البيض الملون مما كان يغرى العبيد والصبيان والغوغاء بأن يقامروا بها ، فينتدب المحتسب بعض أعوانه لكى يعاقبهم على ذلك (٤٣) . وكان الناس من كافة الشرائح الاجتماعية يشتركون فى الاحتفال ببعض الأعياد المسيحية ، ويزيدون النفقة فى تلك الأعياد لإدخال السرور على أهلهم ، كما كانوا يتبادلون الهدايا مع أهل الذمة فى أعيادهم (٤٤) .

وفى سنة ٨٣٦ هـ (١٤٣٢ م) حدثت مصادفة غريبة ، إذ توافقت بداية السنة الهجرية مع السنة القبطية والسنة اليهودية (٤٥) وهكذا احتفل أبناء الديانات الثلاث بأعيادهم فى وقت واحد .

---

(٣٨) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ٤٢٠ ـ ص ٤٢٥ .
(٣٩) ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .
(٤٠) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣ ـ ص ٢٦٥ .
(٤١) ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .
(٤٢) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٤ .
(٤٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٦٥ ؛ ابن إياس ، نزهة الأمم ، ص ٢١٩ ـ ص ٢٢٣ .
(٤٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ص ٤٦ ـ ص ٤٨ .
(٤٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٨٨٠ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ص ٢٤٨ .

ومن أشهر الأعيــاد التى اتخذت طابعاً عاماً فى عصر سلاطين المماليك عيد وفاء النيل وكسر الخليج ، فقد كــان فيضان النيل السنوى محط اهتمام المصريين على اختلاف مشاربهم ، يرقبون موعده، ويحسبون حسابــه ، ولا غــرو فقد كان النيل ، ولايزال ، هو قوام الحياة المصرية وعليه مدارها . وكان المصريون يهتمون بقياس مقدار الزيادة التى يسببها فيضان النهر يوماً بيوم . ففى السادس والعشرين من شهر بؤونة القبطى كان يؤخذ قاع النهر (أى يقاس ارتفاع منسوب الماء القديم فى النهر ليكون أساساً تحسب عليه الزيادة) . ويبدأ إعلام الناس بمقدار الزيادة منذ اليوم التالى مباشرة . وفى عصر كل يوم يقيس المشرف على مقياس النيل فى جزيرة الروضة مقدار زيادة مياه النيل . لكى يعلنها المنادون فى الطرقات والأسواق حتى يطمئن الناس . ويذكر بيلوتى الكريتى Piloté de Crète ، الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر أنه شاهد فى زمن الفيضان عدة فرسان يخرجون كل يوم وهم يرفعون الأعلام فوق أكتافهم ، ثم يتجهون إلى المقياس لكى يعرفوا مقدار زيادة النهر ثم يسيرون خلال الشوارع والطرقات يصيحون « أن النهر زاد كذا » (٤٦) . وهؤلاء الفرسان الذين وصفهم بيلوتى هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم « منادو البحر » (٤٧) . ويبدو دورهم مشابهاً لدور وسائل الإعلام فى عصرنا الحاضر من حيث نقل أخبار الفيضان اليومية إلى الناس .

وحين يكمل النهر ستة عشر ذراعاً (علامة الوفاء) يبدأ « منادو البحر » فى التصريح بعدد الأذرع، وعلامة الوفاء أن يُسْدَل الستار الخليفتى على الشباك الكبير فى صدر مبنى المقياس بجزيرة الروضة ، فإذا شاهده الناس استبشروا بالوفاء (٤٨) .

ويكون ذلك إيذاناً ببدء المهرجان الشعبى الضخم احتفالاً بهذه المناسبة التى يشارك الجميع فى إحيائها باعتبارها عيداً عاماً « قومياً » . وكانت تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج كل مظاهر الفخامة والعظمة التى ميزت عصر سلاطين المماليك فى شطره الأول .

ويبدأ الاحتفال بتعليق الستار الخليفتى بلونه الأصفر على الشباك الكبير فى الجهة الشرقية من دار المقياس . وتكون تلك الليلة من الليالى البهيجة فى القاهرة والفسطاط ، إذ يوقد الناس عدداً هائلاً من القناديل والشموع فيتحول ليل القاهرة إلى نهار من كثرة الأضواء . ثم يحضر كبار الأمراء ، ومعهم الأستادار (المشرف على البيوت السلطانية) ثم توزع الخلع على من له عادة فى هذا الموسم . ثم يحضر القارئون ويتناوبون قراءة القرآن الكريم فى دار المقياس طوال الليل . ويعقبهم المغنون والمنشدون الذين يغنون طوال الليل (٤٩) .

---

(٤٦) Dopp, L'Egypte au Commencement du quanzieme siecle , pp . 20 - 21 . .

(٤٧) السيوطى ، كوكب الروضة ، (مخطوط) ، ق ٤٧ .

(٤٨) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ . ص ٢٩٧ .

(٤٩) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ص ١١٤ ـ ١١٥ .

وفى صباح اليوم التالى تمد مائدة حافلة بأنواع اللحوم المشوية والحلوى والفاكهة ويحضر السلطان أو من ينوب عنه من أمراء المماليك ، ويتخاطف العامة أنواع المأكولات « **ولايمنع أحد من ذلك . .** » . وفى بعض الأحيان كان يجبى من سكان العاصمة ثمن المأكولات التى تجهز لهذا الاحتفال ، وقد أبطل السلطان المنصور قلاوون ذلك وجعل نفقات الاحتفال من بيت المال (٥٠) .

وبعد الانتهاء من الأكل يبدأ احتفال وفاء النيل وكسر الخليج وهو مرحلتان : تخليق المقياس . وكسر سد الخليج . وكانت المرحلة الثانية من الاحتفال تتم فى اليوم الثالث أو الرابع من المرحلة الأولى فى العصر الفاطمى ، ولكن الاحتفال صار يتم بمرحلتيه فى يوم واحد أيام المماليك (٥١) .

ويبدأ الاحتفال بنزول السلطان « أو من ينوب عنه » من قلعة الجبل ، وفى خدمته كبار الأمراء من قادة الجيش وخواص الدولة . ثم ينزلون إلى النهر ويركبون المراكب التى تزينها الأعلام الملونة والشارات الزاهية وغيرها من الزينات ، وتدق الطبول وتطلق الألعاب النارية (النفوط) من المراكب حتى يصل الموكب النهرى إلى دار المقياس . وبعد الفراغ من الطعام الذى سبقت الإشارة إليه ، يذاب الزعفران فى ماء الورد بإناء فضى ، ويعطى السلطان هذا الإناء للمسئول عن المقياس الذى يلقى بنفسه . بكامل ملابسه ، فى فسقية المقياس ومعه ذلك الإناء الفضى فيخلق عمود المقياس (أى يدهنه بالعطر) . ثم يخرج السلطان أو نائبه فيجلس بالشباك الكبير تحت الستار ويفرق الخلع والتشاريف على « **من له عادة بذلك** » ، مثل والى الفسطاط وريس (قائد) مركب السلطان المعروفة باسم الذهبية ، ورؤساء مراكب الأمراء . ثم يركب السلطان « الذهبية » (وهى السفينة السلطانية) وحولها مراكب الأمراء المزينة بكافة أنواع الزينات وقد اختفت صفحة النهر تحت عشرات المراكب والقوارب المليئة بالمتفرجين يسيرون خلف مركب السلطان ومراكب الأمراء حتى فم الخليج (٥٢) .

وفى موقع سد الخليج يكون نائب السلطنة أو حاجب الحجاب منتظراً ومعه بعض كبار الأمراء فوق قنطرة السد . وهناك يتوجه السلطان بفرسه من فم الخليج حتى موقع السد البرانى ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ضربات ثلاثا ، ثم يركب ثانية ، فيأتى جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون هذا السد حتى يجرى الماء فى الخليج ، ثم ينصرف السلطان إلى القلعة (٥٣) . والواقع أن قليلين من السلاطين كانوا يحرصون على حضور الاحتفال بأنفسهم ، مما جعل المؤرخين

---

(٥٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢١ . (بولاق)

(٥١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ص ٥١٢ ـ ٥١٤ .

(٥٢) الكتبى ، مباهج الفكر ومناهج العبر (مخطوط) ، جـ ١ ، ق ٨٦ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص٣٠٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن شاهين الظاهرى ؛ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص ٨٧ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٥٣) Dopp, L'Egypte, p. 21.

يجدون فى اشتراك السلطان بنفسه فى هذه الاحتفالات أمراً جديراً بالتسجيل(٥٤) .

ولما كان الاحتفال بوفاء النيل يتم نهاراً فقد ربط بعض المفسرين بين قـوله تعالى إخباراً عن فرعـون « قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى » ، وبين الاحتفال بوفاء النهر على أساس أنه يكون فى وقت الضحى (٥٥) .

ولم تكن احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج هى المظهر الاجتماعى الوحيد المرتبط بنهر النيل بل إن من الأعياد الدينية الطابع ما ارتبط بالنهر ارتباطاً مباشراً مثل « عيد الشهيد » ، « وعيد النيروز » .

وقد اتخذ الاحتفال بعيد الشهيد طابعاً دينياً وعاماً فى آن واحد ، وكان موعده السنوى فى ثامن شهر بشنس القبطى . ويتم الاحتفال على شكل مهرجان كبير على ساحل النيل بناحية شبرا . وهو يرتبط بما كان أقباط مصر آنذاك يزعمونه من أن النيل لا يزيد فى موسم الفيضان إلا بعد غسل أصبع أحد القديسين فى مائه . وكان هذا الأصبع يحفظ فى تابوت بكنيسة فى شبرا ، وقيل إنه إصبع أحد أسلافهم من الشهداء (٥٦) .

وفى هذا العيد يتوافد الأقباط من شتى أنحاء البلاد ، كما يخرج أهل العاصمة على اختلاف أديانهم واهتماماتهم إلى ساحل شبرا لمشاهدة هذا المهرجان الضخم ، حيث تقام الخيام بأعداد هائلة على ساحل النيل وفوق الجزر ، ويحفل المهرجان بشتى صنوف اللهو والمرح ، فيجتمع الفرسان بخيولهم التى يرقصون بها على إيقاعات الطبول وأنغام الزمور ويجتمع المطربون من البدو وغيرهم من كل أنحاء البلاد . . « ولا يبقى مغن ومغنية ، ولا ولا رب ملعوب ، ولا بغى ولا مخّنث ، ولا باض ولا خليع ، ولا فاسق ولا فاتك ، إلا ويخرج لهذا العيد . . . » . وكانت تصحب هذا العيد مظاهر الفساد والانحلال والفوضى ، إذ ترتكب المعاصى علانية ، وتثور الفتن ، وتقع حوادث القتل (٥٧) .

وفى بعض الأحيان كانت الاحتفالات بهذا العيد تمتد إلى يومين بثلاث ليال (٥٨) . كما كان فلاحو شبرا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمور فى هذا العيد للوفاء بما عليهم من الخراج (٥٩) مما يبين مقدار الخمور التى كانت تستهلك فى هذا العيد .

وفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠١ م) أبطل الأمير بيبرس الجاشنكير الاحتفال بهذا العيد بسبب مظاهر الفساد والانحلال التى كانت تصحبه، وحاول الأقباط إعادته ثانية لقاء مبلغ من المال ولكنهم فشلوا . وظل الأمر على ما هو عليه حتى سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧م) حينما أعاد السلطان الناصر محمد

---

(٥٤) السيوطى حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ ، كوكب الروضة (مخطوط) ق ٩٨ .

(٥٥) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٠ .

(٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٨ ، السلوك ، جـ ١ ص ٩٤١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ . ص ٢٠٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٥٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٨ ؛ السيوطى ، كوكب الروضة ، ق ١٣١ .

(٥٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ص ٤٥١ ـ ص ٤٥٢ .

(٥٩) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٩٤١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٩ .

ابن قلاوون الاحتفال به لسبب غريب هو أن الأمير « يلبغا اليحياوى » والأمير « الطنبغا الماردينى » طلبا الخروج للصيد ، ولكن السلطان لم يوافق « لشدة غرامه بهما وتهتكه فى محبتهما . . . » ، فعمل عيد الشهيد ليصرفهما من ذلك . وكانت مدة إبطاله ستا وثلاثين سنة ، ثم أبطل الاحتفال به نهائياً سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٣م) بعد أن هدم الأمير « صرغتمش » الكنيسة ، وأحرق التابوت الذى فيه الإصبع بحضور السلطان ثم ذرى رماده فى النهر [٦٠] .

وثمة عيد عام آخر هو « عيد النيروز » ، وهو عيد رأس السنة القبطية فى أول شهر توت . ويغلب على الظن أن عادة الاحتفال بهذا العيد متوارثة عن قدماء المصريين على الرغم من اسمه الفارسى (ومعناه اليوم الجديد) ، فقد كان المصريون فى عصر الفراعنة يحتفلون بهذا اليوم إكراماً لنهر النيل . وقد اعتبر هذا العيد عيد الربيع الذى تبدأ بعده زيادة مياه النهر الذى يستكمل مياهه فى الخريف أو أواخر الصيف . ولعل هذا هو ما يفسر لنا السبب فى أن المصريين جميعاً ، بغض النظر عن دياناتهم . كانوا يشاركون فى الاحتفال بهذا العيد .

وفى عصر سلاطين المماليك كان الاحتفال بعيد النيروز يأخذ شكل الاحتفالات القومية العامة[٦١]، إذ اعتبر ذلك اليوم بمثابة عطلة عامة ، فكانت الأسواق تغلق فى ذلك اليوم كما كانت المدارس تعطل .

وإذا ما حل عيد النيروز دبت الحركة والنشاط فى الشوارع والطرقات . ففى شوارع القاهرة وأزقتها كان بعض العامة يتجمعون فى موكب (كرنفال) يطوف القاهرة حول شخص يركب حماراً ، وقد دهن وجهه بالدقيق أو الجير ، ووضع لحية مستعارة ، ويرتدى ثوباً أحمر أو أصفر ، وعلى رأسه طرطور طويل ، ويمسك كل من المحيطين به بالجريد الأخضر وسعف النخيل وشماريخ البلح . وفى يد الشخص دفتر وقلم . ويجول ذلك الموكب الصاخب العابث فى شوارع المدينة وأزقتها ، ويطرق أبواب البيوت ، ويدخل الأسواق ويمر على الحوانيت لتحصيل النقود على شكل الإتاوات . وإذا امتنع أحد عن إعطائهم ما يريدون صبوا عليه وابلاً من الشتائم والكلام الفاحش ، وربما رشوه بالماء القذر . أما من يغلق بابه دونهم ، فكان يتعرض لما هو أكثر من ذلك[٦٢] .

وفى الطرقات يقف بعض الناس يتراجمون بالبيض ، ويتضاربون بأنطاع الجلود ويتراشون بالماء . فلا يجسر أحد على الخروج من بيته [٦٣] . بل إن بعض كبار القوم كانوا يفعلون ذلك فى بساتينهم وداخل بيوتهم [٦٤] .

---

(٦٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ص ٩٢٦ . ويذكر السيوطى (حسن المحاضرة ، ص ٢٩٩) وابن تغرى بردى (النجوم : جـ٨ ، ص ٢٠٢) أن هـذا العيد قد أبطل نهائيا منذ سنة ٧٠٢ هـ .

(٦١) شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢٧٨ ، ابن الحاج ، المدخل جـ٢ ، ص ٤٩ ص ٥٠ ، المقريزى . الخطط . جـ١ ، ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٨ ، ابن إياس ، نزهة الأمم ق ٢٢٣ ـ ق ٢٢٧ .

(٦٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٥٢ ـ ص ٥٣ ، ابن إياس ؛ نزهة الأمم ؛ ص ٢٢٥ ب ، يتبع .

(٦٣) ابن إياس ، نزهة الأمم ، ق ٢٢٣ ـ ق ٢٢٧ . (٦٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ٤٩ .

ويبدو أن ذلك اليوم قد اعتبر بمثابة راحة أو عطلة عامة يتحرر الناس فيها من جميع قيود حياتهم اليومية وتقاليدهم بما فى ذلك سطوة القانون ، فلم يكن الوالى يحكم لأحد ممن ينالهم الضرر من جراء الجرائم والحوادث التى كانت تحدث فى يوم النيروز (٦٥) .

وفى بعض الأحيان كان الأمر يخرج عن نطاق المعقول والمحتمل ، مما كان يدفع بالحكام إلى فرض العقوبات ومنع بعض مظاهر هذا الاحتفال . ففى سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠م) نودى فى القاهرة والفسطاط بمنع اللعب بالماء فى يوم النيروز ، وهدد من يفعل ذلك بضربه ومصادرة أمواله ، وأمسك أربعة من المخالفين فضربوا وشهروا ، فكف الناس عن ذلك (٦٦) . فقد أبطل الأمير الكبير برقــوق (قبل أن يتولى العرش) الكثير من مظاهر الاحتفال بعيد النيروز ، لاسيما التراجم بالبيض ، والتصافع بالجلود، والتراش بالماء (٦٧) وعلى الرغم من أن السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أعاد الاحتفال بهذا العيد ، ولكن مظاهر هذا الاحتفال تواضعت إلى حد كبير بسبب الأزمات التى توالت على البلاد منذ منتصف القرن الثامن الهجرى (١٤م) (٦٨) .

وارتبطت بالاحتفال بعيد النيروز بعض الأطعمة والحلوى التى كان المعاصرون يحرصون على توفيرها فى هذا اليوم حتى صارت من لوازم ذلك الاحتفال ، وربما نشأت المشاكل بسببها داخل البيوت . ومن هذه الأطعمة والحلوى ، الزلابية والهريسة التى كان بعض الناس يحضرون الصانع ليبيت عندهم ليجهزها قبل طلوع النهار . وفى هذا العيد كان المصريون يتهادون بهذه الحلوى . كذلك جرت العادة على أن تؤكل فى هذا اليوم أنواع معينة من الفواكه مثل البطيخ والخوخ والبلح « . . وغير ذلك مما تلزمه النساء لأزواجهن . . . » (٦٩) .

هذه ، بشكل عام ، أهم أعياد المصريين الدينية واحتفالاتهم العامة . ولعل الصورة التى حاولنا رسم ملامحها من خلال المعلومات التى أمدتنا بها المصادر التاريخية لذلك العصر الزاخر بالأحداث والمتناقضات ، تشى بحياة زاهية صاخبة لاهية . وهذه حقيقة تصدق على الواقع فى مصر فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك إلى حد كبير . بيد أن الألوان البهيجة الزاهية فى هذه الصورة أخذت. تنحسر أمام مد الألوان القاتمة والحزينة مع بداية الأزمات والتدهور الذى أخذ ينخر فى بنيان الدولة منذ أخريات القرن الثامن الهجرى (١٤م) .

وانعكس هذا التدهور بالضرورة على شكل احتفالات المصريين وأعيادهم . وإذ أفردنا لمظاهر

---

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٥٢ ـ ص ٥٣

(٦٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٦٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٤٢٦ ـ ص ٤٣٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٦٨ ؛ السيوطى ، كوكب الروضة . ق ١٩٥ .

(٦٩) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص ٤٩ .

التدهور والاضمحلال دراسة مستقلة فى الصفحات التالية ، فإننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض ملامح التدهور من خلال ما طرأ على الاحتفالات والأعياد .

ففى أواخر ذلك العصر كانت الفتن والاضطرابات قد صارت نغمة معتادة فى حياة المصريين كما صار من المألوف فى حياة الناس اليومية أن تتحول شوارع المدن والأسواق إلى ميادين القتال بين طوائف المماليك المتصارعة (٧٠) ، ونسوق مثالاً على هذا ما حدث سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٣م) حين كسر سد الخليج بدون احتفال ، إذ كانت القاهرة تموج بفتنتها ، وحروب الشوارع قائمة على أشدها بين المماليك ولم يخرج أحد من الناس للاحتفال « . . . **لأن كل أحد كان مشغولاً بنفسه عن ذلك** . . . » (٧١) . وفى بعض الأحيان كان السلطان يمتنع عن المشاركة فى الاحتفال خوفاً على حياته من مؤمرات أمراء المماليك واعتداءاتهم (٧٢).

وكان احتفال وفاء النيل وكسر الخليج يتم فى الصباح ، كما أسلفنا القول ، ولكن حدث فى سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨م) أن تم الاحتفال ليلاً ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى يحدث فيها ذلك . والسبب كما يورده ابن إياس هو أن السلطان « محمد بن قايتباى » أراد أن يحضر الاحتفال بنفسه ولكن الأمراء منعوه خوفاً عليه من المماليك المتربصين به ، فنزل ليلاً مع حاشيته وفتح السد . وأصبح الناس ليجدوا الماء فى الخلجان والبرك ، فتعجبوا ودهشوا لأن ذلك « . . . **ما وقع قط فى الجاهلية ولا فى الإسلام . . . وقد ضيع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء** . . . » (٧٣) .

كذلك انعكست مظاهر التدهور العام فى أواخر عصر سلاطين المماليك على احتفال دوران المحمل ، فقد قل الاهتمام بأمر المحمل ، ولم يعد الحكام يلتزمون بمواعيده التقليدية ، كما كانت الأوبئة والمجاعات ، التى تحصد بمنجلها الفتاك أعداداً كبيرة من السكان ، تؤثر على شكل الاحتفال فيقل عدد المماليك الرماحة ، كما يقل إقبال الناس على مشاهدة الاحتفال بسبب حزنهم على موتاهم (٧٤) .

ومن ناحية أخرى ، انعكست حالة التدهور الأمنى على احتفال دوران المحمل ، فقد ابتكر المماليك الجلبان بدعة جديدة هى « عفاريت المحمل » . وهم مجموعة من المماليك يركبون خيولهم وقد غيروا من هيئتهم بشكل مزعج ، فيطرقون أبواب الأعيان والأمراء ويجبون منهم الأموال قسراً ،

---

(٧٠) انظر على سبيل المثال ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٣٧ ، ٧٩ ، نزهة النفوس ، جـ ٢ ، صفحات ١٠٩ ، ١١١ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٨٨ - ١٨٩ ، ٢١٢ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٧ ، ص ١٤٧ ، جـ ٤ ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

(٧١) ابن إياس ، بدائع الزهور (بولاق) ، جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٧٢) المقريزى ، السلوك . جـ ٣ ص ١٠٢٢ .

(٧٣) ابن إياس المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٥ (بولاق) .

(٧٤) المقريزى ، السلوك جـ ٤ ، ص ١٠٠٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٤ ص ٣٧ ، ص ٣٤٥ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، والأبدان ، جـ ٢ ص ٣٩٤ ، ص ١٨٠ - ص ٣٨١ .

ويعترضون الناس فى الشوارع والطرقات وينزلون بهم شتى صنوف المهانة « . . . **وما كفاهم ذلك حتى صار العفريت منهم يجبى الدكاكين** . . . » (٧٥) . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن أولئك الأجلاب كثيراً ما كانوا ينتهزون فرصة ازدحام الناس فى الاحتفال فيخطفون النساء والصبيان ويفسقون بهم جهراً، وينهبون الأمتعة ويثيرون الرعب والفوضى (٧٦) . ولما ضج الناس بالشكوى وطالبوا بإلغاء احتفال المحمل أمر السلطان بإلغاء بدعة « عفاريت المحمل » هذه (٧٧) .

وفقدت الأعياد بهجتها بسبب توالى الأزمات الاقتصادية والأوبئة فضلاً عن تدهور الأحوال السياسية الداخلية وانتشار الخوف والفزع من ظلم الحكام وانعدام الأمن ، إذ يذكر ابن الصيرفى أن عيد الفطر فى سنة ٨٤١ هـ . دخل على الناس وهم « . **فى نكد وجزع وقلق وهم ومصاب** . . » بسبب تزايد ضحايا الوباء من ناحية ، وكساد الحركة فى المدينة بسبب أوامر السلطان بعدم خروج النساء من بيوتهن ، فضلاً عن ظلم الحكام وتخبط سياسة الدولة (٧٨) . ويذكر المقريزى أن بعض الأسواق التى ارتبطت بالمواسم والأعياد ، والتى كانت تزدهر وتموج بالحركة والنشاط أثناءها ، قد تعرضت للذبول والاضمحلال ، إذ إن « سوق الشماعين » على سبيل المثال الذى يرتبط بليالى رمضان والعيد عند المسلمين ، والميلاد والغطاس لدى المسيحيين تعرض للكساد بسبب عدم إقبال الناس على شراء الشموع بعد تدهور الأحوال فى منتصف القرن التاسع الهجرى (١٥م) حتى آل أمره إلى خمسة حوانيت فقط (٧٩) كما تواضعت مظاهر الاحتفال بأعياد المسيحيين لهذا السبب نفسه (٨٠) .

ولعل الدراسة التى نقدمها فى الصفحات التالية تلقى مزيداً من الضوء على عوامل التدهور والسقوط التى أخذت تنخر فى بنيان الدولة حتى أودت بها عندما طرقتها جيوش العثمانيين .

---

(٧٥) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق جـ ١٦ ، ص ١٢٣ .

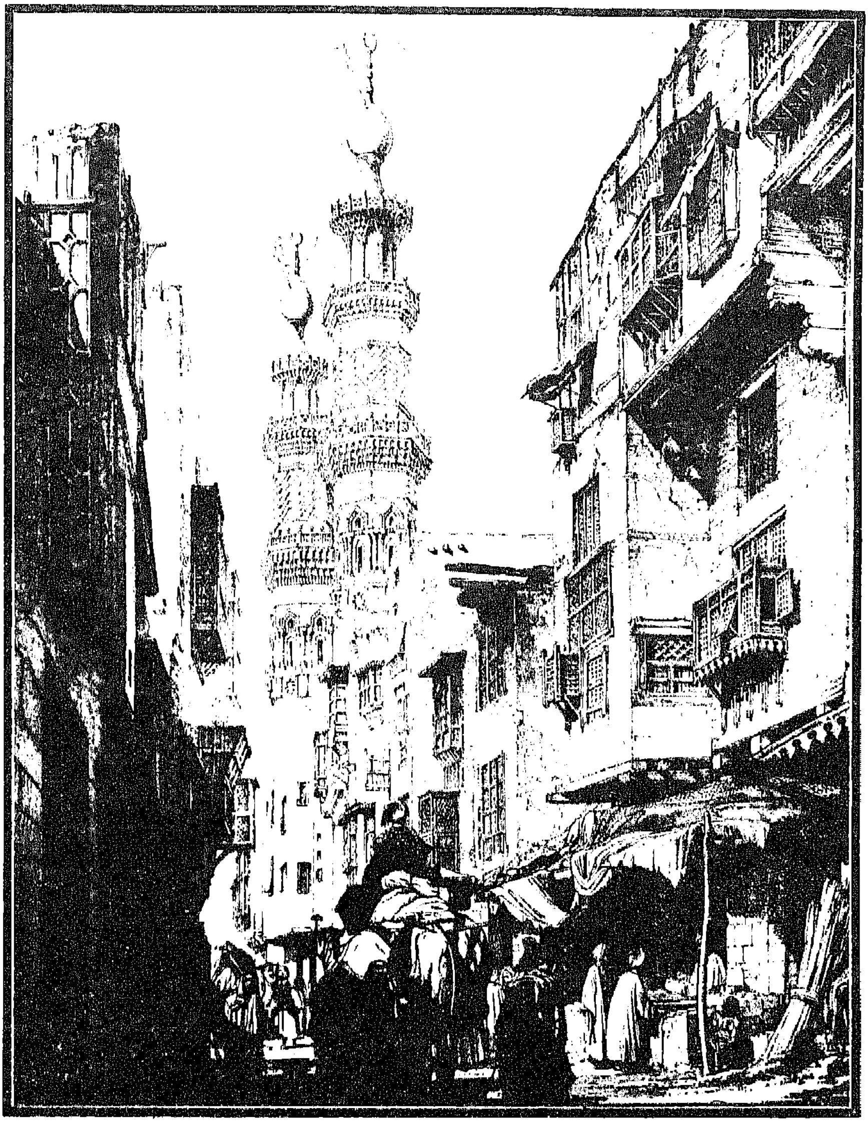
(٧٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٠٢٦ ، ويذكر ابن الصيرفى (نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ١٥٥) أنه حدث فى سنة ٨٣٢ هجرية أن تصدى الناس لعبث المماليك الأجلاب وقتلوا اثنين منهم ، كما حدث فى سنة ٨٤١ هجرية أن نشب قتال بينهم وبين العبيد أثناء الاحتفال (المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٩٩) .

(٧٧) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ١٦ ، ص ١٢٣ .

(٧٨) ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٤٠٧ .

(٧٩) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ـ ص ١٠٦ .

(٨٠) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٨ ؛ القلقشندى ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ ـ ص ٤٣٠ ؛ السيوطى . كوكب الروضة ، ق ١٩٥ ؛ ابن إياس ، نزهة الأمم ، ق ٢١٩ ـ ق ٢٢٣ .



الحرف المتصلة بالحياة اليومية

مدخل إلى الدراسة ـ الحرف والبناء الاجتماعى ـ طبيعة الحرف المتصلة بالحياة اليومية ـ التقسيم النوعى للحرف (حرف تتصل بالغذاء ـ حرف تتصل بحياة الأسرة اليومية ـ حرف الخدمات اليومية ـ حرف العمارة ـ حرف اللهو والتسلية) ملاحظات ختامية

تعتبر الحرف والصناعات فى المجتمع الإنسانى عامة من المؤشرات الدالة على طبيعة هذا المجتمع واتجاهاته . كما أنها تكشف ، من ناحية أخرى ، عن حال هذا المجتمع من حيث درجة ثرائه . ورفاهية أبنائه ، أو العكس ، وبقدر ما تتعدد الحرف والصناعات وتتنوع فى مجتمع ما ، بقدر ما يتضح لنا مدى التطور والرقى الذى وصل إليه هذا المجتمع . فإذا ما تقلصت الحرف كما وكيفا . واختفت بعض الصناعات ، كان ذلك علامة دالة على حال من التدهور والذبول فى المجتمع . وهذه الدراسة تهتم بالحرف التى تتصل بالحياة اليومية فى مصر زمن سلاطين المماليك ؛ وهى بهذا محاولة لتوضيح جانب جديد من جوانب الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك .

أشرنا فى الدراسات السابقة إلى أن المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك كان مجتمعاً طبقياً فى اتجاهاته وعلاقاته ؛ وهو الأمر الذى انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة اليومية فى المجتمع المصرى . كذلك أشرنا إلى أن المجتمع المصرى لم يبق على حال من الجمود والثبات طوال ذلك العصر الذى امتد فى رحاب الزمان إلى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان . ففى مرحلة بناء الدولة المملوكية وطور نموها كانت مظاهر الحياة المصرية تنبىء عن الفتوة والحيوية الدافقة التى تعتبر . دائما ، من سمات مراحل البناء والتقدم ، ولكن التدهور الذى ألم بالبلاد منذ الدولة المملوكية الثانية (أو بعد بداية القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) . والذى كانت بذوره كامنة فى ثنايا النظام منذ البداية ، نشر الألوان القاتمة الحزينة فى صورة المجتمع المصرى . وكانت تلك الألوان والظلال تعبيراً عن يوم يميل إلى الغروب ، وعصر فى طريقه لأن يتوارى فى ذمة التاريخ [1]

(١) لمزيد من التفاصيل راجع المدخل إلى هذه الدراسات فى بداية الكتاب .

هذا المجتمع الطبقى انقسم إلى طبقتين رئيسيتين ، الحاكم والرعية كما أسلفنا القول . ومع تسليمنا بوجود الفوارق بين الشرائح الاجتماعية داخل كل من هاتين الطبقتين فالواقع ، كما تكشف عنه المصادر التاريخية لعصر سلاطين المماليك ، يشى بأن الطبقة الحاكمة قد عاشت حياة اجتماعية خاصة بها لا يمكن أن نقول إنها كانت حياة اجتماعية مصرية . فقد جاء المماليك إلى مصر غرباء ، وعاشوا فيها غرباء ، وحافظوا على غربتهم باعتبارهم أبناء طبقة عسكرية يحترفون القتال كمهنة يرتزقون منها . ولم تكن لهم أية روابط تجمعهم مع الرعية ، أو تجعلهم يشعرون بأن ثمة ما يربطهم بالبيئة الاجتماعية. ومن ثم كان اهتمامهم محصوراً فى ذواتهم ، وكان كل ما يعنيهم من الناحية المعنوية هو الشعور بالسيادة ، وإشاعة الرهبة والخوف فى نفوس المصريين . ولم يكن ذلك ممكنا بالاندماج فى حياة المجتمع المصرى ، وإنما بالانفصال عنه والتعالى على أبنائه . أما المصريون ، فقد واصلوا حياتهم دون أن يعبئوا بالحكام وقسوتهم ، وكانت لهم فى أغانيهم وأزجالهم وبلاليقهم ونكاتهم ، والأوصاف الساخرة التى أطلقوها على أولئك الحكام سلوى وعزاء . بيد أن حياتهم الاجتماعية سارت سيرتها المعتادة منذ بدأ المصريون فى بناء الحضارة على ضفاف النيل .

ولم تكن العلاقة بين « السلطان » « والرعية » فى مصر آنذاك قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة ؛ فإن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيداً فى طفولتهم ، والذين كان ولاؤهم خاصاً وشخصياً بالدرجة الأولى (وهو ما تكشف عنه مسميات فرقهم المختلفة ؛ مثل « الظاهرية » نسبة إلى الظاهر بيبرس البندقدارى ، أو مثل « المنصورية » نسبة إلى المنصور « قلاوون » ، أو « الناصرية » نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون ، أو غيرها من الفرق المملوكية) . ويمكن بشىء من التجاوز أن نقول إن العلاقة بين الطرفين ، أى السلطان والرعية . كانت علاقة نهبية . فقد كان على الرعية أن تقدم ثمار عملها إلى الحاكم الذى لم يكن يرى فى الرعية سوى مصدر للدخل من خلال الضرائب التى عرفت فى مصطلح ذلك العصر بأسماء معبرة مثل « المظالم » و« الكُلَف» و « المغارم » ؛ وهى جميعاً أسماء تزيح النقاب عن نظرة المصريين لهذه الضرائب وعن تصورهم لفلسفتها . لقد كانت هذه العلاقة إفرازاً للنظام الإقطاعى المملوكى الذى فرض نوعاً من التخصص فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى والعسكرى على كل طبقة من طبقات المجتمع . فقد كانت الحرب فى ذلك الزمان حرفة تعتمد على القوة البدنية والمهارة القتالية ؛ وهو ما يعنى أن تكون حياة العسكريين مكرسة للتدريب على فنون القتال أو على القتال الفعلى ، ومن ثم كان لابد لطبقة اجتماعية أخرى أن تتولى إعالة الجنود ، وكانت الرعية بغالبيتها من الفلاحين تتولى هذه المهمة . ومن ناحية أخرى ، لم تكن حكومة المماليك تلتزم تجاه رعاياها بأية مسئوليات عامة فى مجالات التعليم، والرعاية الصحية والتغذية وغيرها. وباستثناء الأمن الداخلى والدفاع عن الحدود الخارجية، ظلت مسئولية الخدمات العامة من مهام المؤسسات الخاصة مثل نظام الأوقاف الذى كان

من أهم دعائم الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك [٢] . ومثل التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة التى كانت تنظم شئون الطوائف الدينية مثلاً [٣] أو التى ترعى أحوال أصحاب الحرف والصناعات .

على أية حال ، كانت بدايـــة عصر سلاطين المماليك فى مصر مصحوبة بأحداث تاريخية جعلت من مصر المعقل الأخير للحضارة العربية الإسلامية ، على حين كـان العالم الإسلامى فى مشرقه ومغربه يتعرض لضربات موجعة مـن التتر ومسيحيى الغرب الكاثوليكى ؛ وهو الأمر الذى يفسر لنا أسباب الهجرات الكثيرة التى جاءت إلى مصر آنذاك ؛ سواء من الشرق أو الغرب [٤] . ومن الطبيعى أن تكون لهذه الهجرات آثارها الإيجابية على معدلات النمو السكانى .

هذا النمو السكانى ، مع ظروف الاستقرار والأمـن التى كفلتها دولة سلاطين المماليك فى عصرها الأول ، انعكست آثارهما فى حال من الرواج الاقتصادى والازدهار الاجتماعى تجلت من خلال أسواق البلاد التى كانت كثيرة العدد مكتظة بكافة أصناف البضائع الأساسية والكمالية والتى كانت تمور بالحيوية والنشاط وتشى بمدى رخاء المجتمع المصرى فى بداية ذلك العصر . كانت الأسواق المصرية هى الواجهة التى كشفت عن مدى تنوع الحرف والصناعات المتصلة بالحياة اليومية فى المجتمع المصرى من ناحية ، كما كشفت عن متانة البناء الاجتماعى فى بداية عصر سلاطين المماليك .

بيد أن طبيعة النظام السياسى فى ذلك العصر (وهو نظام إقطاعى عسكرى) وعلاقته بالرعية . وطبيعة البناء الاجتماعى (وهو بناء طبقى فى أساسه واتجاهاته) ، هى التى فرضت ، إلى حد ما . أنماط الحرف والصناعات التى ازدهرت فى خدمة المجتمع المصرى فى حياته اليومية آنذاك ، كما أنها هى التى جعلت بعض هذه الحرف والصناعات ترتبط بالناس العاديين فى حياتهم اليومية ، على حين ارتبطت حرف أخرى بالحكام الذين استأثروا بالشطر الأكبر من ثروة البلاد ومواردها (سواء كانت أرضًا زراعية أم أرباحاً جنوها من تجارة المرور) . وهكذا ازدهرت حرف وصناعات فى خدمة الأغراض الاستهلاكية اليومية وأخرى ارتبطت بحياة القصور وساكنيها المولعين باقتناء التحف ومظاهر الرفاهية . وبناء المبانى الفخمة ، إلى جانب اهتمامهم بزينة ملابسهم وأسلحتهم وخيولهم وحرصهم الزائد على مظاهر الأبهة والعظمة فى مواكبهم .

---

(٢) انظر حول هذا الموضوع : محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ـ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ ـ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م . دراسة تاريخية وثائقية (دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٠ م) .

(٣) انظر الفصل الخاص بالأقليات الدينية فى هذا الكتاب .

(٤) ابن أيبك الدوادار ، كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ٨ ، ص ٣٦١ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريـخ مصر الإسلامية (دار المعارف ١٩٦٧ م) ص ١٩٤ ـ ص ١٩٩ ، حيث يورد تفاصيل الهجرات المغولية إلى مصر وأعدادها ، انظر كذلك : Ashtor , A Social and Economic Hist . , PP . 282 - ff .

ولعل من المفيد أن نبدأ هذه الدراسة بحرف الغذاء على اعتبار أن هذه الحرف تكون عادة أكثر الحرف ارتباطًا بالمجتمع فى حياته اليومية ، وأكثرها تعبيرًا عن اتجاهات هذا المجتمع ومدى ثرائه أو فقره . وفى عصر سلاطين المماليك أحصى لنا أحد كتب الحسبة سبع عشرة حرفة تتصل بالغذاء وتتنوع ما بين الجزارة والطبخ وصناعة الحلوى [(٥)] . فقد أورد هـــذا الكتاب العلافين والطحانين ، والفـــرانين والخبـــازين والشوايين [(٦)] ، والنقانقيين ، والكبوديين والبـــواردين [(٧)] ، والجـــزارين والرواسين . والطباخين ، والشرائحيين ، والهراسيين ، وقلايين السمك ، وقـــلايين الزلابية والحلوانيين . والشرابيين واللبانين . وإن نظرة على الأســـواق المصرية فى بداية عصر سلاطين المماليك ، والحرف التى خلعت أسماءها على بعض هذه الأسواق ، لتكشف لنا عن مدى ازدهار المجتمع المصرى فى بداية ذلك العصر ، كما تكشف عن مدى التدهور الذى أصابه فى نهايته [(٨)]

ومن خلال أسماء أسواق ذلك العصر نستطيع التعرف على كثير من حرف التغذية آنذاك ،كما نستطيع أن نتعرف على كثير من عادات المصريين الاجتماعية ، ويجدر بنا أن نلاحظ أن أسواق المـــواد الغذائية كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، وهو أمر يتمشى بالضرورة مع توزيع التجمعات السكانية . وتحفل مصادر عصر سلاطين المماليك بأسماء وأخبار عدد كبير من الأسواق التى تخصصت فى بيع المواد الغذائية ، ولم تكن الحركة تنقطع ليلاً ونهاراً فى بعض الأسواق المقامة فى الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية .

ومن ناحية أخرى ، تكشف دراسة بعض الحرف المتصلة بالغذاء عن بعض عادات المصريين الاجتماعية فى مجال الغذاء . فالواقع أن عامة المصريين فى ذلك الزمان لم يعتادوا الأكل فى بيوتهم .

وكانت حوانيت الطباخين هى المكان الذى يشترى منه المصريون طعامهم . وقدَّر أحد الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فى ذلك العصر عدد المطاعم والمطابخ فى القاهرة وحدها بما يزيد عن اثنى

---

(٥) ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة (تحقيق د . محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦) ، ص ٤٧ ـ ص ٤٨ .

(٦) (أو الشوايين) كما يفهم من كلام ابن الأخوة (ص ١٥٦ ـ ص ١٥٧) كانوا يقومون بشى الحيوانات ، وقد وضعت عدة شروط لضمان النضج ، وتوفر الشروط الصحية فى الشواء ذكرها ابن الأخوة كما ذكر الوسائل التى كانوا يغشون بها وكانت هناك طائفة تتولى بيع الشواء علـى قطع مـــن الخشب تسمى القِرم (مفردها قرمة) فى الأسواق .

(٧) النقانق ، كما يتضح من كلام ابن الأخوة ، (ص ١٥٨) كانت نوعاً من السجق » تصنع من لحم الضأن . أما الكبوديون ، فهم الذين يبيعون الأكباد (الكبدة) بعد طهيها ، وقد حدد لنا ابن الأخوة (ص ١٥٩) طريقة طهيها، والبواردیون هنا هم تجار المشهيات (الطرشى) الذى كان يتألف من الكرنب واللفت واللوبيا . والباذنجان، والرجلة (ص ١٥٩ ـ ص ١٦٠) .

(٨) انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

عشر ألف مطعم[٩] . وكانت غالبية رواد هذه المطاعم من سواد العامة ومن الفقراء[١٠] وإلى جانب هذه المطاعم ، التى تبدو أنها كانت تقدم نوعًا من الوجبات المطهية الساخنة بأسعار رخيصة ، كان هناك عـــدد كبير من باعة الطعام الجائلين يطوفون بشوارع القاهـــرة ومعهم الطعام المطهى على عربات ، أو « الطبليات » ، وتحته المواقد مشتعلة حتى يظل ساخنًا (وهو مشهد ما يزال يفرض نفسه على كل من يتجول فى شوراع المدن المصرية حتى اليوم) كذلك كان بعض باعة الطعا م المطهى ، بكافة أنواعــه ، يفترشون الأرض فى الأسواق والشوارع والطرقـــات وبجـــوار المساجـــد وأمامهم «طبليات» تحتها مواقد يبيعون عليها الطعام للمارة[١١] وفى شهر رمضان كانت مطاعم القاهرة ومطابخها تظل مفتوحة طوال الليل ، وحتى وقت السحور لاستقبال الراود ، وهو الأمر الذى استرعى انتباه بعض الرحالة الأجانب[١٢] .

أما الأثرياء وميسورو الحال ، فكانوا يرسلون ما يريدون طهيه من طعام إلى مطابخ تخصصت فى ذلك . وقد عرفت هذه الطائفة باسم « الشرائحية » ، أو « الشرائحيين » ، أو « الشرايحيين » فى عصر سلاطين المماليك . وكانوا يطهون الأطعمة ويرسلونها إلى المنازل مع صبيانهم فى قدور مغطاة حتى لاتتلوث بغبار الطريق ، ولكى لا يعلم الناس ما بداخلها . وكان الطعام الذى يطهى عندالشرائحيين يخلط بالتوابل والأفاويه لكى يكتسب مذاقا ونكهة طيبة . وعلى الرغـــم من أن كـــلاً من المقريزى وابن دقماق قد ذكر أنه كان هناك سوق خاص بهذه الطائفة فى القاهرة ؛ فإن ما نقرؤه فى ثنايا المصادر التاريخية لتلك الفترة يكشف عن أن حوانيتهم كانت منتشرة فى سائر أنحاء البلاد[١٣]. وهو أمر نراه منطقياً فى ضوء النظر إلى التوزيع السكانى . وقد ذكر صارم الدين بن دقماق « مصطبة الطباخين »[١٤] التى تبـــدو أنها كانت مكاناً خاصًا باجتماعاتهم فى غير أوقات العمل لأن حوانيتهم كانت منتشرة فى شتى الأنحاء . وربما كانت « مصطبة الطباخين » هذه مكاناً شبيهاً بالمقاهى التى يرتادها أبناء حرفة معينة فى عصرنا الحالى .

ويكشف كلام المؤرخ تقى الدين المقريزى عن مدى رفاهية الحياة المصرية فى بداية عصر سلاطين المماليك ، من خلال حديثه عن معدل الاستهلاك اليومى للمواد الغذائية ؛ إذ يقول « . . . وسمعت

---

(٩) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (الطبعة الثانية) ، ص ٨٧ .
(١٠) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .
(١١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص ٧٩ ـ ص ٨٠ ؛ المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ٦٣ ومابعدها ؛ تافور . الرحلة ، ص ٧٧ ـ ص ٧٨ .
(١٢) عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ .
(١٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ ؛ ص١٨٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ـ ص ١٠٦ .
(١٤) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ١٣ .

الكافة يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون : يرمى بمصر كل يوم ألف دينار ذهبا على المزابل والكيمان ، ويعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والطباخون والجبانون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن والجبن والتى يأكل فيها الفقراء بحوانيت الطباخين ومايستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها . .»(١٥) ومن المهم أن نشير إلى أن بائعى الحلوى والطعام لم يقتصر وجودهم على الأسواق وشوارع المدن فحسب ، بل كانوا يتجمعون أحياناً فى أماكن نزول السلطان للنزهة وأماكن العمل العام (مثل بناء جسر على النيل ، أو شق ترعة ، أو تشييد مدرسة) ، كما كانوا يتجمعون فى الموالد وغيرها لكى يبيعوا الطعام إلى رواد هذه الأماكن سواء كانوا من العمال أو القادمين للاحتفال بالموالد (١٦)

أما الخبز ، فكان هناك ما يباع منه جاهزاً فى الأسواق والحوانيت ، ومنه ما كان يعد فى البيوت ، ثم يرسل إلى الأفران لخبزه (وهى عادة ماتزال موجودة فى المجتمع المصرى حتى اليوم ، وإن كانت فى طريقها إلى الاختفاء الآن) . وكان صبيان الأفران يمرون على البيوت لأخذ العجين . ويبدو أن الناس فى عصر سلاطين المماليك كانوا يرسلون عبيدهم وخدمهم ، أو أبناءهم إلى الأفران أحيانا لمراقبة الخبز. إذ إن أحد المعاصرين يحكى لنا أن الفران كان يختلس من خبز الناس « الرغيف والرغيفين » . كذلك كان بعض الناس يخبزون عجينهم فى الفرن نظير أجرة شهرية يتفقون عليها مع الفران ، على حين كان البعض الآخر يدفع أجرة عن كل مرة يخبز فيها عجينه (١٧) ويبدو من استقراء مصادر ذلك العصر أن الميسورين من الناس كانوا هم فقط الذين يرسلون خبزهم إلى الأفران ؛ فالواقع أن عددًا كبيرًا من عامة المصريين كانوا يشترون الخبز جاهزًا من الأسواق مثلما كانوا يرتادون المطاعم لتناول الوجبات الجاهزة . وكان هؤلاء أيضا هم الذين يعانون من أى نقص فى الغلال والخبز ، فيهجمون على الخبز والعجين المرسل إلى الأفران كما أوضحنا من قبل .

والجدير بالذكر أن « الخباز » فى عصر سلاطين المماليك كان هو الذى يصنع الخبز لبيعه فى الأسواق ، أما « الفران » فهو الذى يخبز خبز البيوت لقاء أجر معلوم(١٨) ولكن يبدو أن مثل هذا التفريق لم يكن قائمًا فى كل الأحوال ، فكثيًرا ما خلط الناس بين الفران والخباز باعتبارهما صاحبى حرفة

---

(١٥) الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٤ .

(١٦) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ ؛ ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ، ص ٢٤ ـ ص ٢٦ ؛ تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ ، إبن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، ص ٤٤ ؛ قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٣٥ ـ ص ٣٧ .

(١٧) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٤ ، ص ١٧٠ ـ ص ١٧٥ . (١٨) نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ .

واحدة . ومن ناحية أخرى ، كانت هناك أفران ضخمة تخدم الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية فى القاهرة ؛ فقد ذكر المقريزى أنه كانت فى أول الحسينية فرن تخبز فيها يوميًا نحو سبعة آلاف رغيف (١٩)

وكانت صناعة السكر إحدى الحرف الهامة المتصلة بالغذاء . وقد أحصى لنا ابن دقماق ، الذى توفى سنة ٨٠٥ هجرية ، ثمانية وخمسين مطبخًا للسكر فى الفسطاط وحدها . ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الصناعة كانت من الصناعات الغذائية الهامة فى عصر سلاطين المماليك لارتباطها بمظاهر حياة الرفاهية التى عاشها السلاطين والأمراء من ناحية ، ولارتباطها ببعض الاحتفالات والعادات والتقاليد الاجتماعية من جهة أخرى ، كانت بعض مطابخ السكر مملوكة لأفراد من عامة المصريين . كما كان اليهود المصريون فى ذلك الزمان يعملون فى هذه الصناعة وامتلك بعضهم مطابخ السكر فى بعض أحياء القاهرة . وفى بعض الأحيان كان أصحاب هذه المطابخ يتولون إدارتها بأنفسهم ، لا سيما إذا كانوا من أبناء الرعية ، على حين كان البعض من الأثرياء والأمراء يؤجرونها لمن يتولى إدارتها . كما أن بعض أمراء المماليك كانوا يملكون مطابخ للسكر ، وكانت هذه المطابخ تمثل مصدرًا هامًا من مصادر دخلهم . بل إن بعض السلاطين كانوا يمتلكون مطابخ خاصة بهم ؛ فقد ذكر ابن دقماق . أن مطابخ السكر السلطانية التى كانت بخط دار الملك كانت سبعة مطابخ على صف واحد . ثم خصص السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ثلاثة من هذه المطابخ لبنيه وخصص واحدًا للدولة ، على حين جعل الثلاثة الباقية ضمن أملاكه الخاصة . وتكشف كلمات هذا المؤرخ عن أن مصانع السكر هذه كانت كبيرة بالقدر الذى استوجب أن يكون هناك مسئول عن إدارتها يتولى الإشراف على العمال العاملين بها . وينبغى أن نشير إلى أن مدينة الفسطاط قد اشتهرت بكونها أحد مراكز صناعة السكر الهامة فى ذلك العصر ، وربما كانت أشهر من غيرها من المدن المصرية فى هذه الصناعة(٢٠) .

وقد قامت صناعة الحلوى على صناعة السكر . ويبدو أن قائمة الطعام المصرية فى عصر سلاطين المماليك قد عرفت طائفة كبيرة من الحلويات . فقد ذكرت بعض مصادر ذلك العصر قائمة بما هو مشهور من الحلوى فى مصر آنذاك تحوى أسماء لثلاثة وخمسين نوعًا(٢١) ، وهو الأمر الذى يكشف عن رفاهية وثراء المجتمع المصرى فى ذلك الحين .

---

(١٩) الخطط جـ٢ ، ص ١٠٥ .

(٢٠) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص٤١ ـ ص٤٦ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ .

(٢١) ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ١٨١ ـ ص ١٨٣ . نذكر منها على سبيل المثال « الصابونية » وهى نوع من الحلوى يصنع من الدقيق المحمص بالسمن ، ثم يضاف إليه السكر واللبن ويعمل منه قوالب مثل الصابون و « القطايف » وهى المعروفة حاليا ، و «الفستقية» وهى معروفة حتى الآن « وخبيصة اليقطين » ، وهى تصنع من دقيق الحنطة مع دهن اللوز أو الشيرج ، ويضاف إليها بعد الطبخ ، وترفع عن النار لتجمد ، و«لقيمات القاضى » وهى لقمة القاضى المعروفة حاليا .

بيد أننا ينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أن معظم أسماء الحلوى الواردة فى هذه القائمة لم تكن معروفة لدى سواد الشعب من العامة الذين كانوا يشترون ما يحتاجونه من حلوى من الأسواق ومن الباعة الجائلين ، وربما كانت « الزلابية » هى أشهر الحلويات الشعبية لدرجة أن كتب الحسبة تفرد فصلا للحديث عن «الحسبة على قلائين الزلابية » [٢٢] فقد كانت « الزلابية » من الحلوى التى كان المصريون يحرصون على توفيرها فى احتفالهم بعيد النيروز وربما نشبت الخلافات والمشكلات فى بيوت بعض المصريين بسبب حرص الزوجات على وجود هذا النوع من الحلوى بالمنزل فى عيد النيروز . وكان البعض يحضرون صانع « الزلابية » ليبيت عندهم وليجهز « الزلابية » قبل طلوع النهار [٢٣] .

كذلك ارتبطت بصناعة السكر فى مصر آنذاك صناعة أخرى ارتبطت بحياة المصريين الاجتماعية . هى صناعة التماثيل السكرية التى كان لها سوق خاص هو « سوق الحلاويين » الذى كانت له مواسم بعينها يزدهر فيها . ففى شهر رمضان من كل عام ، كان هذا السوق يمتلىء بكافة أنواع وأحجام التماثيل السكرية التى صنعت على هيئة مختلف أنواع الحيوانات . وقــد عرفت هــــذه التماثيل باسم «العلاليق » (ومفردها عُلاّقة) لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت . وكان وزن « العلاّقة » يتراوح ما بين ربع رطل وعشرة أرطال ، وكان الناس يحرصون على شرائها لأطفالهم وأقاربهم وأصهارهم فى هذه المناسبة [٢٤] ، مثلما يحدث الآن فى الاحتفال بالمولد النبوى . ومن الواضح أن سوق الحلاويين لم يكن قاصرا على بيع هذه التماثيل السكرية ، ومن المنطقى أن يكون تجار هذا السوق قــد تخصصوا فى صناعة وبيع سائر أصناف الحلوى . ولكن موسم ازدهار هذا السوق كا ن يرتبط بهذه التماثيل السكرية أو « العلاليق » .

وليس الهدف من هذه الدراسة أن نقدم إحصاء شاملاً للحرف والصناعات ، وإنما هدفنا أن نكشف من خلال بعض الحرف المتصلة بالحياة اليومية عن بعض ملامح الحياة الاجتماعية فى مصر زمن سلاطين المماليك . وتكشف النماذج التى درسناها من حرف الغذاء عن أن المجتمع المصرى فى ذلك الزمان قد عرف قائمة كبيرة ومتنوعة من الأطعمة والحلوى ، كما تكشف عن أن معدل الاستهلاك اليومى كان مرتفعًا ، وأن الاستهلاك الترفى كان سمة اجتماعية واضحة . وهو أمر يتمشى بالضرورة مع الحقيقة القائلة بأن المجتمع كان يعيش فترة ازدهار ونمو وتقدم واكبت قيام الدولة المملوكية وصعودها ، وهو عكس مانراه فى العصر المملوكى الثانى حين بدأت الدولة رحلتها صوب الغروب والذبول .

أما الحرف والصناعات الصغيرة المتصلة بالحياة الأسرية ، والتى يمكن أن نضعها فى إطار حرف

---

(٢٢) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ١٨٠ .

(٢٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .

(٢٤) انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب ، كذلك : المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ـ ص ١٠٦ .

الخدمات ، فكانت من الكثرة والتعدد والرقى فى بداية عصر سلاطين المماليك ، بحيث تكشف عن صدق ما ذهبنا إليه فى السطور السابقة . فعلى سبيل المثال يذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى أن الناس فى بداية ذلك العصر كانوا مولعين للغاية بالنحاس المكفت (أى المطعم بالذهب والفضة) ويقول : « . . . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مُكَفَّت ، ولابد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت . . . » (٢٥) وهو الأمر الذى يشى بأن مظاهر الترف والتمسك بالكماليات ، فى الحياة المصرية آنذاك ، كانت انعكاسًا للوضع الاقتصادى والاجتماعى المزدهر فى بداية عصر سلاطين المماليك ، كما كانت تعبيراً عن حال الاستقرار والأمن النسبى التى تمتع بها المجتمع فى ذلك الحين .

وإذا ما تتبعنا الأسواق التى تخصصت فى بيع لوازم البيوت والأثاث فى مصر حينذاك ، أمكننا أن نقف على بعض الحقائق المتعلقة بالحياة الأسرية . فقد كانت هناك حوانيت خاصة فى « سوق الخراطين لبيع المهد الذى يربى فيه الأطفال ، كما خصص سوق بأسره لبيع الأثاث المنزلى من الأسرة والخزائن والصناديق ، وهو السوق الذى عرف باسم « سوق الصنادقيين (٢٦) » ويبدو أنه كان هناك مكان أساسى لبيع الحصر التى كان الناس فى ذلك العصر يستخدمونها فى منازلهم وفى فرش المساجد أيضا . هذا المكان عرف باسم « فندق الحصر » ، وفيــــه كانت تباع الحصر الرفيعة والحصر القطبان التى اشتهر إقليم الفيوم بصناعتها فى عصر سلاطين المماليك (٢٧) . ويبدو أن الرهبان المسيحيين كانوا يساهمون فى هذه الصناعة ؛ إذ شكا أحد المعاصرين من أن الرهبان كانوا يبيعون الحصر التى يضفرونها فى المساجد (٢٨) .

كذلك ازدهرت صناعة الأقمشة والمنسوجات والحرف المتصلة بالملابس ازدهارًا كبيرًا فى ذلك العصر ، بيد أننا لن نهتم سوى بالجوانب المتصلة بالحياة الاجتماعية من هذه الصناعة . ويتضح من مدى تنوع الحرف المتصلة بالملابس مدى حرص الناس على أناقتهم بشكل عام . وهو أمر يتفق ، فى تصورنا ، وحقيقة البناء الطبقى لذلك المجتمع . وثمة حقيقة مؤداها أن هذا البناء الطبقى قد أفرز

---

(٢٥) وصف المقريزى هذه الدكة بأنها « . . عبارة عن شيء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس ، أو من خشب مدهون . وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبراها ما يسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو ثلث ذراع فى عرض إصبعين ، ومثل ذلك دست أطباق عـدتها سبعة بعضها فى جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر ، وغير ذلك من المناير والسرج (أدوات الإضاءة) وأحقاق الأشنان ، والطشت ، والأبريق . والمبخرة فتبلغ قيمة الدكة من النحاس زيادة على مائتى دينار ذهبا . . » ويكشف هذا الوصف عن أنها كانت تستخدم لحفظ أدوات المائدة والجدير بالذكر أنه بينما كان عامة الناس يكتفون بدكة واحدة لتجهيز بناتهم ، كانت بنات الأمراء والأعيان تجهز بسبع دكك من طرز فاخرة ، انظر : المقريزى ، الخطط جـ٢ ، ص ١٠٤

(٢٦) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠١ ـ ص ١٠٢

(٢٧) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤٠ . (٢٨) ابن الحاج ، المدخل جـ ٢ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

مجموعة من المبادىء والمثل والقيم الاجتماعية تحرص على المظهر والشكل دون الجوهر ، وهو الأمر الذى يكشف عن نفسه بجلاء فى اهتمام سلاطين المماليك الفائق بمراسم البلاط ، وعنايتهم الشديدة بزينة مواكبهم وفخامتها ، فضلاً عن أناقة ملابسهم وكسوة خيولهم مما تفيض المصادر التاريخية لذلك العصر فى وصفها . وفى مجال الملابس كانت لكل فئة فى المجتمع ملابس خاصة بها لا يجب لغير أفراد هذه الفئة أن تتزيا بها . ويمكن أن نستنتج من صمت مصادر ذلك العصر عن وصف ملابس العامة ، أن هذه الملابس كانت عاطلة من الزخارف والزينة التى اقتصرت على ثياب الحكام . والقضاة ، والفقهاء من أرباب العمامة ، والتجار وأمثالهم .

ويبدو أن عمليات تصنيع القماش فى مراحله المختلفة قد عرفت باسم « القزازة » كما عرف أصحاب هذه الحرفة باسم « القزازين » فى مصطلح ذلك العصر . ويستفاد من بعض المصادر أن الصناع فى هذه الحرفة كانوا ينقسمون إلى قسمين ؛ قسم يعمل بالأجرة لدى غيره من أصحاب المصانع الصغيرة ، والقسم الآخر يعمل لحسابه . وكان القسم الأخير ينقسم بدوره إلى فئتين : فئة تأخذ الغزل من الناس لكى تنسجه لهم لقاء أجر معلوم ، وهذه هى العملية التى عرفت آنذاك باسم « القبالة » وفئة تشترى الغزل وتنسجه وتبيعه أثوابًا جاهزة [٢٩] وقد أطلقت بعض كتب الحسبة اسم « الحائك » على من يقوم بهذا العمل [٣٠] . أما صناع الحرير فقد عرفوا باسم « الحريريين » وكان أولئك هم الذين يقومون بتصنيع الحرير وصبغه ، كما كان بعضهم يبيع الحرير غزلا لمن يطرز به ، والبعض الآخر ينسجونه ويبيعونه أثوابا ، على حين كان البعض يعمل منه الحاشية التى تستخدم فى صناعة الملابس ، والبعض الآخر يمزج مع الغزل وثوب الطرح لإكسابها رقة الملمس ونعومة وليونة تتفقان مع استخدامها كغطاء للرأس أو الكتفين [٣١] .

كانت المرحلة التى تلى عملية نسج القماش تعرف باسم « القصارة » . فقد كان النسج يتم بواسطة أنوال يدوية مما كان يستدعى القيام بعمليات تكميلية حتى تتداخل لحمة النسيج وسداه تداخلاً كاملاً . فكان القماش بعد نسجه ، يرش بالماء ، ثم ينشر حتى يجف ، ويعاد رشه ونشره عدة مرات حتى يبيض . ومن الطريف أن بعض « القصارين » فى ذلك الزمان كان يتصرف فى قماش الناس بشكل يدل على افتقاره للأمانة (وهى على أية حال آفة أخلاقية وجدت آنذاك ، ومازالت موجودة حتى اليوم) ؛ إذ يبدو من كلام بعض المعاصرين أن بعض أولئك القصارين كان يأخذ القماش ويستخدمه فى بيته ، وكأنه ملك له « . . ويتعلل لصاحبها كلما طالبه بها أنها لم تفرغ قصارتها . . . » [٣٢] .

---

(٢٩) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ١٥ .

(٣٠) السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٩٣ ، ابن الأخوة ، معالم القربة ـ ٢١٨ .

(٣١) ابن الأخوة ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ ، ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١١ .

(٣٢) ابن الأخوة ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ ؛ ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٦ ـ ١٧ .

وتتصل بصناعة الملابس أيضا حرفة الصباغة ؛ فقد كان الناس يرسلون أقمشتهم إلى الصباغ لكى يقوم بصباغتها . ويبدو أن العرف قد جرى على إلزام الصباغ بدفع التعويض المناسب إذا أفسد لأحد الناس قماشه [(٣٣)] وقد اتهم ابن الأخوة ، الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، غالبية الصباغين فى زمنه بأنهم « يرهنون أقمشة الناس ، ويعيرونها لمن يلبسها ويتزين بها . وهذه خيانة وعدوان » [(٣٤)] .

وكانت هناك مجموعة من حوانيت «الرفائين» و«الحبَّاكين»و«الرسامين» ، و«الفرائين» ، و«الخياطين» فى الفسطاط لسكنى رفائى الثياب عرف باسم « خوخة الرفايين» [(٣٥)] ويبدو أن الحبَّاكين ، كانوا مثل الرفائين متخصصون فى مداواة عيوب الثياب . أما الرسامون فكانوا يرسمون الأشكال الزخرفية التى تطرز بها الملابس . وقد ذكر المقريزى أنه كانت توجد بخط البندقانيين عدة حوانيت لرسم أشكال ما يطرز من الذهب والحرير على الملابس [(٣٦)] وكان الفراءون يتولون تركيب قطع الفراء فى الملابس ، ويبدو مـن مصادر تلك الفترة أن سائر المصريين كانـوا مولعين باستخدام الفـراء لتزيين ملابسهم. وكان من المألوف ، حتى فى عصر الجراكسة الذى شهد تدهور الأحوال الاقتصادية أن يرتدى الجنود والكتاب وعامة الناس وكل امراة من الشرائح الاجتماعية الدنيا الفراء المستورد [(٣٧)]

ويبدو أن سعر خياطة الثوب كان يتحدد على أساس وزنه . كما كان العرف جاريًا على أن يتسلم الخياط الثوب بالوزن ويسلمه لصاحبه ، بعد اتمام عمله ، بالوزن أيضًا لاسيما إذا كان الثوب من قماش غالى الثمن ، وربما كان ذلك احتياطًا ضد الغش واستبدال ثوب نفيس بآخر رخيص . ولكن بعض الخياطين من أصحاب الذمم الخربة كانوا يتحايلون على ذلك بسرقة جزء من الثوب ثم يرشونه بالماء بعد خياطته « حتى يزيد فى الوزن قبالة ما أخذه » كما كانت الشكوى من عدم ضبط المواعيد شائعة فى ذلك العصر [(٣٨)] . كما هو الحال فى أيامنا هذه .

ومن الحرف التى اتصلت بحياة الأسرة فى عصر سلاطين المماليك أيضا غسل الثياب وكيها . وقد عرف أصحاب هذه المهنة آنذاك باسم « البابية » (مفردها البابا) . ويبدو أن المصريين من أبناء الشرائح الاجتماعية الميسورة الحال قد اعتادوا على أن يرسلوا ثيابهم ومفروشاتهم إلى مغاسل عامة

---

(٣٣) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٩٤ .

(٣٤) معالم القربة ، ص ٢٢٤ .

(٣٥) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٠

(٣٦) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١ .

(٣٧) نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ ؛ ماير ، الملابس المملوكية ، ص ١٣١ .

(٣٨) ابن الأخوة ، معالم القرية ، ص ٢١٩ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٤ ، ص ١٨ ـ ص ١٩

لغسلها وصقالها (أى كيها) لأن بيوت ذلك العصر لم تكن مجهزة بالمياه بحيث تسمح لهم بالغسل. بل إن ابن الحاج ، وهو مغربي زار مصر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادى ، يتعجب من أن المصريين ينفقون مبالغ طائلة على شراء البيوت أو بنائها دون أن يكون بها حمام أو موضع للوضوء(٣٩) . على أية حال كان بسوق الجملون ، وهو أحد الأسواق الكبرى بالقاهرة المملوكية ، عدد كبير من أولئك البابية . . « المعدين لغسل الثياب وصقالها » بل إن بعض الأثرياء كانوا يحرصون على أن يحتفظوا فى بيوتهم بعمال مخصصين لكى الملابس (٤٠) أما الفقراء ، فكانوا يتولون غسيل ملابسهم بأنفسهم فى أماكن معينة على شاطىء النيل عرفت باسم « المناشر » (٤١) .

وفى مجال الزينة الشخصية لعب « المزين » و « الحلاق » دوراً هاماً فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . بيد أنه يظهر من مصادرنا أن « المزين » كان يقوم بأعمال غير تلك التى كان «الحلاق » يقوم بها ؛ فثمة إشارة واضحة تفرق بين « المزين » و « الحلاق » . فقد ذكر السبكى أن من الناس من يأتى « المزين » ليثقب أذنيه ويضع فيهما حلقتين ، كما يفهم من بعض الروايات أن « المزين » كان يقوم بختان الأطفال أيضاً (٤٢) أما « الحلاق » فكان يتولى قص الشعر وتهذيب الشوارب والذقون . وتشير كتب الحسبة إلى وجوب الاتفاق على الأجرة مما يشير إلى أنه لم تكن هناك تسعيرة ثابتة أو أجر متعارف عليه لمثل هذه الأعمال . ويبدو أن الناس غالباً ما كانت تحلق فى الحمامات العامة قبل الاستحمام . ومن ناحية أخرى ، وجدت طائفة من الحلاقين يطوفون الشوارع والطرقات . وقد ثبتوا المرايا إلى صدورهم ، وكانوا يقومون بحلاقة رؤوس الناس وتزيين وجوههم فى الشوارع أيضاً (من الملاحظ أن مثل أولئك الحلاقين الجوالين مايزالون موجودين حتى اليوم) وكانوا يجوبون شوارع المدينة وهم ينادون على صناعتهم . كذلك كان بعض الحلاقين يقومون بتهذيب الشوارب والذقون للناس فى المساجد والجوامع مما أثار سخط المتدينين من معاصريهم (٤٣) .

وقد شهد الرحالة الأوربى « بيروتافور » . الذى زار مصر فى القرن الخامس عشر ، عدداً من الصبية السود تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والثانية عشرة يجوبون أنحاء مدينة القاهرة وهم يصيحون : « من يريد الزيانة ؟ » ، وذكر أنهم يقومون بخدمة النساء اللاتى يردن النظافة سرا (٤٤)

---

(٣٩) ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٧٠ .

(٤٠) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٩٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع جـ٢ ، ص ١٢٦ ، عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٢٣ .

(٤١) ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٨

(٤٢) السبكى ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ ـ ص ١٩٢ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ ٢ ، ص١٨٦ .

(٤٣) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٩٢ ؛ رحلة تافور ، ص ٩٧ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٤٤) رحلة تافور ، ص ٩٧ .

ولاشك أن هناك حرفاً نسائية أخرى تخصصت فيها النساء ، وهى كلها حرف تتعلق بزينة النساء ونظافتهن ، ولكن الميدان الذى كانت تتم فيه ممارسة مثل هذه الحرف كان قاصراً على البيوت أو حمامات النساء . وقد تعرض أحد الباحثين المحدثين لهذه الحرف جميعاً فى دراسته عن المـــرأة فى عصر سلاطين المماليك (٤٥) .

ويقودنا هذا إلى الحديث عن الحمامات العامة التى كانت من أهم المنشآت الاجتماعية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك . فقد أشرنا من قبل إلى أن بيوت المصريين فى ذلك العصر كانت تفتقر إلى الحمامات التى كانت قاصرة على بيوت السلاطين والأمراء وكبار الأثرياء فقط . ومن ثم كان المصريون، من جميع الفئات ، يقصدون الحمامات العامة حيث ينظفون أجسادهم وينعمون بالحديث وتبادل الأخبار مع رفاقهم. وقد أحصى لنا ابن دقماق خمسا وأربعين حمامًا بمدينة الفسطاط وحدها. وذكر هذا المؤرخ أن بعض هذه الحمامات التى ذكرها قد خرب ، وأمدنا بأسماء إحدى عشرة حماما قديمة أولها « حمام الفار » التى كانت أول حمام يبنيها العرب بعد فتح مصر (٤٦) أما حمامات القاهرة فإننا لانعرف عن أعدادها معلومات دقيقة ، وإن كنا نعرف أنها بلغت حوالى الثمانين حماماً فى العقد الثامن من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى (٤٧) ويبدو من كـــلام مصادر تلك الفترة أن المدن المصرية الأخرى كانت بها أعداد من الحمامات العامة ، تقل وتكثر تبعا للكثافة السكانية فى تلك المدن ، وتبعا لأهميتها التجارية أو الثقافية . بيد أننا لا نملك أى دليل إحصائى على أعدادها الحقيقية بسبب الاهتمام الشديد من جانب المؤرخين آنذاك بحاضرة السلطنة وكرسى الملك . أى القاهرة التى كانت محور النشاط السياسى والاقتصادى والثقافى فى ذلك العصر .

على أية حال ، فإننا نعرف أنه كانت هناك حمامات خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء . والجدير بالملاحظة أن معظم هذه الحمامات كانت تبنى من أموال السلاطين والأمراء والأثرياء لتكون أوقافاً جارية للإنفاق على ذرية الواقف، أو على أحد وجوه النشاط الدينى، أو الثقافى ، أو الصحى . ومؤسساته مثل المساجد ، والأسبلة ، والخوانق ، والزوايا ومثل المدارس والمكاتب (الكتاتيب المخصصة لتعليم الأطفال) ، أو البيمارستانات. . وما إلى ذلك. وبطبيعة الحال ، كان بعض

---

(٤٥) انظر الدراسة التى قام بها الدكتور أحمد عبد الرازق بعنوان :

La femme au temps des Mamloukks en Egypte, Le Caire 1973 .

(٤٦) يذكر لنا ابن دقماق معلومات طريفة فى سياق بيانه للسبب فى تسمية الحمام بهذا الاسم الغريب ؛ فيقول إن هذه الحمام كانت صغيرة جداً بالقياس إلى الحمامات التى اعتاد عليها المصريون ، والبيزنطيون فى مصر قبل الفتح الإسلامى ، وهى حمامات كانت تتألف من ثلاث طبقات تتصل ببعضها البعض . وحين شاهد المصريون والبيزنطيون الذين اختاروا البقاء بمصر بعد الفتح الإسلامى ، هذه الحمام الصغيرة سخروا منها وقالوا إنها لا تصلح إلا للفأر ، فعرفت « بحمام الفأر » ، انظر : ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ١٠٤ ـ ص ١٠٦ .

(٤٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٧٩ .

الحمامات التى عرفها عصر سلاطين المماليك قد بنيت قبل ذلك العصر ، كما كان الوالى يقوم بتجديد بعض الحمامات القديمة أحيانا [٤٨] ، وذلك باعتبارها من المنشآت العامة التى يجب على الدولة وممثليها أن يقوموا برعايتها . وقد انتشرت الحمامات فى جميع المدن المصرية ، كما أسلفنا القول ، مما يشير إلى الحقيقة التى ذكرها ابن خلدون ومؤداها أن كثرة الحمامات فى المدن من مظاهر الترف والغنى . وما ينتج عن ذلك بالضرورة من رغبة فى التنعم [٤٩]

كان المسئول عن الحمام هو « الحمامى » الذى حددت كتب الحسبة واجباته . ويذكر أحد هذه الكتب أنه يجب أن يكون لدى الحمامى مآزر يؤجرها للناس لستر عوراتهم ، وأن تكون هذه المآزر عريضة بحيث تستر ما بين السرة والركبتين ، كما ينبغى عليه أن يمنع المجذومين والبُرصَاء من دخول الحمام . ويبدو أنه كان هناك مساعد للحمامى هو الذى أطلقت عليه كتب الحسبة اسم « الوقَّاف » الذى كانت مهمته حفظ ملابس الناس [٥٠] وارتبطت بالحمام مهن وحرف أخرى مثل « البلان » الذى يتولى نظافة أجساد الرجال فى الحمام ، ويبدو أنه كان هو نفسه « المزين » الذى ذكر « ابن الأخوة » أنه يجب أن يكون « خفيفا رشيقاً بصيرا بالحلاقة » [٥١] وربما كانت الحرفتان متشابهتين . ومن ناحية أخرى كانت « البلانة » تقوم بهذه المهمة فى الحمامات الخاصة بالنساء [٥٢] .

وقد ارتبطت الحمامات بالحياة اليومية والعادات الاجتماعية من عدة وجوه . فقد كانت الحمامات . مثل الأسواق من مراكز تبادل الأخبار والآراء . ففى هذه الحمامات يكون الناس مضطرين إلى قطع الوقت بالثرثرة حول سائر شئون الحياة . كــذلك فقد ارتبطت الحمامات ببعض التقاليد والعادات فى المجتمع المصرى آنذاك ؛ فقد كان دخول أى مريض إلى الحمام بمثابة إعلان بشفائه [٥٣] ، كما كان من التقاليد الاجتماعية المرعية أن يتوجه العريس إلى حمام الرجال ، على حين تتوجه عروسه إلى حمام النساء فى موكبين منفصلين تصاحب كلا منهما الأغانى والموسيقى والرقصات . وبعد انتهاء الاستحمام يعود الموكبان بشكل مماثل إلى مكان الاحتفال . وفى الحمامات الخاصة بالنساء كانت المصريات تجتمعن بأفخر ملابسهن حيث يتباهين ويتبارين فى إظهار الأناقة . وقد ارتبطت الحمامات ببعض المعتقدات الشعبية التى شاعت بين المصريين فى ذلك الزمان ؛ إذ كان الناس ، مثلا ، يعتقدون أن من دخل

---

(٤٨) نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٩ ـ ص ٨٠

(٤٩) المقدمة ، ص ٤٢٢

(٥٠) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٢٤٠ ـ ص ٢٤١ .

(٥١) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ .

(٥٢) Ahmed Abd Ar - raziq , La Femme , pp . 44 - 45

(٥٣) عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٩٥ ـ ص ٩٦ .

الحمام أربعين يوما متتالية يفتح الله عليه فى الدنيا (٥٤) ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الحمامات كانت مجهزة بالمياه الساخنة التى لم يكن ممكنا توفيرها فى المنازل .

كذلك اعتمد المصريون على مياه النيل فى الشرب لعدم وجود دورات المياه والحمامات فى المنازل . كما سبق القول . وكان السقاءون هم الذين يقومون بأداء هذه الخدمة فى المجتمع المصرى لقاء أجر معلوم . وكان السقاءون يحملون قِرَبَ المياه على ظهور جمالهم وحميرهم أو على أكتافهم . ويسيرون فى طرقات المدينة وهم يصيحون بالصلاة على النبى حتى يفسح الناس لهم الطريق . ولفت نظر الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك كثرة عدد السقائين الذين قدر البلوى المغربى.(زار مصر فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) أنهم يمتلكون مائتى ألف جمل (٥٥) ، كما استرعى نظر الرحالة بيرو تافور كثرة عدد السقائين فى شوارع القاهرة (٥٦) وعلى الرغم من أن رائحة المبالغة تفوح مما ذكره البلوى ، فلاشك فى أن عدد السقائين كان كبيرا حتى يقوموا بالخدمات المناسبة لسكان القاهرة الذين كانوا كثيرين بمقاييس ذلك الزمان (٥٧) . والجدير بالذكر أن الماء كان يباع بالقِرْبة ، وفى بعض الأحيان كان السقاءون يأخذون أجورهم مقدماً ، ثم يرسلون صبيانهم لتفريغ قِرب المياه فى أزيار المنازل التى اتفقوا مع أصحابها ، وقد استنكر ابن الحاج هذا الأمر على أساس أنه كان يتم فى غيبة الرجال عن منازلهم مما رآه انتهاكًا لحرمة المنازل وخروجاً على الأصول لأن النساء فى المنازل كن يحادثن صبيان السقائين عند قيامهم بتوريد المياه (٥٨) كذلك كان السقاءون يقدمون خدماتهم للطواحين والمعاصر ومعاجن الطين التى كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه .

وقد عرف الشارع المصرى آنذاك طائفة من السقائين عرفوا باسم « سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء » ويبدو أن سقّائى الكيزان هؤلاء كانوا هم أصحاب الحوانيت التى توضع بها الأزيار والكيزان ليشرب الناس منها مقابل مبلغ متعارف عليه . وكان على المحتسب أن يراقب نظافة هذه الأزيار والكيزان ويتأكد من عدم غش مياه النيل بمياه الآبار (٥٩) أما « أرباب الروايا والقرب والدلاء » فيبدو أنهم كانوا يبيعون المياه فى الأسواق من قرب يحملونها فوق ظهورهم . وفى بعض الأحيان

---

(٥٤) ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ ؛ ابن تغرى بردى . حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ ـ ص ٢٢٧ .

(٥٥) رحلة البلوى المغربى ، ص ٥٥ .

(٥٦) رحلة تافور ، ص ٩٨ .

(٥٧) قدر أحد الباحثين عدد سكان القاهرة فى بداية عصر سلاطين المماليك بحوالى ستمائة ألف نسمة انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

(٥٨) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ جـ ٣، ص ١٠٣ ؛ جـ ٤ ، ص ١٧٨ ـ ص ١٨٢ ؛ ابن الأخوة . معالم القربة ، ص ٣٤٩ .

(٥٩) ابن الأخوة ، المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

كانت تحدث أزمة فى مياه الشرب ويشتد الطلب على السقائين ، الذين لايتمكنون من تلبية كل الطلبات ، فيضطر الناس إلى أن يجلبوا المياه من نهر النيل بأنفسهم فى جرار يحملونها على ظهور حميرهم [(٦٠)].

وفى عصر سلاطين المماليك كانت الحمير بمثابة وسيلة المواصلات الأولى داخل المدن المصرية وربما كانت هى الوسيلة الوحيدة التى يستخدمها الناس فى انتقالهم داخل المدن أو خارجها . وفى المدن المصرية كانت توجد مواقف خاصة بحمير الأجرة التى عرف أصحابها باسم « المكارية » ، فقد ذكر ابن دقماق والمقريزى عدة أماكن خصصت للمكارية فى الفسطاط والقاهرة [(٦١)]. وقد ذكر الرحالة الشهير ابن بطوطة أن عدد المكارية فى القاهرة وحدها بلغ حوالى ثلاثين ألف مكارى [(٦٢)] كذلك ذكر بيرو تافور أنه ، هو ومرافقيه ، أكتروا حميراً حين نزلوا القاهرة ، وكانت هذه الحمير مجهزة خير تجهيز بالبراذع واللجم ، وهى سريعة جداً . [(٦٣)] وكان المكارية يهتمون كثيراً بتجهيز حميرهم وتزيينها لأنها قامت بدور سيارات الأجرة فى عصرنا [(٦٤)] .

ويبدو أن بعض المكارية ، آنذاك ، لم يكونوا يهتمون سوى بزيادة ربحهم ، دون مراعاة المشاعر العامة (على نحو ما يفعل سائقو سيارات الأجرة فى مصر اليوم) ؛ إذ تذكر بعض المصادر أن كثيرين من المكارية « لايعجبه أن يكارى إلا الفاجرات من النساء والمغانى منهن لمغالاتهن فى الكراء فإنهن يعطين من الأجرة فوق ما يعطيه غيرهن » [(٦٥)] .

كذلك كانت القوارب والمراكب الشراعية هى وسيلة المواصلات الهامة فى الربط بين البلاد . ومن الطبيعى أن يكون نهر النيل هو الطريق الرئيسى بين أنحاء البلاد لاسيما بين الشمال والجنوب . والواقع أن نهر النيل فى عصر سلاطين المماليك كان وسيلة مواصلات طبيعية لانظير لها فى الربط بين مناطق الصعيد ، ومناطق الوجه البحرى . وقد ذكر أحد الذين رأوا حركة الملاحة فوق صفحة النهر العظيم آنذاك أنه « ليس فى الدنيا نهر تجرى فيه السفن أكثر من نيل مصر [(٦٦)] » ويؤيد ذلك ما ذكره الرحالة الشهير ابن بطوطة من أن « . . بنهر النيل ستة وثلاثين ألف مركب للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى

---

(٦٠) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ق ١١٣ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٢ ، ١٠٥ . حيث ذكر هذان المؤرخان فى حوادث سنة ٨٠٢ هجرية أن شاطىء النيل قد جف تمامًا ، وانخفض مستوى المياه من بولاق حتى إمبابة بحيث صار الناس يخوضون فيه ، وتزاحم الناس على السّقائين وصار أكثرهم يستسقون على الحمير لنفسه بالجرار . . « ولم يكن لهم بذلك عهد . . » .

(٦١) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٢٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ .

(٦٢) رحلة ابن بطوطة ، جـ ١ ، ص ١٧ .

(٦٣) رحلة عاشور ، ص ٦٤ .

(٦٤) عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٨٤ .

(٦٥) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٩٩ ـ ص ٢٠٠ .

(٦٦) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٣٦ .

الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات » (٦٧) ولم يكن مجرى النهر الرئيسى هو وحده طريق المواصلات والتجارة والسفر بين أنحاء البلاد ، بل كانت القنوات والترع الخارجة من النيل تقوم بنفس الدور أيضا (٦٨) .

وكثيراً ما كانت صفحة النيل والترع الخارجة منه تكتسى بعشرات القوارب التى كان الناس يركبونها للنزهة ، أو لمشاهدة بعض الاحتفالات التى تجرى فوق مياه نهر النيل . ففى الأعياد والمناسبات اعتاد المصريون على تأجير المراكب التى يطوفون بها ومعهم آلات الموسيقى وهم يغنون ويمرحون ويطربون . وكثيراً ما صدرت أوامر الحكام بمنع مراكب النزهة من السير بسبب مظاهر المجون والخلاعة التى كانت تصاحب مثل هذه الرحلات النيلية (٦٩). ومن اللافت للنظر أن مثل هذه الأوامر الرادعة لم تكن تظهر سوى فى أوقات الشدة والأزمات ، فإذا ما هدأت الأمور غض الحكام أبصارهم عن هذه الممارسة التى تكشف المصادر عن حرص المصريين عليها .

وثمة تقليد كان سلاطين المماليك يراعونه على الدوام ؛ ذلك أنه بعد الفراغ من بناء السفن العسكرية كان يقام احتفال كبير فوق مياه النيل ، وتقوم المراكب والسفن الحربية بعدة استعراضات ومناورات كانت تستهوى المصريين فتحتشد جموعهم لمشاهدة هذه الاستعراضات بأعداد غفيرة على شاطىء النيل ، ويقبلون على استئجار المراكب بأسعار مرتفعة (٧٠) .

وثمة ضريبة كانت تفرض فى عصر سلاطين المماليك على المراكب والقوارب النيلية وكانت تُسمى « حماية المراكب » وهى عبارة عن مبلغ يدفعه صاحب المراكب ويجبى من المسافرين فى هذه المراكب . سواء كانوا من الفقراء أو الأغنياء . وقد أبطلها الناصر محمد بن قلاوون فيما أبطله من مكوس (٧١) لكن هذه الضريبة أعيدت مرة أخرى فيما بعد ؛ إذ يذكر ابن اياس أن السلطان الأشرف قايتباى قد فرض عدة ضرائب من بينها الضريبة على المراكب حين احتاج إلى المال سنة ٨٩٦ هجرية لتمويل إحدى حملاته العسكرية (٧٢) كما كانت هناك رقابة من نوع ما على السفن والمراكب التى تسافر فوق صفحة نهر النيل ؛ إذ كان يتم فرض بعض القيود على أصحاب السفن والقوارب النيلية بقصد تأمين سلامة الركاب والسفن . فقد كان على أصحاب السفن عدم تحميلها أكثر من طاقتها « خوف الغرق»

---

(٦٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

(٦٨) قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٧٩ ـ س ٩٨ .

(٦٩) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ : السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٦ .

(٧٠) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب (مخطوط) ، جـ ٢٨ ، ق ٢٤ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٢٨ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١١ ، ص ٣٥ ـ ص ٤٦ ؛ السيوطى ، كوكب الروضة (مخطوط) ، ق ٤٣٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٧٦ ـ ص ٢٧٧ .

(٧١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٥٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٤٧ .

(٧٢) ابن إياس ، بدائع الزهور (ط . بولاق) جـ ٢ ، ص ٢٦٨ .

كذلك لم يكن مسموحاً للسفن بالسفر أثناء هبوب الرياح . وفى حالة وجود ركاب من الجنسين على ظهر السفينة أو المركب ، كان يفرض على صاحب المركب أن يفصل بين النساء والرجال من ركابه بحاجز (٧٣) .

هذه الحرف التى ذكرنا أمثلة منها هى تلك الحرف التى يمكن أن نسميها « حرف الخدمات » وهى حرف تؤثر وتتأثر بالحياة اليومية وباتجاهات الحركة فى المجتمع . وبقدر ازدهار المجتمع وتقدمه تنتعش هذه الخدمات وتزدهر لأن حركة المجتمع ونشاطه ، والنمو السكانى فيه ، وعلاقاته مع العالم الخارجى ، وتجارته ـ كل هذه أمور تفرض نوعاً من الازدهار والانتعاش فى حرف الخدمات التى تقدم المواصلات والمياه، وسائر أعمال الخدمة ، مثل النظافة العامة ، والنظافة الشخصية . ومن ثم كان طبيعيا أن تزدهر الحمامات ، والمهن المرتبطة بها ، وتنتعش وسائل المواصلات (البرية والنهرية على السواء) فى بداية عصر سلاطين المماليك وهى فترة تميزت بالنمو والاستقرار والهدوء والأمن النسبى . وهى بدورها أمور أحس المجتمع المصرى بافتقادها فى الشطر الثانى من ذلك العصر بالقدر الذى ترك آثاره السلبية على هذه الحرف .

نأتى بعد ذلك لمناقشة بعض الحرف المتعلقة بالعمارة والبناء ، وهى فنون ازدهرت تماما آنذاك . وعلى الرغم من أن فنون العمارة لاتعد من الحرف المتصلة بالحياة اليومية عند النظر إليها للوهلة الأولى . فإن إنشغال عدد كبير من طوائف الحرفيين فى العمائر المملوكية كان يؤثر بالضرورة على شكل الحياة اليومية . كما أن طبيعة الوظيفة الاجتماعية لمعظم العمائر التى شيدت فى عصر سلاطين المماليك جعلت بصماتها واضحة على الحياة اليومية آنذاك .

وقد خلف لنا عصر سلاطين المماليك من العمائر ما يملأ أحياء القاهرة القديمة حتى الآن ، سواء من المساجد، أو المدارس، والأسبلة ، والأضرحة ، والحمامات ، والبيمارستانات . . وغيرها . وهو مايعطينا فكرة واضحة عن مدى تقدم فنون العمارة فى عصر سلاطين المماليك الذين حرصوا على الظهور بمظهر حماة الدين، واهتموا بالواجهة الدينية لحكمهم بالقدر الذى انعكس فى الحقيقة القائلة بأنه لايوجد سلطان واحد ، تقريباً ، لم يخلف مسجداً ، أو ضريحاً ، أو غير ذلك من العمائر (٧٤) ومن نافلة القول أن نذكر أن هذه العمائر قد شيدت بأيدى مجموعة من العمال المهرة فى مختلف المهن المتصلة بالعمارة .

وقد عددت لنا مصادر ذلك العصر عدة حرف مثل البنائين ، والحجارين ، والقطاعين . والصقالين ، والمرخمين ، والمبيضين ، والدهانين ، والطيانين ، والجبَّاسين ، والجيَّارين ، فضلاً عن النجارين والنشَّارين (٧٥) . وكان يساعد البنائين طائفة من العمال أو « الفعلة » الذين عرفوا فى

---

(٧٣) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٢٢٢ . (٧٤) زكى محمد حسن ، فنون الإسلام ، ص ٧٣

(٧٥) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٨٤ ـ ص ١٨٥ ؛ ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٣٤٣ ـ ص ٣٤٧ ؛ ابن دقماق، الإنتصار ، جـ ٤ ،ص ٢١ ـ ص ٢٢ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٠٢ . ويبدو من كتب =

مصطلح ذلك العصر باسم « الرقاصين» أو « رقّاصى البنايين» .

وحين يكون هناك بناء يتم تشييده ، كان يتم تعيين أحد الأشخاص لمراقبة سير العمل . وكان من يتولى القيام بهذا العمل يعرف فى مصطلح ذلك العصر باسم « الشّاد » . وعليه كانت تقع مسئولية جمع العمال وأرباب الحرف الذين سيتولون إقامة البناء ، ويعقد معهم الاتفاق على أجورهم التى كانت تجمع أحياناً بين الأجر النقدى والأجر العينى . وإذا كان البناء عمارة للسلطان أو أحد الأمراء ، كان يتم انتداب أحد المماليك للقيام بمهمة الشّاد (٧٦) .

ويبدو من استقراء مصادر عصر سلاطين المماليك أن العمال كانوا يتعرضون أحياناً لأكل حقوقهم ، وربما تعرضوا لأعمال القسوة والاضطهاد من جانب مستخدميهم ؛ بل كثيراً ما كان يحدث أن يسخرهم بعض الأمراء فى بناء له ، أو أن تسخرهم الدولة للعمل فى المشروعات العامة (٧٧) بيد أنه غالباً ما كان العمال ينالون حقوقهم ، ولاسيما إذا كانوا يعملون فى الأعمال ذات الطابع الخيرى (٧٨) ومن ناحية أخرى كثرت شكوى الناس فى ذلك العصر من تصرفات عمال ذلك الزمان وأخلاقيات العمل لديهم ، لأنهم حين كانوا يعملون بأجر يومى لدى الناس كانوا يتأخرون فى الحضور ويبكرون فى الإنصراف ، على الرغم من اتفاقهم على الأجر اليومى (٧٩) وربما كان معظم العمال المهرة فى حرف العمارة يتركزون بمدينة القاهرة (٨٠) .

ولأن فن العمارة ارتبط بطبقة الحكام على نحو أساسى ؛ فقد كان النابغون فى هذا الفن يحظون باهتمام وتقدير السلاطين والأمراء ، كما كان يتم تكريم بعضهم عند الاحتفال بافتتاح مدرسة ما . فعند افتتاح المدرسة الظاهرية (نسبة إلى السلطان الظاهر برقوق) سنة ٧٨٨ هجرية ، مثلا ، خلع السلطان خلعة تكريم على المهندس وخلعاً أخرى على مباشرى العمارة (٨١) كذلك اهتمت مصادر ذلك العصر كثيرا بتعقب أخبار كبار المهندسين (٨٢) .

= الحسبة أن « الطيان » كان هو الذى يقوم بتغطية الجدران بطبقة من الطين تمهيداً لطلائها عوضاً عن الملاط المستخدم حالياً ، وربما كان ذلك فى بيوت عامة الناس فقط . أما « الدهّان » فكان يقوم بالطلاء سواء فى الأبنية المعمارية أو المساجد . . أو غيرها .

(٧٦) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٧٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ .

(٧٧) السبكى ، المصدر السابق ، ص ١٧٣ ، المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٨٣ .

(٧٨) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ ـ ص ٣٢٨ .

(٧٩) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٣٤٣ .

(٨٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٧٠

(٨١) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ ١ ، ١٣٦ .

(٨٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٨٣ . حيث يتحدث عن شهرة المعلم « ابن السيوفى » المهندس الذى كان أول من بنى مئذنة من الحجر فى مصر بعد أن كانت تبنى من الآجر . انظرا أيضاً : ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ٢ . ص ٥٧ ـ ص ٥٨ فى ترجمة أحمد بن محمد على الطولونى كبير المهندسين الذى توفى سنة ٨٠١ هجرية .

وثمة حرفة أخرى يختلف مجالها كانت ترتبط بالحكام وبالرعية فى آن معاً . فقد كان الاشتغال بالموسيقى والغناء من الحرف التى احتفل بها المصريون ، واهتموا بها فى هذا العصر ، شأنهم فى كل العصور . اهتمت المصادر التاريخية بذكر آلات الطرب فى مصر آنذاك ومنها العود الذى وصفه البعض بأنه « . . أفخر آلات الطرب وأرفعها قدراً وأطيبها سماعاً . . . » والجنك وهى آلة وترية ويقترب صوتها من صوت العود ، وإن اختلفت عنه فى الشكل ،ثم الرباب التى كانت هى الآلة الموسيقية المفضلة لدى البدو العربان آنذاك ، والشبَّابة التى يبدو أنها كانت نوعاً من أنواع الناى تصنع من القصب المجَّوف ، والمزمار العراقى ، والدف ذو الصنوج الذى عرف أيام المماليك باسم «الصراصير» . وكان هناك سوق محدد تباع فيه هذه الآلات الموسيقية ، وفيه أيضا كان يجلس العاطلون من الموسيقيين والمطربين والمطربات والراقصات فى انتظار من يدعوهم لإحياء حفل أو عرس . ومن الطريف أنه شاع فى أوساط المصريين آنذاك أن من يمر من هذا المكان لاتقضى له حاجة (٨٣) وهو ما يكشف عن موقف مزدوج من المجتمع المصرى فى ذلك الحين تجاه أصحاب هذه الحرفة ، فعلى الرغم من اقبال المصريين على الموسيقى والغناء والاستمتاع بهما ، كما لاحظ الرحالة الذين زاروا مصر حينئذ . فإنهم تحفظوا فى نظرتهم للفنانين الذين كانوا يقدمون لهم هذه الفنون . وهو موقف مازالت بقاياه موجودة فى مجتمعنا الحالى .

وفى ذلك العصر ذاع صيت عدد كبير من الموسيقيين والمطربين مما جعل السلاطين يقربونهم وعقد الأمراء صداقات معهم ، كما اهتم المؤرخون برصد أخبار كبارهم ومشاهيرهم . والجدير بالذكر أنه فى ذلك العصر الذى لم يعرف الراديو أو التليفزيون ، أو التسجيلات بأنماطها المختلفة ، كان الفن الراقى وقفا على القصور وساكنيها . وقد أدى هذا إلى حرص السلاطين والأمراء على أن يحتفظوا بأشهر المطربين والموسيقيين ؛ بل إن العادة جرت فى عصر سلاطين المماليك على أن يكون لكل سلطان «جوقة من المغانى » فى قصره . كذلك كان المطربون يصحبون السلاطين فى سفرهم ، وفى حلهم وترحالهم (٨٤) .

وأوردت لنا مصادر ذلك العصر طائفة من أخبار المطربين والموسيقيين ؛ إذ يذكر ابن حجر أن «ابراهيم بن بابى العواد المغنى » كان مقربا عند السلطان المؤيد شيخ (٨٥) كما يحصى ابن الصيرفى أسماء خمسة من كبار الموسيقيين توفوا فى سنة واحدة (٨٦) ويتحدث المؤرخ نفسه ، فى كتاب آخر ،عن وفاة مطرب كبير كان بصحبة أحد كبار الأمراء فى بلاد الشام (٨٧) . كذلك يحدثنا ابن إياس عن مطربة

(٨٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص ١٤٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٧٩

(٨٤) ابن إياس . بدائع الزهور . جـ٣ ، ص ٥٥ ؛ عاشور المجتمع المصرى ، ص ٦٧ .

(٨٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ١٧٧ .

(٨٦) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص ٢١١ .

(٨٧) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٢١١ .

نالت شهرة واسعة وحُظْوَة هائلة لدى الأعيان وأرباب الدولة الذين أغدقوا عليها من مظاهر العز والعظمة « مالا رآه غيرها من أرباب هذا الفن» [٨٨] بل إن السلطان الأشرف شعبان حين واجه انقلاب مماليكه ، والذى أودى بحياته ، هرب ليختفى عند مطربة كان يعرفها من قبل [٨٩] .

أما عامة الناس ، فكان لهم ولع كبير بالموسيقى والغناء ، سواء فى الأفراح والحفلات المنزلية أو فى الاحتفالات العامة ، أو فى حياتهم اليومية . كما أن المصريين فى ذلك العصر كانوا يسعون إلى الأماكن التى يغنى فيها المطربون لكى يستمعوا إليهم . فقد اعتاد المصريون آنذاك على إحياء حفلات الزواج بالغناء والموسيقى ، بل إنه كانت توجد فى المدن المصرية قاعات مخصصة لعمل حفلات الزواج والافراح [٩٠] كذلك كان المصريون يحتفلون بالمولد النبوى فى منازلهم باحضار الفرق الموسيقية والمطربين مما أثار استياء بعض المتدينين . ومن الطريف أن البعض كانوا يحتفلون بالمولد النبوى بهذه الطريقة بغية استرداد الهدايا والنقوط التى كانوا قد أهدوها للآخرين فى المواسم والأفراح [٩١] . وهو ما يكشف عن أن تبادل الهدايا العينية والنقدية (النقوط) كان عرفاً اجتماعياً سائداً فى مصر آنذاك . كما أن ولع المصريين بالموسيقى والغناء بلغ حداً جعلهم يصطحبون معهم آلات الموسيقى والغناء فى القوارب للقيام بنزهة على مياه النيل ، وعندما يتوجهون إلى القرافة [٩٢] .

ولاشك فى أن الفلاحين والأعراب فى مصر كانت لهم الفنون الموسيقية والغنائية التى تعبر عنهم ، بيد أن افتقارنا إلى الدليل الوثائقى يحول دون محاولة رسم صورة نطمئن إليها فى هذا الصدد . لقد كان الفلاحون هم الغالبية الخرساء الذين أهملتهم المصادر المعاصرة وكانوا محل سخرية وامتهان هذا المجتمع الإقطاعى الذى فرض عليهم « التخصص » فى الإنتاج والفقر [٩٣] .

وقد أثارت روح المرح وحب التسلية اللتان اشتهر المصريون بهما انتباه الرحالة ابن بطوطة الذى قال عن أهل مصر إنهم « ذوو طرب وسرور ولهو » [٩٤] وقد عرفت مصر آنذاك عدداً كبيراً من حرف اللهو والتسلية . ففى رحبة باب اللوق ، مثلا ، كان يجتمع أصحاب الحلق « وأرباب الملاعب والحرف كالمشعبذين ، والمخايلين ، والحواة ، والمتأففين ، وغير ذلك ؛ فيحُشر هناك من الخلائق للفرجة وعمل الفساد ما لا ينحصر كثرة » [٩٥] وكانت مثل هذه الحلقات تعقد فى الميادين والأسواق فى شتى المدن المصرية ، كما كانت الموالد مجالا ومراحاً لأرباب مثل هذه الحرف .

---

(٨٨) ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٨ .

(٨٩) ابن حجر ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .

(٩٠) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ؛ ص ١٣ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ ١ ، ص ٦٧ .

(٩١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ص ٢ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣٥١ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان . جـ ١ ، ص ١٦٨ .

(٩٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٦٨ ، ص ٢٨٣ ، ـ ٢٩٠ .

(٩٣) انظر ؛ عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٤٨ ـ ص ٥٢ .

(٩٤) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٢ .

(٩٥) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٠ .

وفى بعض الأحيان كان الناس يشاهدون بعض الألعاب البهلوانية فى شوارع المدن المصرية (٩٦) ففى سنة ٨٢٨ هجرية على سبيل المثال ، وصل يشبك الجركسى الذى أقام فى بلاد الفرنج فترة «وتعلم مايصنعه البهلوان » . . وحين عاد نصب حبلاً بين مئذنتين ومشى عليه ، ورمى بالمكحلة وهو فوق هذا الحبل ، ثم رمى بالقوس ، فأهداه السلطان خلعة . ويحدثنا المقريزى عن عدة أناس كانوا يقومون بمثل هذه الألعاب البهلوانية فى شوارع القاهرة .

ومن ناحية أخرى يبدو أن الدولة فى عصر سلاطين المماليك كانت قد خصصت أماكن بعينها احتفظت فيها ببعض الحيوانات المدربة والغريبة . ويبدو أن مثل هذه الأماكن كانت تجمع بين بعض خصائص حدائق الحيوانات ، وبعض صفات السيرك فى العصر الذى نعيش فيه الآن . وكان الناس يذهبون إلى هذه الأماكن للنزهة والتسلية . وربما كانت هذه الأماكن من المعالم البارزة فى مدينة القاهرة ؛ فقد ذكر بيروتافور أنه شاهد المكان الذى يحتفظون فيه بالفيلة ، وقال إنه شاهد سبعة من هذه الفيلة ، وهى مدربة على بعض الألعاب ، مثل قذف الرمح فى الهواء بخرطومها ، ثم الإمساك به ، كما أنها تقوم بألعاب أخرى كثيرة . ويذكر الرحالة نفسه أنه شاهد الزرافة فى مكان آخر (٩٧) ومن المعلوم أن هذه الحيوانات كانت ترد إلى مصر على سبيل الهدية ، وكان حكام العالم المعاصرون يرسلونها إلى حكام مصر التى كانت قوة دولية مهابة فى ذلك الزمان .

وفى عصر سلاطين المماليك أقبل الناس بشغف زائد على التسلية بمشاهدة خيال الظل . فقد كانت تمثيليات خيال الظل (التى عرفت من مصطلح عصر سلاطين المماليك باسم « البابات » ومفردها « بابة » تجتذب الحكام والمحكومين إلى مشاهدتها ، بل إن القصور كانت تضم بين جدرانها بعض « المخايلين » الذين كانوا يقدمون عروض « خيال الظل » لساكنى هذه القصور . وكانت « المخايلة » من أكثر فنون ذلك العصر شعبية بحيث ورد ذكرها كثيراً فى المصادر التاريخية والأدبية لذلك العصر . وقد اشتهر عن بعض السلاطين حبهم لهذا النوع من وسائل التسلية وإن كان البعض الآخر قد اعتبرها من الأعمال المنافية للأخلاق والدين . ويبدو أن السبب فى ذلك كان راجعاً إلى أن كثيراً من تمثيليات خيال الظل كانت تتضمن أقبح عادات المصريين فى عبارات بذيئة مكشوفة وحركات شهوانية فاضحة ، فضلا عن أن الجنس كان هو الموضوع المفضل لهذه التمثيليات مما روج له فى ذلك العصر ، الذى شهد شطره الثانى تفشى مظاهر الانحلال الخلقى بشتى مستوياتها (٩٨).

---

(٩٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٧١٣ ، ـ ص ٧١٤ ، ص ٧١٦ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ٣. ص٣٤٨ .

(٩٧) رحلة تافور ، ص ٧٢ ـ ص ٧٣ .

(٩٨) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال (دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة القاهرة ١٩٦٣) ، ص ٥٢ ـ ص ٥٨ ؛ السخاوى التبر المسبوك ، فى ذيل السلوك ، ص ٢٥٣ ؛ عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٢٥ ، وما بعدها حيث يكشف عن كافة مظاهر الانحلال الخلقى فى ذلك العصر .

وكانت الدعارة من المهن التى تحظى برعاية الدولة المملوكية ؛ لأنها كانت تفرض عليها ضريبة معينة كانت تدر دخلاً كبيراً للخزانة السلطانية . فقد كان على كل من ترغب فى احتراف الدعارة أن تذهب إلى « ضامنة المغانى » . والغريب فى الأمر أن صاحبة هذه الوظيفة كانت بمثابة النقيب لمن يحترفن الدعارة ، ولكنها كانت مسئولة أيضا عن حرف نسائية أخرى مختلفة ، بل ومتناقضة مع هذه الحرفة ؛ إذ كانت « ضامنة المغانى » هذه مسئولة عن المغنيات والواعظات ، والقارئات والندابات . فضلا عن مسئوليتها عن بنات الليل [٩٩] ويبدو أن محترفات الدعارة فى عصر سلاطين المماليك قد تميزن بملابس خاصة بهن ، ففى سياق حديثه عن « سوق الشماعين » ذكر تقى الدين المقريزى أن حوانيت هذا السوق كانت تظل مفتوحة طوال الليل « وكان يجلس به بالليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين ، لهن سيما يعرفن بها وزى يتميزن به ، وهو لبس الملاءات الطرح . وكنّ يعانين الزعارة . ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم ، وفيهن من تحمل الحديد معهم » .[١٠٠] ويبدو أنه كانت هناك أماكن خاصة بالبغايا فى المدن والريف ؛ إذ يذكر المقريزى أن الأرمن قد اتخذوا من المنطقة التى عرفت باسمهم وكراً لبيع الخمور والدعارة « حتى أن المرأة إذا تركت أهلها أو زوجها ، أو الجارية إذا تركت مواليها ، أو الشاب إذا ترك أباه ، ودخل عند الأرمن بخزانة البنود لايقدر أن يأخذه منهم . «ولو كان من كان » [١٠١] كما يذكر ابن حجر أنه كان ببلاد الريف حارات مخصصة للدعارة «ومن اجتاز بها غلطاً أُلزم أن يزنى بخاطئة ، فإن لم يفعل فدى نفسه بشىء » [١٠٢] .

هذه هى أهم الحرف المتصلة بالحياة اليومية فى عصر سلاطين المماليك . وهى حرف تكشف عن جوانب متعددة من صورة الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك . وإذا كنا فى هذا البحث لم نتناول التنظيم الداخلى للحرف ، أو لعلاقة أصحاب الحرف والمهن المختلفة بالدولة ، فلأننا نتصور أن هذا موضوع لبحث آخر يخرج عن نطاق هذا البحث .

بيد أنه يبقى علينا أن نوضح حقيقة هامة مؤداها أن التدهور العام الذى بدأت دولة سلاطين المماليك تعانيه منذ القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، والذى انتهى بسقوط هذه الدولة تحت سنابك الخيول العثمانية فى مرج دابق والريدانية ، قد ترك أثره السلبى بالضرورة على شكل الحياة فى المجتمع المصرى ، وعلى الحرف المتصلة بالحياة اليومية بشكل جعل من الدولة المملوكية فى عيون المصريين وحشاً لايستحق الإنقاذ .

---

(٩٩) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ، ص ١٢٧ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص ٢١١ .

(١٠٠) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

(١٠١) المقريزى السلوك ، جـ٢ ، ص ٦٤٠ـ ص ٦٤١ .

(١٠٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ؛ ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٢٠٥ ؛ نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص ١٦٨ . جـ٣ ، ص ١٤٤ .

وقد أورد لنا المؤرخ ابن إياس قصيدة طويلة لأحد الشعراء المصريين تحمل نقداً مريراً لاذعاً لفساد الحياة الاجتماعية فى مصر فى أواخر ذلك العصر فضلا عن فساد الجهاز الإدارى وخراب ذمم القضاة والموظفين الحكوميين . ونورد فى السطور التالية عدة أبيات من هذه القصيدة التى نظمها جمال الدين السلمونى ، والتى وصفها ابن إياس بأنها« قصيدة مُطوَّلة فيها ألفاظ فاحشة إلى الغاية وإساءة مفرطة » ومنها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولِمَ لا وعبد البر قاضى قضاتها

أينُكر فى الاحكام زورٌ « وباطلٌ » وأحكامه فيها بمختلفاتها

إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حِلٌّ على شبهاتها

ويقول ابن إياس إن هذه القصيدة « دارت بين الناس » حتى أزعجت القضاة الفاسدين فأرادوا أن يحكموا عليه بأن يجلد بالسياط . . « ولكن جماعات كثيرة من العوام تعصبوا للشاعر وقصدوا يرجمون قاضى القضاة [١٠٣] » هذه الواقعة التى يحدثنا عنها ابن إياس تمثل جانباً من جوانب انهيار الجهاز العصبى للدولة المملوكية ، وهى تعبير عن انهيار كلى مس الأساس الاقطاعى للدولة [١٠٤] وقد وصل تخلخل البناء السياسى وتفكك النظام الإقطاعى إلى الحد الذى جعل قنصوه الغورى يرفض الجلوس على عرش السلطنة ويبكى خوفاً من تبعات المنصب السلطانى حين اختاره الأمراء لهذا المنصب[١٠٥] .

ونتيجة لذلك التدهور السياسى والاقتصادى الشامل ، تدهورت حرف كثيرة وماتت صناعات صغيرة منها ما يتطل بالغذاء ومنها ما يتصل بالعادات الاجتماعية ، مثل صناعة السكر والحلوى التى يوضح المقريزى فى خططه مدى ما أصابها من بوار [١٠٦] . كما أن إحصاء لعدد « القزازين » (صناع القماش) فى الإسكندرية سنة ٨٣٧ هجرية أثبت أنهم حوالى الثمانمائة ، على حين كان عددهم قبل حوالى نصف قرن فقط (٧٩٠ هجرية) أكثر من أربعة عشر ألفا . وسبب هذا التدهور الحاد فى هذه الصناعة الهامة ، كما تقرره المصادر التاريخية ، يرجع إلى التدهور العام « . . ففشا فيهم الظلم من الحكام ، وكثرة الجور ، وشؤم السيرة ، فتشتتوا شذر مذر » [١٠٧]

---

(١٠٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١١٣ ـ ص ١١٤ .
(١٠٤) قاسم ، أسواق مصر فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٥٤ ، وما بعدها .
(١٠٥) ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤ .
(١٠٦) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٨ ؛ السلوك ، جـ ٤ ، ص ٦٥٥ ، حيث يتحدث عن احتكار السلطان برسباى للسكر .
(١٠٧) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩ .

وما حدث بالنسبة لصناعة السكر والحلوى وصناعة الأقمشة يصدق على كافة الحرف والصناعات الأخرى . وهو بدوره انعكاس لمدى التدهور الذى تضافرت عوامل كثيرة لصنعه (١٠٨) لقد أحصى السلطان برسباى قرى مصر فى سنة ٨٣٧ هـ فكانت ألفين ومائة وسبعين قرية فقط بعد أن كان عددها فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى عشرة آلاف قرية . بل إن عدد القرى تناقص بعد سنة ٨٣٧ هـ . . « بخراب ما خرب منها من الظلم وخراب الأرض » (١٠٩) كذلك تقلصت مساحة مدينة القاهرة فى منتصف القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى بنسبة ١ : ٢٤ مما كانت عليه فى بداية عصر سلاطين المماليك (١١٠) .

هذا الضمور فى المجتمعات السكانية والخراب الريفى والحضرى يحملان دلالات لايخطئها الباحث عن أن الدولة كانت فى منحنى هبوطها ، وفى طور غروبها . وعندما تمزقت البيارق المملوكية تحت سنابك خيول العثمانيين فى مرج دابق والريدانية ، وعندما اهتز جسد طومانباى ، آخر سلاطين المماليك ، فى مشنقته على باب زويلة ، لم يكن ذلك سوى الحصاد المر لسنوات التدهور والذبول التى عاشتها الدولة المملوكية فى شطرها الثانى .

---

(١٠٨) انظر الدراسة عن الأسواق فى هذا الكتاب .

(١٠٩) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٣ .

(١١٠) Ashtor , A Social and Economic history, p . 304 .

المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادية

الأسباب والعوامل : تأخر الفيضان وقصور النيل ـ الأوبئة ـ العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ عرض لبعض هذه المجاعات والأوبئة : مقارنة إحصائية ـ موقف الدولة أثناء هذه الأزمات ـ النتائج والآثار : اجتماعيا (التدهور السكانى ـ بؤس الحياة الاجتماعية ـ تدهور البناء الاجتماعى ـ التدهور الأخلاقى) ـ اقتصاديا (تدهور الإنتاجين الزراعى والصناعى ـ انكماش حركة التجارة الداخلية ـ تخلخل النظام النقدى والسعرى ـ الأزمات الموسمية)ـ سياسيا (انهيار النظام الإقطاعى ـ تدهور السلطة السياسية ـ انعدام الأمن ـ التخبط فى السياسة الداخلية)

ثمة حقيقة يجمع عليها مؤرخو عصر سلاطين المماليك ، سواء من كان منهم معاصراً للأحداث أو من الباحثين المحدثين . ونقصد بهذه الحقيقة ذلك الفرق الواضح بين خط الصعود والنمو فى عصر المماليك البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م) وخط التدهور والاضمحلال فى عصر الجراكسة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) . بيد أن واقع ما تمدنا به المصادر التاريخية المتاحة يكشف عن أن كافة مظاهر التدهور التى عانت منها مصر والمصريون (وبلاد الشام أيضاً) تحت حكم الجراكسة ، كانت موجودة ، بشكل أو بآخر ، منذ قيام دولة سلاطين المماليك ، ولكن الدولة فى طور شبابها كانت قادرة على أن تتغلب على هذه العوامل أو تكبتها إلى حين ، بفضل بعض السلاطين الأقوياء القادرين وبفضل توفر الموارد اللازمة . فإذا ما بدأ التفسخ والانهيار وجدنا الأسباب والنتائج تجر بعضها بعضا فى دائرة حلزونية لتخلق أزمة لدولة المماليك لاتنتهى إلا بالقضاء على هذه الدولة نفسها . ومن نافلة القول أن نكرر ما سبق ذكره من مظاهر هذا التفسخ ، إلا أننا يمكن أن نقرر أن عوامل الهدم أخذت تدق بمعاولها فى بنيان دولة المماليك منذ وقت مبكر ، وحين باتت الثمرة دانية سقطت تحت أقدام العثمانيين عند الهزة الأولى .

ولعل الظاهرة الأساسية فى تلك الفترة ـ أى عصر الجراكسة ـ هى ظاهرة التدهور السكانى ، وما ينتج عن ذلك بالضرورة من آثار سياسية واجتماعية واقتصادية . ومنذ النصف الثانى من القرن الرابع

عشر الميلادى ، بات واضحاً أن فترة النمو الديموجرافى التى نعمت بها مصر مع بداية عصر المماليك قد ولت ، وبدأت البلاد تعانى من نقص متزايد فى أعداد السكان نتيجة لتلك السلسة المتوالية الحلقات من الأوبئة والمجاعات التى زاد معدل وقوعها منذ أواخر القرن الرابع عشر فصاعداً . وزاد من وقع المأساة تلك الأزمات الاقتصادية التى عانى منها الناس جميعاً فى ذلك الحين .

ويجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن غالبية المجاعات والأوبئة التى ألمت بمصر فى ذلك الحين ، إنما كانت مرتبطة بنهر النيل وفيضانه السنوى الذى تعتمد عليه الزراعة فى البلاد . ففى عصر سلاطين المماليك كما فى غيره من العصور ، ظل النهر العظيم قوام الحياة المصرية وعليه مدارها وعلى الرغم من الأرباح التى جنتها البلاد من تجارة المرور ، فإن النيل ظل بفيضه وغيضه هو المؤثر الأول والفعال فى حياة البلاد . فقد قام النظام السياسى على أساس إقطاعى يعتمد بدوره على الأرض كمصدر الثروة وحين تضطرب إنتاجية الأرض تضطرب دعامة هامة من دعامات دخل الطبقة الحاكمة . ومن ناحية أخرى ، اعتمدت جماهير المصريين على إنتاجية الأرض الزراعية ، على حين استأثر السلطان ومن يدورون فى فلكه بأرباح التجارة ، وهكذا لعب الفيضان السنوى دوراً هاماً وحيوياً فى حياة المصريين ، فإذا كانت المياه كافية لرى الأرض الزراعية « خرجت تلك السنة على خير » أما إذا هبطت مياه النيل عن حد الوفاء انتشرت حالة من الفوضى والفزع ، وماجت البلاد بمشاعر الخوف والترقب ، وتجسد شبح المجاعة بوجهه المرعب يتوارى خلفه شبح الوباء .

وقد أدرك المعاصرون هذه الحقيقة تمام الإدراك ، وصاغها « تقى الدين المقريزى » فى عبارة تقول « لولا ما جعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رى البلاد ، وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة ، لفسد إقليم مصر وتعذر سكناه لأنه ليس فيه أمطار كافية ، ولا عيون جارية ، تعم أرضه ، إلا بعض إقليم الفيوم [(١)] » .

والواقع أن توقف مياه النيل عن الزيادة فى موسم الفيضان كان يخلق موقفاً صعباً وخطيراً فى البلاد ، إذ تتأخر الزراعة ومن ثم يضطر الناس إلى أكل واستهلاك المخزون من الغلال ، وربما يستهلكون تقاوى الزراعة أيضا ، وبالتدريج يفرض الغلاء نفسه على مظاهر الحياة ، ثم تبدأ المجاعة التى تقتل الكثيرين من عامة الناس جوعاً ، وتمتلىء الشوارع والطرقات والحقول بالجثث التى ما تلبث أن تجيف ، وتنشر الأمراض الوبائية التى تسكن ألوف المصريين تراب بلادهم . وقد عاصر بيلوتى الكريتى ، الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر ، إحدى هذه المجاعات ، وذكر أنه مات فيها عدد لايحصى [(٢)] .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٢ .

(٢) Dopp , L ' Egypte , p . 20 .

والواقع أن قصور الفيضان وتعطل الزراعة كانا كارثة يخشاها الجميع ويحسبون لها ألف حساب . وتنتاب الناس المخاوف فيسارعون إلى تخزين الغلال ، ويشتد التزاحم على الأفران ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال تصعيد رهيب فى أسعار الغلال والخبز ، وتمتد حمى الأسعار إلى « كل ما يباع ويشترى من مأكول ومشروب وملبوس » (٣) .

وفى بعض الأحيان يكون الوباء سبباً فى المجاعة أو العكس ، وربما يواكب كل منهما الآخر . والأمثلة كثيرة ومتواترة فى مصادر تلك الفترة (٤) . فقد تتسبب المجاعة فى موت البعض ، ثم ينتشر الوباء نتيجة لذلك . وقد يأتى الوباء ليقضى على أعداد كبيرة من السكان بحيث لاتجد الأرض من يزرعها وتكون النتيجة أن تنشب المجاعة مخالبها فى البلاد من جديد ، وهو ما عبر عنه المقريزى بقوله « إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين » (٥) . .

ولكن الغلاء أو المجاعة وما يتبعها من مظاهر الفوضى على شتى المستويات ، لم تكن فى جميع الأحوال ناجمة عن هبوط النهر ، أو غرق الأراضى الزراعية . إذ أن ثمة من الأسباب ما يتصل بالأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فقد كان من أسباب تفاقم الأمور أثناء المجاعة التى حدثت سنة ٦٩٤ هـ (١٣٩٤ م) أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون كان قد فرق المخزون من الغلال على الأمراء قبل موته ، فلما قصَّر النيل عن الوفاء ، اشترى الوزير الغلال الموجودة فى الأسواق لسد حاجة السلطان ومماليكه ، وكانت النتيجة أن ارتفعت أسعار القمح وتكالب الناس على شرائه (٦) . ويكشف هذا المثال وغيره (٧) عن أن الحكام بسياستهم التى اهتمت بتكوين الثروات لأنفسهم ، وتأمين احتياجاتهم ، كانوا يتسببون فى خلق مثل هذه الأزمات ، أو يزيدون من حدة المجاعة وضراوتها . بل إن بعض السلاطين ، لاسيما فى عصر الجراكسة ، كانوا يشترون الغلال من الأسواق وهى رخيصة ويخزنونها طمعًا فى أن يهبط النيل ويحققوا لأنفسهم مكسبا ، ويذكر ابن الصيرفى فى حوادث سنة ٨٣٥ (٨) أن السلطان برسباى أمر بشراء الغلال لحسابه « كونها رخيصة ، وربما توقفت زيادة النيل ، فغلت الأسعار ، فتكون الفائدة للسلطان » وكانت نتيجة ذلك أن ارتفعت الأسعار وزاد الإردب القمح عن قيمته ما يزيد عن ثلاثين

---

(٣) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٤١ ـ ص ٤٢ .
(٤) انظر الإحصائية فى الصفحات التالية .
(٥) المقريزى المصدر السابق ، ص ٤١ .
(٦) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ٢٨ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .
(٧) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس جـ ٣ ص ٢٣٨ .
(٨) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .

ديناراً ، كما يذكر ابن إياس [٩] فى حوادث سنة ٨٧٤ هـ أن ارتفاع أسعار الغلاء بسبب احتكار الدوادار الكبير لغلال الوجه القبلى .

ويتصل بالعامل السابق عامل آخر هو تدهور النظام السياسى فى الدولة ، والذى عبر عن نفسه فى عدم الاهتمام بصيانة الجسور التى تحفظ مياه النهر . وكثيراً ما تخبرنا مصادر تلك الفترة بحوادث انقطاع الجسور وغرق الأراضى وما ينتج عن ذلك من ارتفاع الأسعار ، وتزاحم الناس على الأفران وحوانيت بيع الخبز [١٠] .

كما أن الفتن والمنازعات الداخلية وحروب الشوارع بين طوائف المماليك ، والتى زادت فى العقود الأخيرة من ذلك العصر ، كانت تسهم بشكل أو بآخـر فى خلق هذه الفوضى الاقتصادية ـ الاجتماعية ، إذ كان مجرد إشاعة موت أحد السلاطين ، أو ركوب أمراء المماليك بالسلاح للاقتتال . يسبب فزعاً شديداً للناس فتغلق الأسواق والحوانيت ، وتبدو المدينة وكأن سكانها من الموتى ، مثال ذلك ما حدث سنة ٦٩٣ هـ ، حين جاءت الأنباء بمقتل السلطان الأشرف خليل ، وخلت الطرقات والأسواق من روادها ، واختفى الخبز من الأسواق « . . وقاسى الناس شدة عظيمة » [١١] وفى عصر الجراكسة تزايد تأثير حوادث القتال والشغب من طوائف المماليك بشكل جعل من هذه الحوادث مادة دائمة فى حوليات المؤرخين المتأخرين . بل إن الأمر وصل ببعض السلاطين إلى أن يصرح للمماليك الجلبان بمهاجمة بيوت كبار موظفى الدولة وأخذ ماينهبونه منها لأن رواتبهم تأخرت عليهم [١٢] .

ويكفى للدلالة على مدى التدهور السياسى أن نورد ما ذكره ابن إياس من أن سنة ٨٧٢ هـ قد حكم فيها أربعة سلاطين منهم خايربك « سلطان ليلة » الذى لم يحكم سوى ليلة واحدة « وخرجت هذه السنة وقد وقع فيها من الفتن والشرور والانكاد ما يكاد أن يضبط » [١٣] .

وفى تقديرنا أن هذا التدهور السياسى كان من أسباب التدهور الاقتصادى بقدر ما كان نتيجة له . ذلك أن النظام الإقطاعى المملوكى الذى اعتمد على الأرض وإنتاجها بشكل أساسى ، قد استهدف أيضاً عدم التمكين لقيام أسرات إقطاعية قوية ؛ ففرق الإقطاعات فى أنحاء متفرقة ، كما كان الإقطاع يتغير مع تغير وظيفة صاحبه . وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن حرص كل صاحب إقطاع على أن يكون لنفسه الثروة بقدر الإمكان ، دون الاهتمام بوسائل زيادة إنتاج الأرض مثل الجسور والترع وغيرها . وفى النهاية زاد اعتماد أبناء الطبقة الحاكمة على الرواتب النقدية لكى يحافظوا عـلى حياة الترف

(٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٢٣ .
(١٠) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٤١ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦ .
(١١) ابن أيبك الدوادار ، كنز الدرر ، جـ٨ ، ص ٢٧٣ .
(١٢) ابن الصيرفى ، المصدر السابق جـ٣ ، ص ١٧٤ .
(١٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣٠ ، ص ١٨ .

و البذخ التى عاشوها ، على حين كان إنتاج البلاد من المصنوعات التى اشتهرت بها قد تواضع إلى أدنى حدوده [١٤] . وكانت النتيجة مزيداً من استنزاف رصيد البلاد من الذهب والفضة ومزيداً من التدهور الاقتصادى والأزمات الاقتصادية .

ومن ناحية أخرى ، فإن انعدام الأمن فى ربوع البلاد كان يخلق هذا الاضطراب الاقتصادى فى أحيان كثيرة . فقد سبب العربان كثيراً من المتاعب للسلاطين منذ بداية دولتهم وحين وهنت قبضة الدولة فى أخريات أيامها صاروا يهاجمون القرى وينهبونها ، بل ويهاجمون المدن ، وفى كل مرة تخرج إليهم إحدى الحملات تفسد المزروعات وتنزل بالريف ألواناً من البلاء والظلم مما يزيد فى متاعب الناس الاقتصادية ، وقد يتوقف جلب الغلال إلى أسواقه فى القاهرة والفسطاط لهذا السبب [١٥] .

كذلك كان التجار يفتعلون الأزمة الاقتصادية أحياناً ، لاسيما فى زمن الفيضان حتى يمكنهم تحقيق الربح فى ظل القلق الذى كان يساور الناس دائماً حول وفاء النيل إذ أدى تدهور الاهتمام بوسائل الرى إلى تكرار حوادث انقطاع الجسور ، أو تأخر الزراعة ، ثم ما يعقب ذلك من أزمات ، وقد كان التجار « عند ابتداء زيادة النيل كانوا يشرعون فى مشترى الغلال وحوزها عندهم . . ثم يعقب ذلك توقف الزيادة فيغلو السعر » ومن الطريف أن المعاصرين كانوا يسمون مثل هذه الأزمة المفتعلة «الكذابة» [١٦] . على أن أخطر ما قاساه المصريون فى ذلك العصر لم يكن ارتفاع الأسعار أو غير ذلك من مظاهر الأزمة الاقتصادية ، وإنما تلك السلسلة الرهيبة من الأوبئة والمجاعات . وسنحاول فى الصفحات القليلة التالية أن نعرض لبعض مظاهرها حتى يمكن للقارىء أن يتصور مدى فداحة خطرها .

كانت أول مجاعة يرصدها مؤرخو عصر المماليك هى تلك التى حدثت سنة ٦٦٢ هـ (١٢٢٥ م) نتيجة لقصور النيل عن حد الوفاء ، واختفت الغلال والخبز من الأسواق تقريباً ، واضطر الناس إلى أكل حشائش الحقول وأوراق اللفت والكرنب [١٧] واستمرت الأسعار فى تصاعدها حتى جنيت المحصولات الجديدة ، فأخذت الأسعار فى النزول وانتهت الأزمة .

---

(١٤) فى سنة ٧٩٠ هجرية كان عدد القزازين (صناع الأقمشة) أكثر من أربعة عشر ألف نول فى مدينة الإسكندرية . وانخفض العدد سنة ٨٣٧ هـ إلى ثمانمائة فقط لأن الظلم وجور الحكام شتتاهم فى البلاد (ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ؛ج ٣ ، ص ٢٧٩) .

(١٥) انظر على سبيل المثال ابن الصيرفى ، إنباء ، ص١٧ ، ص ١٤٤ ـ ص ١٤٥ ، ص ١٥٣ ، ص ١٩٢ . ص١٩٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ١٢ ـ ص ١٣ ، ص ٢٣ ، ص ٢٥ ، ص ٤٣ ، ص ٧١ ـ ص ٧٢ ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ ، ص ١١٣ ، ص١٤٣ .

(١٦) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٦١ ـ ص ٢٦٢ .

(١٧) المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٥٠٦ ؛ العينى ، عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٢ هـ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم جـ ٧ ص٢١٣ . ويذكر النويرى (نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ق ٢٧) أن هذه المجاعة وقعت سنة ٦٦١هـ .

وفى ما بين سنتى ٦٩٤ هـ ، ٦٩٥ هـ (٤ ـ ١٢٩٥ م) حدثت مجاعة رهيبة عقب هبوط نهر النيل ، وكانت الصورة قاتمة للغاية « فقد كثر الشح ، ووقفت الأحوال واشتد البكاء وعظم الضجيج فى الأسواق من شدة الغلاء » ووصل الأمر بالناس إلى أكل القطط والكلاب والحمير والبغال ، حتى أن الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم على ما يذكر ابن إياس (١٨) .

وقد عاصر ابن أيبك الدوادارى هذه المجاعة وشاهد بعض أحداثها وسجلها بقوله : « . . كان يقول الإنسان الفقير لبابة الله ، ويموت مكانه وعادوا يخرجون إلى الكيمان يلتقطون ما يكون مدفونا بها من حبة قمح أو شعير أو فول أو ما أشبه ذلك ، ولقد نظرت بعينى برا باب البرقية ظاهر القاهرة فى الخندق برا السور جماعة كبيرة شبه الوحوش الضارية قد تغيرت عنهم ملامح الإنسانية ، وكل جماعة عندهم قدر ينتظرون الميتات التى تخرج وترمى بكيمان البرقية ، فيأخذونها بالضراب بينهم من قوى على صاحبه فيطبخونها يأكلونها . . » (١٩) ثم يحدثنا عن أن الناس صاروا يأكلون القطط والكلاب . ويذكر أن الناس صاروا يأكلون الأطفال ، ويأكلون بعضهم بعضاً . وعلى الرغم من تحفظنا من قبول مثل هذه الأقوال ، فالواضح أن عامة المصريين كانوا يقاسون الأهوال ويقعون فريسة سهلة للمجاعة حتى إنهم ينتظرون الميتات التى تلقى إليهم من القلعة أو قصور الأمراءالذين لاتنالهم المجاعة بالأذى .

بيد أن المجاعة سرعان ما كانت تجر الوباء وراءها . ففى أثناء هذه المجاعة مات آلاف الناس جوعا ، وانتشرت جثثهم فى كل مكان ؛ فانتشر الوباء وصار الناس يتساقطون صرعى الجوع والمرض فى الطرقات والحقول ، وعلى صفحة النهر والترع . وأخذت الكلاب تنهش جثث الضحايا ، على حين يطاردها الأحياء لكى يأكلوها . ولم يجد الموتى من الغرباء من يدفنهم « . . لاشتغال الأصحاء بموتاهم والسقماء بأمراضهم . . . » وخلت القرى من سكانها لدرجة أن القرية التى كان بها مائة شخص لم ينج منها سوى حوالى العشرين على ما تذكره مصادر تلك الفترة . وكان تأثير هذه المجاعة رهيبا بحيث أثرت على مقدرات الدولة كما سنرى (٢٠) .

وقد شهدت الفترة ما بين عام ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) وعام ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) عدة مجاعات وأوبئة كان سببها فى غالب الأحوال راجعا إلى قصور فيضان النيل عن الوفاء ، ولكن تأثيراتها لم تكن مدمرة مثل المجاعة السابقة (٢١) .

---

(١٨) ابن إياس ، بدائع الزهور (ط . بولاق) ، جـ ١ ، ص ١٣٣ ـ ص ١٣٤ .

(١٩) ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٨٣ .

(٢٠) المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص٨٠٨ ـ ص ٨١٥ ، إغاثة الأمة ص ٣٧ ـ ص ٣٨ ؛ النويرى ، نهاية الأرب . جـ ٢٩ ، ق ٨٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ ؛ السيوطى حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص٢٩٧ ـ ص ٢٩٨ .

(٢١) ابن أيبك المصدر السابق جـ٩ ص٢٥٨ ، ص ٣٥٩ ؛ ابن الوردى ، جـ ٢ ، ص ٣٤٩ ؛ المقريزى ، السلوك . جـ ١ ص ٨١٥ ، يتبع .

وجاءت سنة ٧٤٩ هـ لتشهد ذلك الوباء المروع الذى اجتاح الأرض من أقصاها إلى أقصاها ليخرب البناء السكانى فى العالم المعروف آنذاك . وقد كان هذا الوباء المروع مقدمة لتناقص أعداد السكان فى الشرق الأدنى وفى أوربا على حد سواء [٢٢] . وقد عرف المسلمون هذا الوباء الشامل باسم « الفناء الكبير » . على حين عرفه الغرب الأوربى باسم « الموت الأسود Black Death » وكان من أعراض هذا الوباء الذى أفاض المؤرخون والرحالة فى وصف تأثيراته أن يبصق المصاب دماً ثم يصيح ويموت . وقد بدأ هذا الوباء المروع ينشب أنيابه فى مصر فى خريف سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ثم اشتدت وطأته مع بداية العام التالى . واستمر يمزق فى الجسد المصرى حوالى عامين . وقد تراوحت أعداد ضحاياه ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسمة يوميا . وتزايد عدد الموتى بحيث صار الناس يحملونهم عل السلالم والأبواب والألواح الخشب . وانقطع البعض لتغسيل الموتى ، كما انقطع البعض الآخر للصلاة عليهم . ويبدو أن القبور كانت أقل من أن تستوعب هذه الأعداد الكبيرة ، فلجأ الناس إلى دفن عدة جثث فى الحفرة الواحدة .

وامتلأت الطرقات والمساجد بجثث الضحايا ، وكان الوباء فتاكا لدرجة أن الأدوية لم تكن تجدى نفعا ، وذلك « لسرعة الموت » ، وصار الموت يطالع الناس فى كل الطرقات « . . فلا تجد بيتا إلا وفيه صيحة ، ولا تمر بشارع إلا وفيه عدة أموات . . » .

وقد شمل هذا الوباء كل شىء ، فقد امتد أثره إلى « . . . حيتان البحر ، وطير السماء ، ووحش البر » . كذلك فسدت الزراعات بفعل وجود الدود فيها ، كما تسممت الأسماك فى النهر والترع والبحيرات .

ثم أخذ الوباء يتناقص فى سنة ٧٥٠ هـ ، وما لبث أن ارتفع نهائيا [٢٣] ، ولكن آثاره ونتائجه ظلت تفرض نفسها على الحياة المصرية فترة طويلة ، بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن هذا الوباء كان هو المقدمة الحقيقية للتدهور العام الذى بدا أشد وضوحا مع مطلع القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

---

(٢٢) Ashtor , A social and economic hist . , pp . 301, ff
وعن تأثير « الموت الأسود Black Death على حضارة أوربا العصور الوسطى انظر رواية الشاعر القصاص الإيطالى جيوفانى بوكاشيو Giovanni Boccaccio (١٣ ـ ١٣٧٥) التى يعتقد أنه جمعها من أقوال الفارين من هذا الوباء :
the Decameron (translated by J . M . Rigg , George Routledge and sons , London 1995) , pp . 4 - 12 .

(٢٣) المقريزى ، السلوك جـ ٢ ، ص ٣٢١ ، يتبع ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٤ ، حوادث سنة ٧٤٩ هـ ، وسنة ٧٥٠ هـ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ ، السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ٢ ، ص ٣٠٣ .

وبعد هذا الوباء المروع تعرضت البلاد لعدة أوبئة نذكر منها الوباء والمجاعة المتقطعة التى عاصرها المؤرخ تقى الدين المقريزى ، والتى استمرت من سنة ٧٩٦ حتى سنة ٨٠٨ هـ . وقد هاله ما شاهده أثناء هذه المجاعة ، ولمس بنفسه أسبابها الحقيقية ، ومن ثم أفرد كتابا لهذا الموضوع هو كتابه المسمى « إغاثة الأمة بكشف الغمة » (٢٤) . وفى هذا الكتاب تعرض مؤرخنا لأهم المجاعات التى ألمت بمصر منذ القدم وحتى سنة ٨٠٨ هـ وقد تضمن هذا الكتاب معلومات قيمة وهامة عن أوضاع مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى ذلك الحين . كما وضع يده على أهم المجاعات ولخصها فى قوله « إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين » ، ذلك أن الناس تضطر إلى استهلاك المخزون من الغلال القديمة ، والتى يستخدم جزء منها فى زراعة المحاصيل الجديدة عند وفاء النيل ، ويأتى عام جديدة ليجد أن التقاوى قد استهلكت . وهكذا كان تأخر الفيضان سنة يؤدى ، بالتداعى ، إلى سلسلة من سنوات القحط والمجاعة . وهذا ما يصدق على المجاعة التى نحن بصددها ، فقد بدأت بقصور النيل فعلا ثم استمرت عدة سنوات بشكل متقطع . وكان طبيعيا أن يصحبها الوباء الذى يذكر المقريزى وغيره (٢٥) أنه قضى على أكثر من نصف سكان البلاد . وقد أرجع المقريزى سبب هذه الحال الرهيبة إلى « . . سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد . . » (٢٦) .

وقد شهدت السنوات المائة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك عدة مجاعات وأوبئة لعل من أشهرها الأوبئة الثلاثة التى رزحت البلاد تحت وطأتها فى عصر السلطان قايتباى ، وكان آخرها سنة ٨٦٧ هـ (١٤٩١ م) . وتذكر مصادر تلك الفترة أن واحداً من هذه الأوبئة قضى على حوالى مائتى ألف شخص ، وهلك فيه ثلث المماليك تقريبا ، بل إن السلطان فقد ابنته وزوجته فى يوم واحد على الرغم من مستوى معيشة الحكام الذى لا يمكن مقارنته بمستوى معيشة عامة الناس . وصاحب هذه الأوبئة مجاعة رهيبة أمسكت بخناق الناس ، على حين انفجر الصراع بين طوائف المماليك ليزيد من المساحة القاتمة الكئيبة فى الصورة (٢٧) .

والحقيقة أن الأوبئة والمجاعات فى ذلك العصر ، لا سيما فى شطره الثانى ، كثيرة ومترادفة بحيث لا يمكن أن نتتبع كلا منها على حدة ، ولكنها جميعا تشترك فى كونها تحالفت مع ظلم الحاكمين وعبث العربان واللصوص والمماليك المفسدين لطحن جموع المصريين ، فقد عاشت فى مصر آنذاك طائفة

---

(٢٤) نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ م .

(٢٥) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٤١ ـ ص ٤٣ ، السلوك جـ ٣ ، ص ٨٢٦ ، ٨٩١ ، ص ١٠٠٣ ، ١١١٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٣ ، ص ٥٢ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ق ٤٠ ، ق ١٩٨ .

(٢٦) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٤٣ .

(٢٧) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٤٦ ، ٥٠ ـ ص ٥٩ ، ص ٦٠ ـ ص ٦١ ؛ ابن إياس بدائع الزهور ، جـ ٣ . ص ١٨ ، ٣٧ ، ١٢٥ .

كبيرة من سواد العامة الذين لا يكادون يحصلون على قوت يومهم ، أو يجدون ما يستر أجسادهم . فضلا عن جماهير الفلاحين الذين كانت حياتهم فى عصر سلاطين المماليك تجسيداً لمأساة الإنسان حين تتضافر عليه كوارث الطبيعة وظلم الحكام . وكان طبيعيا أن تبدو الحياة مستحيلة وكريهة فى نظر عامة المصريين بسبب عوامل الإحباط المتحكمة فى حياتهم اليومية .

ومهما يكن الأمر ، فإننا ينبغى أن نقدم محاولة إحصائية للمجاعات والأوبئة فى كل من عصر البحرية وعصر الجراكسة ، لعل تحليلها ودراستها يمكن أن تساعدانا على زيادة توضيح الصورة .

جدول المجاعات والأوبئة زمن المماليك البحرية(٢٨)

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٦٦٢ هـ (١٢٢٥ م)	قصر النيل عن حد الوفاء ، فارتفعت أسعار الغلال ، وتكالب الناس على الأفران وحوانيت الخبز ، ثم اضطروا لأكل أوراق اللفت والكرنب ، لم يكن هناك ضحايا بسبب تدخل بيبرس وإلزامه للأمراء بإطعام الفقراء ، وحين ظهرت المحصولات الجديدة ارتفع الوباء .
٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م)	انتشر فى البلاد مرض وبائى ، كان أكثر ضحاياه من النساء والأطفال ويبدو أنه لم يكن ذا تأثير خطير .
٦٩٤ ـ ٦٩٥ هـ (٩٤ ـ ١٢٩٥ م)	مجاعة رهيبة ووباء نتيجة للفيضان الهابط فى ذلك الوقت . قضى الوباء على أعداد كبيرة من السكان . وتخلخل البناء السكانى فى الريف على وجه الخصوص .
٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م)	انتشار مرض وبائى ولكنه لم يتسبب فى موت الكثيرين ، كما حدث فى السنة نفسها أن قصر النيل عن الوفاء وارتفعت الأسعار
٧١٦ هـ (١٣١٦ م)	حدث الوباء عقب هبوب ريح سوداء أعقبها مطر . ولكن انتشاره كان فى بلاد الصعيد فقط على ما يبدو .
٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م)	انتشر الطاعون ، بيد أن ضحاياه كانوا من القلة بحيث أغفلت بعض المصادر ذكره .
٧٣١ هـ (١٣٣٠ م)	انتشار محدود لأحد الأمراض الوبائية وصفته المصادر بأنه « وباء يسير » .

(٢٨) مصادر معلوماتنا عن هذا الجدول والجدول الآخر موضحة فى كتابنا « النيل والمجتمع المصرى » ص ١٢٩ ، يتبع .

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٧٣٦ (١٣٣٥ م)	فى عصر السلطان « الناصر محمد بن قلاوون » توقف النهر عن الزيادة ، وحدثت مجاعة ولكن أمكن التغلب عليها قبل أن تستشرى ، فقد أمر السلطان بتوزيع الغلال على الفقراء من الشون السلطانية وشون الأمراء .
٧٤٧ هـ (١٣٤٦ م)	حدثت أزمة اقتصادية ، ويبدو أن تأثيرها كان محدوداً .
٧٤٨ هـ / ٧٤٩ هـ (٤٧ ـ ١٣٤٨ م)	«الفناء الكبير » ، أو الموت الأسود .
٧٦١ هـ (١٣٥٩ م)	وباء بالقاهرة وبلاد الوجه البحرى استمر حتى السنة التالية ومات فيه كثير من الأعيان .
٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م)	انتشرت بعض الأمراض الوبائية فى القاهرة وعامة بلاد الوجه البحرى ، ولكن ضحاياها كانت محدودة للغاية .
٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م)	وباء شديد الوطأة استمر يحصد الأرواح على مدى أربعة شهور ، وبلغ عدد ضحاياه فى القاهرة والفسطاط حوالى مائة نفس يوميا ممن سجلهم ديوان المواريث .
٧٧٥ هـ (١٣٧٣ م)	توقف نهر النيل عن الزيادة فى موسم الفيضان ، ومات عدد ضخم من ذوات الأربع ، ثم أنشبت المجاعة أظفارها الحادة فى الناس . وأخذ ضحايا الجوع يتساقطون فى كل مكان .
٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م)	نتيجة لما حدث فى العام السابق ، انتشرت الأمراض الوبائية الفتاكة وتقدر المصادر عدد الذين سجلتهم الأوراق الرسمية بحوالى مائتين ، وعدد الضحايا المجهولين بحوالى خمسمائة يوميا .
٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م)	استمرت المجاعة والوباء ، وأخذ الناس يأكلون القطط والكلاب والميتات . كما تذكر المصادر أن بعض الناس كانوا يبيعون أطفالهم بل يذكر ابن حجر أن بعضهم أكل الأطفال .

الوصف والملاحظات	سنة وقوع المجاعة أو الوباء
كانت بقايا المجاعة والوباء مازالت باقية ، ولو أن عدد الضحايا قل كثيراً .	٧٧٩ هـ (١٣٨٧ م)
بدأ الوباء فى مدينة الإسكندرية ، ثم أخذ ينتشر تدريجياً حتى عم بلاد الوجه البحرى ، والعاصمة . ويذكر المؤرخون أن عدد ضحايا هذا الوباء فى مدينة القاهرة قد بلغ حوالى ثلاثمائة نسمة فى اليوم الواحد ، عدا الضحايا المجهولين « الطرحاء » الذين كانت جثثهم توجد ملقاة فى كل مكان .	٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م)

هذه ، بشكل عام ، أهم المجاعات والأوبئة التى شهدتها مصر فى عصر المماليك البحرية ، أو فى عصر دولة المماليك الأولى ، كما يحلو لبعض الباحثين أن يسميها . والجدير بالذكر أننا قد أغفلنا ذكر الكثير من الأزمات الاقتصادية التى عادة ما كانت حوليات ذلك العصر تصفها بأنها « غلوة خفيفة» ، وذلك لأنها غالباً ما كانت من نتائج الأوبئة والمجاعات أو من المظاهر المصاحبة لها وهو ما سنوضحه فيما بعد .

والمتأمل فى الجدول السابق يخرج بعدة استنتاجات لعل من أهمها أن ذلك العصر ، الذى امتد فى الزمان لأكثر من مائة وثلاثين عاما ، لم يشهد سوى ثلاثة أوبئة كبرى ، كان أحدها هو الوباء الشامل الذى اكتسح أنحاء المعمورة فى أواسط القرن الرابع عشر والاستنتاج الثانى هو أن معدل حدوث المجاعات والأوبئة فى مصر قد ارتفع بعد هذا الوباء الشامل ، أو « الفناء الكبير » على حد تعبير ذلك العصر . وعلى الرغم من أن مؤرخى تلك الفترة قد أسهبوا فى وصف تفاصيل كل من هذه الأوبئة ، فالواضح أن البناء الاجتماعى فى مصر لم يبدأ فى التخلخل إلا بعد منتصف القرن الرابع عشر ، أى بعد « الفناء الكبير » . وهو التخلخل الذى تبدت مظاهره واضحة وارتفع معدله بسرعة فى عصر الجراكسة على ما يكشف الجدول .

جدول المجاعات والأوبئة زمن المماليك الجراكسة

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م)	حدث غلاء فى القاهرة ، ويبدو أنه كان من بقايا نتائج الوباء الذى حدث فى العامين السابقين .
٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م)	حدث غلاء فى العاصمة بسبب المنازعات السياسية والتنافس على العرش .
٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م)	انتشر الوباء فى الإسكندرية ، ويبدو أنه لم ينتشر خارجها .
٧٩٠ هـ / ٧٩١ هـ (١٣٨٨ / ١٣٨٩ م)	انتشر فى القاهرة وضواحيها وباء قضى على عدد من السكان ، وقد ظل هذا الطاعون متفشياً فى البلاد حتى سنة ٧٩١هـ .
٧٩٤ هـ (١٣٩١ م)	انتشر مرض وبائى قضى على أعداد هائلة من الأبقار حتى كادت أن تختفى من مصر ، ونتج عن ذلك أن ارتفعت أسعار اللحوم ومنتجات الألبان وغيرها من المواد الغذائية .
٧٩٥ هـ (١٢٩٢ م)	بدأ الوباء ينتشر فى مدينة الإسكندرية .
٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م)	بدأت المجاعة الكبرى الرهيبة التى استمرت حوالى ستة عشر عاما بصورة متقطعة وقد صحبها الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية فى كثير من مراحلها ، ويذكر المقريزى أن هذه المجاعة المخيفة كانت هى فاتحة التدهور الاقتصادى لمصر ، ويؤكد المؤرخ الكبير هذا الرأى فى كل مناسبة ، وفى جميع كتبه عن مصر .
٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م)	نتيجة المجاعة التى بدأت فى العام الماضى ، حدثت أزمة اقتصادية شديدة وصحبها الوباء ليزيد الطين بلة .

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٧٩٩ هـ (١٣٩٦) م	انتشر الوباء واستمر ثلاثة شهور وقضى على عدد من السكان .
٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م)	انتشرت أمراض وبائية فى القاهرة وبلاد الوجه البحرى .
٨٠٢ هـ (١٣٩٩م)	حدثت أزمة اقتصادية ، واختفت المواد الغذائية وارتفعت الأسعار وفى هذه السنة أيضا انتشر مرض « السعال والباردة» ولكن المصادر لا تحدثنا عن وقوع ضحايا .
٨٠٤ هـ (١٤٠٢ م)	توقف النيل عن الزيادة فى موسم الفيضان ، فارتفعت الأسعار واختفى الخبز من العاصمة ثلاثة أيام .
٨٠٦ هـ (١٤٠٣م)	اشتدت الأزمة التى لاحت بوادرها فى العام السابق ، ثم انتشر مرض وبائى بين الفقراء من الناس وقضى على عدد كبير منهم ، وتبع ذلك اشتداد الأزمة الاقتصادية .
٧٠٧ هـ (١٤٠٤م)	استمر الوباء يفتك بالعامة ، ثم مد مخالبه إلى غيرهم . وزادت حدة الأزمة الاقتصادية .
٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م)	وقع طاعون شامل فى بلاد الصعيد ، ويبدو أن أثره كان من العنف بحيث « شمل الخراب غالب بلاد الصعيد » ،
٨١٠ هـ (١٤٠٧ م)	يذكر السيوطى أن الطاعون انتشر فى البلاد .
٨١٢ هـ (١٤٠٩م)	بدأ الوباء ينتشر فى البلاد المصرية .
٨١٣ هـ (١٤١٠ م)	زادت حدة انتشار الطاعون وقضى على عدد كبير من الناس فى العاصمة وغيرها .
٨١٦هـ (١٤١٣ م)	يذكر ابن حجر والسيوطى أن الطاعون انتشر بمصر وقضى على كثيرين .
٨١٨ هـ (١٤١٥ م)	انتشرت الأمراض الوبائية ، كما أمسكت الأزمة الاقتصادية بخناق البلاد ، وجاءت الفتن والاضطرابات السياسية لتزيد من وطأة الموقف .
٨١٩ هـ (١٤١٦ م)	استمرت الأمراض الوبائية فى الانتشار حتى شملت كل انحاء البلاد . وصحب ذلك ارتفاع شديد فى الأسعار واختفاء بعض السلع .

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٨٢٠ هـ (١٤١٧ م)	امتد الوباء إلى المناطق الغربية بمصر ، فانتشر فى مدينة الإسكندرية ومدينة دمياط .
٨٢٢ هـ (١٤١٩ م)	انتشر الطاعون فى أنحاء البلاد . ويبدو أن انتشاره قد بدأ فى القاهرة ، ثم امتد شرقاً وغرباً إلى إقليمى الشرقية والغربية .
٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م)	استمر الطاعون يفتك بالناس ووصل تأثيره إلى الإسكندرية .
٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م)	انتشر الوباء فى مدينة دمياط ، وتسبب فى القضاء على عدد كبير من الأطفال والرقيق .
٨٣١ هـ (١٣٢٧ م)	بدأ الوباء ينتشر فى بلاد الصعيد الأعلى ، حيث قضى على كثيرين من سكان هذه المناطق .
٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م)	انتشر الوباء ليشمل أغلب مناطق الوجه البحرى فضلا عن القاهرة وقضى على طوائف بأكملها من الأجانب المقيمين بمصر آنذاك ، والمثير للانتباه أن هذا الوباء قد انتشر فى شتاء تلك السنة ، على الرغم من أن الربيع والصيف كانا دائما يشهدان انتشار الأوبئة . وقد قضى هذا الوباء المروع على أسماك الأنهار والبحيرات والتماسيح وعلى الذئاب والظباء فى الصحراء المصرية . ضحايا هذا الوباء أكثر من مائة ألف إنسان وفقا لأقل التقديرات كما يذكر ابن الصيرفى .
٨٤١ هـ (١٤٣٧ م)	شهدت تلك السنة انتشار الوباء ، وتوقفت أحوالهم ، وتزايد ظلم الحكام عليهم . وقد قضى الوباء على عدد كبير من السكان ؛ ثم امتد ليطول بمنجله الرهيب الأغنام والدواب بأسرها ، فضلا عن القطط والكلاب والدجاج والنحل .
٨٤٧ هـ / ٨٤٨ هـ (١٤٤٣ / ١٤٤٤ م)	بدأ الوباء ينتشر منذ أواخر سنة ٨٤٧ هجرية ، وكان أكثر ضحاياه من الأطفال والرقيق . واستمر هذا الوباء قائماً حتى سنة ٨٤٨ هـ ثم ارتفع عن البلاد .
٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م)	ظهر الطاعون فى مصر
٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م)	حدثت بالبلاد أزمة اقتصادية عنيفة نتيجة لعدم وفاء النيل . تم موت كثير من الأبقار لعدم توفر العلف ، فارتفعت الأسعار وتكالب الناس على الأفران وحوانيت الغلال .

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٨٥٤/ ٨٥٥ هـ (١٤٥٠ ـ ١٤٥١ م)	ظلت الأزمة قائمة وتفاقمت الأمور ، ولكن يبدو أن الأمور لم تصل إلى حد المجاعة وسقوط الضحايا .
٨٧٤ هـ (١٤٥٩ م)	انتشر الطاعون بالقاهرة والفسطاط ، ثم أخذ ينتشر فى سائر أنحاء البلاد ، ومات فيه عدد ضخم من السكان على ما يذكر المؤرخ ابن تغرى بردى .
٨٧٣ هـ (١٤٦٧ م)	بدأ الوباء فى الإسكندرية ثم تطرق إلى إقليم البحيرة ؛ ومنه إلى جميع أنحاء البلاد ، وكان ضحاياه فى غالبهم من الأطفال والمماليك ، والعبيد والجوارى والغرباء ، وقد صحبه غلاء شديد فى الأسعار وفيه ماتت ابنة السلطان قايتباى وحفيدته . والجدير بالذكر أن هذا هو الوباء الأول من ثلاثة أوبئة كبرى شهدها عصر ذلك السلطان .
٨٨١ هـ (١٤٧٥م)	الوباء الثانى فى عصر السلطان الأشرف قايتباى ، توفيت فيه أخت السلطان وحوالى ألفين من مماليكه ، فضلا عن الأعداد الكبيرة من المصريين . وبدأ يخف مع موسم الخماسين .
٨٨٨هـ (١٤٨٣م) .	فشت فى الناس أمراض حادة ومات بذلك جماعة ، ولكن يبدو أن تأثير هذه الأمراض الوبائية كان محدودا .
٨٩٢ هـ (١٤٨٦ م)	حلت بالبلاد مجاعة من جراء قصور النيل زمن الفيضان . وكان عدد الموتى كبيراً فى كل يوم لعدم استطاعتهم الحصول على ما يدفعون به غائلة الجوع .
٨٩٧هـ (١٤٩١م)	انتشر الوباء فى مصر وأهلك عدداً كبيراً من السكان قدرهم المؤرخ ابن إياس بحوالى مائتى ألف إنسان .
٨٩٩ هـ (١٤٩٣م)	قصر النيل عن حد الوفاء ، ولم ترو أغلب الأراضى الزراعية وكانت النتيجة أن ارتفعت الأسعار واختفى القمح والخبز وغير ذلك من مظاهر الغلاء .
٩٠٣ هـ (١٤٩٦ م)	ظهر الطاعون فى سنة ٩٠٢ هجرية ، ثم بدأت وطأته تثقل على البلاد فى العام التالى .

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م)	عاد الطاعون مرة أخرى ، ولكنه كان أخف وطأة .
٩٠٩ هـ - ٩١٠ هـ (١٥٠٢ / ١٥٠٣ م)	بدأ الطاعـون خفيفا فى سنة ٩٠٩ هجريـة ، ثم اختفى لمدة ثمانيـة شهـور تقريبـا ليعـود فى سنـة ٩١٠ هـ بصـورة أشـد وأعنف مما كان عليه . .
٩١٢ هـ (١٥٠٦ م)	ظهر الطاعون فى بلاد الصعيد .
٩١٨ هـ (١٥١٢ م)	ظهر الـوباء فى مدينتى الإسكنـدرية ورشيد وبعض منـاطق الساحل الغربى ، ولكنه لم يدخل إلى القاهرة والفسطاط
٩١٩ هـ (١٥١٣ م)	وصل الـوباء فى انتشاره إلى العـاصمة حيث بـدأ يقضى على العبيد والجوارى ، ومع حلول الخماسين اشتدت وطأته ، ثم أخذ يفتك بالناس عموما .

لاشـك أن المقارنـة السريعة بين الجدولين تعطـى انطباعـاً لا يخطئه البـاحث عـن مدى الفـرق فى منحنى التدهور فى كل من عصر البحرية ، وعصر الجراكسة ، فإنه ـ فضلا عن الفارق الكمى الكبير المتمثل فى عدد الأوبئة والمجاعـات ـ يتضح أن الذبول السكانى قد بـات واضحاً بشكل حاسم . كما أن ما يلفـت النظر فى الجدول الثانـى أن مدة استمرار الأزمـة قد طالـت بشكل واضح ، بحيـث كان يمكن للمجاعة أو الوباء ، أو كليهما ، أن تستمر على مدى ثلاث أو أربع سنوات . ومن الطبيعى أن يكون هناك سبب ، أو أسبـاب ، تفسر هذه الظاهرة ، وإذا كنا قد تعرضنا لبعـض هذه الأسباب من قبل ؛ فـإن تحليلنا لموقـف الدولـة من هـذه الأزمات مـن ناحيـة ، واستعراضنـا لنتائج وآثـار الأوبئة والمجاعـات من ناحية ثـانية ، يمكن أن يصـلا بنا إلى تصور واضـح للظاهرة التى ارتبطـت الأسباب والنتائج فيها ببعضها بشكل مثير .

أما عـن موقف الـدولة أثناء هـذه الأزمات ، فالحقيقـة الواضحة فيـه أنه اختلف فى عصر الـدولة الأولى عنه فى عصر الـدولة الثـانية بشكـل عام ، بيد أن الموقـف كان متشـابهاً من حيـث كونـه إفرازاً للعلاقـات بين الحكام والمحكـومين فى ظـل النظـام الإقطاعـى العسكرى الـذى ارتكزت عليـه دولة المماليك ، ومن حيث كونه تعبيراً ـ جزئياً ـ عن الواجهة الدينية التى حرص المماليك على التخفى وراءها طوال ذلك العصر .

ففى عصر السلطان الظاهر بيبرس حدثت مجاعة سنة ٦٦٢ هـ ، وقبل أن تتفاقم الأزمة ، أمر السلطان بإحصاء المحتاجين والفقراء ، والتزم بإطعام عدد منهم ، كما ألزم الأمراء وكبار رجال الدولة والأعيان والتجار والأثرياء ـ كل حسب قدرته ـ بأن يطعم كل واحد منهم عددا آخر بشرط أن يستمر الفقير فى تناول نصيبه اليومى من الطعام على مدى ثلاثة شهور ، وتم تنفيذ ذلك بالفعل حتى أمكن اجتياز الأزمة(٢٩) وقد تكرر الأمر نفسه أثناء المجاعة التى ألمت بالبلاد فى عهد السلطان العادل كتبغا فيما بين سنتى ٦٩٤ هـ و ٦٩٥ هـ . فقد أمر السلطان بعد أن اشتدت وطأة المجاعة ، بجمع الفقراء والمحتاجين ، وألزم الأمراء والأعيان والتجار بأن يطعم كل واحد منهم عدداً معيناً من الجياع . فكان البعض يطعمونهم لحم البقر فى المرقة ومعه الخبز ، على حين كان البعض الآخر يفرق عليهم الكعك ، ويعطيهم البعض الرقاق « فخف ما كان بالناس من الفقر . . »(٣٠) ، كذلك حدث سنة ٧٦٦ أن قام الأمير منجك نائب السلطان بتوزيع الفقراء على الدواوين ، وعلى التجار والأثرياء لكى يقوموا بإطعامهم ، ونودى فى العاصم بألا يمارس الجياع الشحاذة « وأى حرفوش شحذ يصلب»(٣١) . وتكرر الشيء نفسه أثناء أزمة سنة ٨٠٨ هـ(٣٢) . ولعلها كانت المرة الوحيدة التى يحدث فيها مثل هذا التصرف فى عصر الجراكسة .

كذلك كان الخبز يوزع على المتعبدين ، أو الفقراء على حد تعبير العصر ، فى الجوامع وعلى الصوفية فى الزاويا والخانقاوات والربط وغالبا ما كان هذا الخبز الذى يوزع أثناء الأزمات يخرج من الشون السلطانية(٣٣) .

وينبغى أن نلاحظ أن هذا التصرف من قبل سلاطين المماليك كان يصدر عن تصور دينى يجعل منه إحساناً وصدقة للتخفيف من حدة الأزمة على عامة الناس ، ولم يكن يصدر عن موقف تلتزم فيه الدولة برعاية الناس وتقديم الخدمات العامة لهم ، إذ إن مثل هذه المفاهيم كانت غائبة عن مجال العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم . بل أن هذا التصرف الأخلاقى الطابع تلاشى فى عصر الجراكسة وحل محله موقف مناقض تماما ، فقد كان السلاطين وكبار الأمراء يحتكرون الغلال فى شونهم ، ويشترونها حين يكون سعرها منخفضا ويخزنونها حتى وقت الأزمة فيبيعونها بسعر يحقق لهم

(٢٩) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ق ٢٧ العينى ، عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٢ هـ ؛ المقريزى السلوك جـ١ ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

(٣٠) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٥ .

(٣١) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٣٠ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٤ ، ق ١٨٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ٢٢٩ (بولاق) .

(٣٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٣ ، ص ٥٢ ، يتبع .

(٣٣) المصدر نفسه ، جـ٧ ، ص ٢١٣ ـ ص ٢١٤ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٠٦ .

مكسبا كبيرا [٣٤] وهو ما يمكن تفسيره في ضوء التدهور الشامل لكافة مناحى الحياة المصرية آنذاك .

وثمة تصرف آخر كانت الدولة تلجأ إليه لمعالجة الأزمة ، فكثيراً ما كان يحدث فى عصر الدولة الأولى أن يأمر السلطان بإخراج الغلال من الشون السلطانية ، ويتم توزيع القمح على الطحانين لكى يقوموا بطحنها لأصحاب الأفران والمخابز حسب طاقة كل منها ، وذلك بقصد تخفيف وقع الأزمة على الناس [٣٥] . كذلك كان السلطان يأمر ، أحيانا ، بأن يتم بيع الغلال المستخرجة من الشون السلطانية « للضعفاء والأرامل » ، كما كان يتم فى بعض الأحيان ، تحديد الحد الأقصى للكمية المسموح لكل فرد بشرائها حتى لا يلجأ الناس إلى التخزين « ويقع الحجر على من يخزن » ففى سنة ٧٣٦ هـ ، على سبيل المثال ، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يفتح الأمراء شونهم ويبيعوا الغلال للناس بأسعار يحددها السلطان [٣٦] . وفى بعض الأوقات كان السلطان يتصدى بنفسه لحل مشكلة اختفاء القمح ، ويتابع الأزمة حتى يمكن التغلب عليها باستيراد القمح من الخارج [٣٧] .

كذلك كان الخبازون والطحانون يتعرضون للعقوبات البدنية بشتى ضروبها فى حالة تسببهم فى الأزمة . فمن المعروف أن المحتسب كان يتولى مراقبة الأسعار ، ومراقبة عمليات البيع والشراء ، حين يمتنع أصحاب المطاحن والمخابز عن البيع يعاقبهم بأشنع ضروب العقاب ، ويوجه إليهم إنذاراً بفتح حوانيتهم « وأن يبيعوا بسعر الله » ويهددهم بنهب محلاتهم . وتحفل مصادر الفترة الأولى من عصر سلاطين المماليك بالكثير من الأمثلة الدالة على مدى فعالية الدور ، الذى كان المحتسب ومعاونوه يلعبونه فى هذا المجال [٣٨] ، بيد أن وظيفة المحتسب تعرضت للتدهور الذى أصاب كافة وجوه الحياة[٣٩] . ومن ثم قلت فعالية دور هذا الموظف الهام فى حياة المصريين اليومية .

وكان تسعير الغلال إحدى الوسائل التى تلجأ إليها الدولة أثناء المجاعات والأزمات الاقتصادية . ولكن التسعير ، كإجراء اقتصادى ، كان يلقى بعض المعارضة من الفقهاء أحياناً ، كما كان يأتى بعكس المرجو منه ، إذ تتفاقم الأمور ويختفى الخبز وتشتد بالناس المجاعة فتضطر الدولة إلى إلغاء

---

(٣٤) ابن الصيرفى فى إنباء الهصر ، ص ١٦٢ ، نزهة النفوس ، جـ٣ ص ١٤٨ ، ص ١٨٠ ـ ص ١٨١ ، ٢٣٩ ، ابن إياس الزهور ، جـ٣ ، ص ٤١ ـ ص٤٣ .

(٣٥) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٣ .

(٣٦) المصدر نفسه : ص ٤٠ ، السلوك ، جـ١ ، ص ٧٠٥ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ص ٤١٤ .

(٣٧) العينى ، المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

(٣٨) تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص ٣٨٧ ، ٤٢٤ ـ ص ٤٣٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص ٣٩١ ـ ص٣٩٢ .

(٣٩) انظر فى دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

التسعير (٤٠) . وقد تدفع الأزمة ببعض الموظفين إلى الاستعفاء (الاستقالة) من مناصبهم لعجزهم عن القيام بأعباء عملهم بصفتهم مسئولين عن مراقبة الأسواق والأسعار ، ففى حوادث سنة ٨١٨هـ ، مثلا ، وحين اشتدت المجاعة واختفت الغلال وسائر المواد الغذائية ، اضطر المحتسب أن يستعفى من الحسبة ، وتولاها رجل آخر لم يلبث أن تركها بعد أيام قلائل بسبب تزايد الأسعار وقلة الخبز واشتداد تزاحم الناس على الأفران (٤١) .

وفى بعض الأحيان كان السلطان ، أو نائبه ، هو الذى يعزل المحتسب أو الوالى إذا ما نسب إليه سوء التصرف الذى يؤدى إلى حدوث الأزمة . وكثيراً ما كان المحتسب يلزم بيته ولا يخرج خوفا على نفسه من غضب الناس فى الشوارع لأنهم ينسبون إليه ما وصلت إليه الحال باعتباره المسئول عن مراقبة حركة البيع والشراء (٤٢) . وكثيراً ما كان الناس يهاجمون السلطان بجارح الكلام إذا ما مر موكبه بالقاهرة فى حالة وقوع الأزمة ، فقد ذكر بن إياس أنه حدث فى سنة ٨٧٢ هـ أن ارتفعت أسعار الغلال « فاستكعب الناس بالسلطان ، وصار إذا شق القاهرة يسمعونه الكلام المنكى » (٤٣)

ويبدو قلة اهتمام السلاطين بأمر الناس ومحاولة التخفيف عنهم واضحة فى عصر الجراكسة من خلال ما تمدنا به مصادر تلك الفترة من معلومات نسوق منها ، على سبيل المثال ، ما حدث سنة ٨٣٩ هـ حين وقف العامة للسلطان الأشرف برسباى ، وشكوا من عدم وجود الخبز « فلم يعبأ بهم . ولا التفت إليهم » (٤٤) . كما حدث فى سنة ٨٨٥ هـ أن وقف العامة فى طريق الموكب السلطانى يشكون من أن الخبز لا يوجد فى الدكاكين من بعد العصر (٤٥) .

كذلك كان بعض سلاطين المماليك يتظاهرون بالعدل خوفا على أرواحهم أثناء انتشار الأوبئة . فيعلنون عن إلغاء الكثير من الضرائب « المغارم والمظالم والكلف » . وبمجرد أن يزول الخطر ويقل الخوف تعود الضرائب الفادحة لتفرض على الناس « كما كانت وزيادة » (٤٦) ، ففى سنة ٩١٩ هـ اشتدت وطأة الوباء على البلاد ، « وكان السلطان موهوما على نفسه » فأبطل عددا كبيراً من الضرائب والمكوس .

ومن الطريف أن بعض السلاطين كان يبالغ فى إظهار الرحمة والعدل خوفا من شر الوباء

---

(٤٠) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ق ٢٧ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ، ص ٧٠٦ إغاثة الأمة ، ص ٣٣ . العينى ، عقد الجمان ، حوادث ، ٦٦١ هـ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٧ ، ص ٢١٤ .
(٤١) العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق ٤١٣ ـ ٤١٤
(٤٢) المقدمة ، جـ٢٥ ، ق ٤١٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص ٤٣٥ .
(٤٣) ابن إياس : بدائع الزهور (طبعة د . محمد مصطفى) ، جـ٣ ، ص ١١ .
(٤٤) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٣٣٨ . (٤٥) ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٥ .
(٤٦) المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص ٧٧ ، ص ٣٠٤ .

المستشرى ، فيمنع سجن أحد حتى ولو كان مذنبا ، ففى سنة ٧٨٤ هـ أمر السلطان الظاهر برقوق بألا يحبس أحد بسبب ديونه ، وأطلق سراح المسجونين [٤٧] كذلك حدث فى سنة ٨٤١ هـ أن أمر السلطان برسباى بإغلاق السجون والإفراج عمن فيها من المساجين ، « وصار من له عند أحد حق لا يصل إليه ، وانتشر السراق فى البلاد » [٤٨] ، كما حدث فى سنة ٩٠٩ هـ أن أمر السلطان الغورى بمنع الفقهاء من الجلوس للحكم فى القضايا وأمر أيضا ألا يشتكى أحد أحداً « إلا من الشرع الشريف» [٤٩]

وفى ذلك العصر لم يكن الناس يملكون إزاء كوارث الطبيعة ونوازلها سوى الاستسلام والتضرع إلى الله لكى يرفع عنهم الوباء . ولم تعرف تلك الفترة ما نعرفه اليوم من إجراءات وقائية وعلاجية ، مثل عزل المصابين ، والحجر الصحى ، وإغلاق المناطق الموبوءة وغير ذلك من وسائل العصر الحديث لمقاومة الأوبئة . فلا غرو أن كانت أساليب الدولة فى معالجة هذه الكوارث متمشية مع روح العصر بما تتسم به من قدرية وارتجالية ، وبما فيها من مفاهيم غيبية ، والجدير بالذكر أن هذه الأساليب لم تكن تختلف كثيرا عن أساليب حكام أوربا فى تلك الفترة المتأخرة من العصور الوسطى ، بيد أن الطب والعلاج فى الشرق كانا أكثر تقدماً وازدهاراً منهما فى الغرب الأوربى آنذاك .

وفى غالب الأحوال ، كان الناس يفسرون هذه الكوارث تفسيراً دينيا وأخلاقيا خالصاً ، فيرجعون أسبابها إلى غضب الله من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور ، وسيادة الظلم . وهنا يلجأ الناس ـ حكاما ومحكومين ـ إلى الدين يتسربلون بردائه ، ويكثر إقبالهم على العبادة ، وتقوم الحملات التى يرأسها الوالى أو غيره لمهاجمة أوكار الفساد . وما أن تنقضى الأزمة وتنقشع الغمة حتى تعود الأمور إلى سيرتها الأولى .

وخير مثال على ذلك هو ما كان الحكام يدعون الناس إليه فى أوقات الأزمة من الخروج إلى صلاة الاستسقاء ، إذ يأمر السلطان بخروج المحتسب ومعاونيه لإعلام أبناء الرعية بأنه قد تقررت إقامة صلاة الاستسقاء فى يوم كذا ويحدد لهم مكانها . وفى بعض الأحيان كانت الدعوة توجه إلى الناس بالصيام بضعة أيام تقربا إلى الله حتى يجرى لهم مياه الفيضان . ثم يخرج الناس فى موكب حاشد ومعهم القضاة والأمراء والعلماء والفقهاء ومشايخ الخوانق والصوفية وصبيان المكاتب وعامة الناس وبينهم اليهود والنصارى بكتبهم المقدسة ، وربما يخرج السلطان بنفسه معهم . . وفى الصحراء القريبة من القاهرة يبدأ الوعظ والصلاة، ثم ترتفع الأصوات بالدعاء والاستغاثة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، ويستمر

---

(٤٧) ابن حجر ؛ إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٨١ (مخطوط) .
(٤٨) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٤٠٠ .
(٤٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٧٦ ـ ص ٧٧ .

المشهد عدة ساعات ، وقد يتكرر خروج الناس لصلاة الاستسقاء أكثر من مرة (٥٠)

ولم يكن الناس فى كل الأحيان يخرجون إلى الصحراء لأداء هذه الصلاة ، بل إنهم كثيراً ما كانوا يجتمعون بأحد المساجد الكبيرة ، مثل مسجد عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر ، يتوسلون إلى الله ويبتلهون ويتضرعون ، ويستمرون فى قـــراءة القرآن ، ربما لعدة أيام ، أملا فى أن يرفع الله الغمة عنهم (٥١) .

ومن الأمور ذات الدلالة فى هذا المقام ما ذكره ابن الصيرفى من أنه حدث سنة ٨٣٣ هـ أن السلطان قايتباى يجمع أربعين شريفا ، كل شريف اسمه محمد ، وأعطاهم من ماله خمسة آلاف درهم وأجلسهم بالجامع الأزهر ، ليقرءوا ما تيسر من القرآن بعد صلاة الجمعة وظلوا يدعون الله حتى حانت صلاة العصر فصعدوا ليؤذنوا ، جميعا ، على سطح المسجد ، ثم عادوا ليصلوا بالناس ، وقد تصرف قايتباى هذا التصرف بمشورة بعض العجم الذين قالوا إن ذلك يرفع الوباء عن البلاد (٥٢) .

وكثيراً ما كان توقف النيل عن الزيادة أو انتشار الوباء ، وما ينتج عن ذلك من اضطراب وفوضى ، يفسر فى ضوء فساد أخلاقيات الناس وانشغالهم بأمور اللهو والفساد . (٥٣) فيقوم ممثلو الدولة بشن الحملات التفتيشية ومهاجمة أوكار الفساد وأماكن الفجور ، ومستودعات الحشيش والخمور . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتواترة فى مصادر تلك الفترة ، منها ما حدث سنة ٨٤١ هـ حين ظهر الوباء فى مصر ، وتخوف السلطان برسباى من أن يصاب ، فعقد مجلسا بالقلعة حضره بعض الفقهاء وسألهم إن كان الله يعاقب الناس بالطاعون بسبب ما يقترفونه من الذنوب ، فأجابه البعض بأن الزنا إذا تفشى بين الناس ظهر فيهم الطاعون ، وإن النساء فى مصر يمشين فى الطرقات ليلا ونهاراً بزينتهن . وأشار آخر بأن الواجب يقتضى منع النساء من المشى فى الأسواق ، ونازعه ثالث فى ذلك وطالب بمنع المتبرجات فقط . ولكن السلطان أمر بمنع النساء من الخروج مطلقا « ظنا من السلطان أن منعهن يرفع الطاعون » (٥٤) . ومن الطريف أن السلطان برسباى قد أصيب فى هذا الوباء بحيث

---

(٥٠) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢١٨ ـ ص ٢١٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم (كاليفورنيا) ، جـ٦ ، ص٢٠٦ ـ ٢٠٨ ، ص ٤٩٤ ـ ٣٩٥ ؛ ابن الصيرفى نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ١٨٤ وقد علق على خروج الناس للاستسقاء سنة ٨٣٣ ، بقوله : « هذا والحكام والظلمة على ما هم فيه . وقال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت قبيح

(٥١) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١١١٣ ـ ١١١٤ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ١٠ . ص٢٠٤ .

(٥٢) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٠ ـ ص ١٩١ .

(٥٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ٧٥٨ ـ ٧٦٠ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٥٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، (كاليفورنيا) : ص ٢٧٠ ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥

اختلت قواه العقلية ، وكان يعيش فى غيبوبة طوال الوقت [٥٥] .

ولعل هذه المناقشة دليل جيد على المفاهيم التى كانت سائدة فى تلك العصور ، والتى فى ضوئها كانت تعالج الأمور أثناء هذه الأزمات . ومثل هذه المجالس كانت تعقد دائما للتشاور فيما يجب اتخاذه إزاء الكارثة . بل إن المناقشات كانت تدور أحيانا حول جواز التضرع والدعاء والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى حتى يرفع المجاعة أو الوباء عن البلاد والعباد [٥٦] .

وكانت مثل هذه التصرفات العاجزة سمة بارزة ونغمة مشتركة فى مواقف الدولة ورجالها الذين يتمسحون برداء الدين إبّان الأزمات . وكانت مثل هذه الاجتماعات تفرز دائما الحملات التفتيشية التى تهاجم أماكن اللهو والفساد ومعاقبة من يؤمها بأشنع صنوف العقاب . ففى سنة ٧٨٩ هـ ، لم يبلغ نهر النيل حد الوفاء ، وأعقب ذلك الاضطراب والفوضى ، فبادر نائب السلطنة (الأمير سيف الدين سودون) بمهاجمة المتنزهين على شاطىء النهر ، وقبض على جماعة منهم ووبخهم ، ثم هاجم أماكن بيع الخمور واستولى على حوالى ألف جرة خمر كسرها تحت أسوار القلعة . وبعدها بعدة أيام هاجم أحد مستودعات الحشيش واستولى على كميات كبيرة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة أيضا [٥٧] كذلك حدث فى سنة ٨٣٢ هـ أن هاجم حاجب الحجاب مواضع الفساد ، فأراق الخمر وأحرق الحشيش ، كما هاجم أماكن تجمع النساء [٥٨] وفى سنة ٨٤١ هـ . هوجمت بيوت اليهود والنصارى لإراقة ما فيها من الخمور ، وقد علق ابن الصيرفى على هذا بقوله : . . والعجب أنهم فى كل سنة عندما يعرفون أوان عصر الخمر يساعدونهم بأن يدفعوا لهم العسل ويأخذوا منهم الثمن . فانظر إلى هذه الأمور المتناقضة » [٥٩] كما حدث فى سنة ٩١٠ هـ أن أصدر السلطان قنصوه الغورى أوامره بمهاجمة بيوت الأقباط وكسر ما لديهم من جرار الخمر . وحرق أماكن الحشيش والبوزة [٦٠] .

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن الصفة الغالبة على مثل هذه الإجراءات أنها كانت مؤقتة ومرهونة بظروف الأزمة ، فإذا مازال الخطر وارتفع الوباء ، أو خفت حدة المجاعة ، وهبطت الأسعار عادت الأمور سيرتها الأولى .

ومن الأمور ذات الدلالة فى موقف الدولة أن السلاطين والأمراء ومن يلحق بهم من كبار موظفى الدولة والفقهاء كانوا يفرون إلى مناطق نظيفة من الوباء تاركين عامة الناس لمصيرهم التعس فى مواجهة

---

(٥٥) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٥ .

(٥٦) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٥٧) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ٩ .

(٥٨) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ـ ص ١٤٤ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٤٠٠٦ .

(٦٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

الجوع والموت . وعلى الرغم من أن مصادر ذلك العصر كانت تركز على وصف مظاهر الوباء أو المجاعة فى العاصمة ، بحكم وجود المؤرخين بها ، فإننا نستطيع أن نقرر أن المظاهر كانت تفرض نفسها على الحياة خارج العاصمة ، بل إن ما أوردته المصادر من إشارات قليلة عن تأثير المجاعات والأوبئة فى الريف يؤكد أن الصورة هناك كانت أشد إظلاماً وكآبة .

على أية حال ، كانت سرياقوس هى المكان الذى يفر إليه السلاطين بمواشيهم هرباً من الطاعون فى أغلب الأحوال (٦١) ، كما كان الأعيان من المتعممين وأرباب الوظائف يرسلون أولادهم إلى الأماكن غير الموبوءة حين تنزل بالبلاد كارثة من هذا النوع ، مثال ذلك ما حدث سنة ٩١٩ هـ ، إذ أرسل قاضى قضاة الحنفية ، آنذاك ، أولاده إلى ناحية جبل الطور وحذا حذوه جماعة من أمراء المماليك والأعيان ، فأرسلوا أبناءهم أيضا إلى الطور « خوفاً عليهم من الطعن » (٦٢) .

ومن المهم ، ونحن بصدد موقف الدولة أثناء الأزمات ، أن نشير إلى أن السلاطين والأمراء لم يحاولوا التخلى عن بعض امتيازاتهم أو مظاهر العز والرفاهية التى عاشوا فى ظلها على الرغم من تساقط العديد من الضحايا ، بل إن منهم من كان يحرص على تنمية ثروته باستغلال ظروف الأزمة . ففى سنة ٨٣٣ هـ ، وعلى الرغم من ثقل وطأة الوباء ، طلب الاستادار تجار السكر فى الفسطاط والقاهرة ليطرح عليهم السكر الذى كان السلطان يحتكر إنتاجه ، ففروا . وأغلقوا حوانيتهم « وصار السكر لا يوجد والمرضى محتاجون إليه ، ولم يجدوا ما يعللونهم به » (٦٣) . كما كان السلاطين يحرصون على مظاهر البذخ دون النظر إلى ما تعانيه البلاد من ضيق وعسر ، فيقيمون المنشآت التى ينفقون عليها الكثير من الأموال حرصاً على الظهور بمظهر التدين (٦٤) . أو يخرجون للنزهة فى أنحاء البلاد حيث تقام الاحتفالات الهائلة وتمد الموائد الحافلة . وكان بعض سلاطين المماليك يشتهر بكثرة رحلاته التى ترهق ميزانية البلاد ، فضلا عن المتاعب التى تسببها هذه الزيارات لسكان الأقاليم التى يزورها الموكب السلطانى (٦٥) .

ومن الأمور اللافتة للنظر أن الكثيرين من أمراء المماليك كانوا يخلفون ، عند موتهم ، تركات هائلة من النقد والخيول والثياب والسلاح والبضائع والغلال والمماليك والضياع وغير ذلك . ففى وفيات

---

(٦١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٧٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ص ٢٤ ، العينى ، عقد الجمان . جـ ٢٤ ، ق ١١٨ .

(٦٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ، ص ٢٩٦ ـ ص ٢٩٩ .

(٦٣) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ . وانظر دراستنا عن الأسواق لشرح نظام طرح البضائع .

(٦٤) ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٧ ـ ص ٨ ، ص ٤٣ ـ ٤٥ .

(٦٥) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٥٣ ـ ٥٥ . حيث يتحدث عن رحلات الأشرف قايتباى .

سنة ٨٣٩ هـ يذكر ابن الصيرفى أن أحد الأمراء قدرت تركته بمبلغ ستمائة ألف دينار ، والآخر بما يساوى مائتى ألف (٦٦) . وإذا ما تذكرنا مدى التدهور الذى كانت تعانيه البلاد فى ذلك الحين أدركنا مدى صحة الفرض الذى ذهبنا إليه فى السطور السابقة . وهو أمر يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن العلاقات بين السلطان والرعية كانت علاقات أفرزها النظام الإقطاعى العسكرى الذى فرض نفسه على البلاد بقوة السلاح وبفضل قيامه بالدفاع عنها ضد عدوان الصليبيين والمغول . وبمرور الوقت فقد النظام قدرته على حماية البلاد فى الخارج ومع ذلك يظل يفرض نفسه عليها فى الداخل . فلا غرو ، إذن ، أن يحرص الحكام على جمع الثروات وزيادتها فى ظل ظروف البؤس المحيقة بالمحكومين .

أما النتائج والآثار التى ترتبت على هذه السلسلة المتوالية الحلقات من الأوبئة ، فكانت فادحة فى كافة جوانب الحياة المصرية آنذاك .

فمن الناحية الاجتماعية تجلت هذه التأثيرات السلبية فى ذلك التدهور الواضح والمطرد فى أعداد السكان . وثمة من الدلائل ما يساعدنا على الوقوف على مدى التقلص السكانى الذى عانت منه البلاد نتيجة للأوبئة والمجاعات التى ألمت بها . فقد ذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى فى خططه أن كثيراً من أسواق العاصمة التى عاصرها عامرة بالبضائع ، وشاهدها تموج بالحركة والنشاط ، قد خربت بعد العقد الأول من القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ، كما ذكر اثنين وخمسين سوقاً قد خربت فى غرب القاهرة فقط ، ومن هذه الأسواق ما كانت حوانيته تصل إلى ستين حانوتاً ، ثم يعلق على ذلك بقوله : «وهذه من جملة ظاهرة القاهرة الغربى فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر ؟ » (٦٧) ولا شك أن الأسواق الداخلية ترتبط ، فى رواجها أو كسادها ، بالتجمعات السكانية ، ولعل هذه النسبة الكبيرة من الأسواق التى خربت ، فضلا عن الأسواق التى تقلصت مساحة وحركة ، تعطينا انطباعاً عن مدى التدهور السكانى الذى أتت به تلك المجاعات والأوبئة فى العاصمة .

أما الريف ، فقد تقلصت أعداد القرى نتيجة لموت أعداد كبيرة من الفلاحين من ناحية ، وهروب كثيرين غيرهم إلى المدن بحثاً عن الطعام من ناحية ثانية ، فضلا عن الفرار من الزراعة وظلم الحكام من جهة ثالثة (٦٨) .

وتذكر المصادر العديد من الأمثلة الدالة على ذلك . كما تقدم لنا الأعداد التقريبية لعدد الضحايا فى كل وباء ألم بالبلاد . وعلى الرغم من رائحة المبالغة التى تفوح من بعض التقديرات ، فإنها تكشف

---

(٦٦) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٣٥٨ـ٣٥٩ .
(٦٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٣ .
(٦٨) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٣ـ ٣٥ ؛ ابن الصيرفى ؛ نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ـ ص ٢٤١ .

عن أن التناقص فى أعداد السكان كان مستمراً بصـورة مطردة . ففى سنة ٦٩٤ هـ على سبيل المثال . تناقص عدد السكان ، ونـزل عدد الفلاحين بصفة خاصة إلى درك رهيب من القلـة مما سبب استمرار الاضطراب الاقتصـادى فى مصر فترة غير يسيرة . فقد قدرت المصـادر المعاصرة عـدد ضحايا الـوباء الذى حدث فى تلك السنة واستمر إلى السنة التـالية بسبعة عشر ألفاً وخمسمائة فى أواخر سنة ٦٩٤ هـ غير الفقراء والغربـاء الذين ذكرت المصادر نفسها أنهم أضعـاف هذا العدد ، ونتج عن هـذه المجاعة الرهيبة والوباء الذى صحبها أن القرية التى كان بها مائة شخص لم يبق بها سوى عشرين تقريباً ، كما تخلخل البناء السكانى فى المدن أيضاً (٦٩) .

أما « الفناء الكبير » الذى بـدأ ينشب مخالبه فى البلاد منذ خريـف سنة ١٣٤٧ م ، فقد قضى على أعداد كبيرة من السكـان بحيث لم يستطع الأحياء دفنهم أو تغسيلهم ، وفى الـريف لم تجد الأرض من يزرعهـا ، كما لم تجد المحصولات مـــن يضمهـا نظراً لكثـرة المـــوتى بين الفلاحين ، وتـوقفت أعمال الصيد ، إذ كان الصيادون يخرجـون بمراكبهم للصيد فيموت بعضهم فى أثناء الرحلـة ويموت الباقون بعد العودة .

كما قضى هـذا الوباء المروع على كثيريـن من المماليك الـذين خلت منهـم ثكنات القلعة ، وتـذكر مصادر تلك الفترة أن « الفناء الكبير » قضى على ثلثى جمهرة السكان (٧٠) .

وفى الوباء الذى حدث سنة ٨٣٣ هـ قدر عدد الضحايا بمائة ألف إنسان على الأقل (٧١). وقضى هذا الوبـاء على طائفة كاملة من « التكـرور السودان عددهم حوالى ثلاثـة آلاف » كما قضى على عدد كبير من المماليك السلطانية . وذكر ابن الصيرفى أن النعـوش فى النهار كانت كثيرة جدا . . « فتراها فى الشوارع كأنها قطارات جمال لكثرتها متواصلة بعضها فى إثر ببعض » (٧٢) .

كذلك قضت تلك الأوبئة الثلاثة التى تعرضت لها البلاد فى أثناء حكم السلطان الأشرف قايتباى على أعداد كبيرة مـن السكان قدرهم المؤرخـون بحوالى مائتـى ألف شخص ، كما قضت هـذه الأوبئة على ما يقرب من ثلث المماليك (٧٣) .

---

(٦٩) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٧ ـ ٣٨ ، السلوك ، جـ ١ ص ٨٠٨ ـ ٨١٥ ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ . ق ٨٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضـــرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ؛ ابـن إياس ، بـدائع الزهـور ، جـ ١ . ص ١٣٤ .

(٧٠) العينى ، عقـد الجمان ، جـ ٢٤ ، حوادث سنـة ٧٤٩ هـ ؛ ابـن تغرى بردى ، النجـوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٧١) العينى ، المصدر السابق ، جـ ٢٥ ، ق ٦٣٠ ؛ ابن تغـرى بردى ، النجوم ، جـ ٦ (كاليفورنيا) ، ص ٦٦٢ . السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٢ .

(٧٢) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٧٣) ابـن الصيرفى ، إنبـاء الهصر ، ص ١٢ ، ص ٥٥ ـ ٥٩ ؛ ابـن إيـاس ، بـدائع الزهـور ، جـ ٣ ، ص ١٢٢ . ص ١٢٥ .

وفى بعض تلك الأوبئة كان الضحايا من الأطفال والـرقيق والغرباء بصفة خاصة ، وفى تصورنا أن السبب فى ذلـك يرجع إلى أن هذه الفئـات هى أقل الناس قـدرة على مقاومة الأمراض . فـالأطفال . بطبيعة الحال ، لا تستطيـع أجسامهـم الغضة مقـاومة العـدوى ، ولا سيما أن ذلك العصر لم يعـرف التطعيم ، أو غيره مـن وسائل الوقـاية . أما العبيـد والخدم ومن على شاكلتهـم من الغربـاء المعدمين فكانوا غير قادرين أيضاً على مقاومة الأمراض الوبـائية بسبب سوء التغذية والإنهاك الذى كان يتمكن مـن أجسادهـم الضعيفـة نتيجة لما يقـومـون به مـن أعمال شـاقـة تفرضهـا عليهـم طبيعة وضعيتهـم الاجتماعية .

ويمكن أن نلاحـظ أن الأوبئة والمجاعات التى كـانت تبدأ بالقضاء على أعـداد كبيرة من الأطفال والرقيـق والغربـاء أخذت تشكل ظـاهرة فى الحيـاة المصرية منذ مطلـع القرن الخـامس عشر الميلادى تقريباً . فقد تكررت هذه الظـاهرة المؤلمة فى سنوات ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) ، ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م) . ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) ، ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) ، ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) ، ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) . ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) .

وإذا ما تأملنا كيفية ارتفاع أسعار المواد الغذائية فى تلك الآونة بشكل مطرد فى ذلك الحين ، أدركنا أن ارتفاع أسعار المواد الغذائية من جهة ، واختفاء بعضها أحيـاناً من جهة ثانية ، جعلا من الصعب على عامة الناس آنذاك أن يجدوا كفايتهم من الغذاء . وهو ما يعنى بالضرورة أن فرصة الرقيق والغرباء والمعدمين فى الحصول على كفايتهم الغذائية كانت أقل كثيراً ، ومن ثم كانت هذه الفئات هى الفريسة السهلة للأوبئة والمجاعات التى تفتك بالكثيريـن منهم ، ثم لا تلبث أن تنال من بقية الناس . ولعل المثال الذى يقدمه الجدول التالى يكشف كيفية ارتفاع الأسعار باستمرار .

السنة	القمح سعر الأردب بالدرهم	الشعير بالأردب	الفول بالأردب	الخبز بالرطل	أنواع اللحوم بالرطل
٨٢٦هـ	٦٠ـ٩٠ درهما	٦٠ـ٦٥ درهما	٧٠ـ٧٥ درهما	٠,٨ درهم	٥ـ٨ دراهم
٨٢٧هـ	٢٢٠ درهما	١٠٠ درهم	١٠٠ درهم	١ ٣/٤ درهم	٦ـ٨ دراهم
٨٢٨هـ	٣٠٠ درهم	٢٨٠ درهما	٣٠٠ درهم	١ ٣/٤ درهم	-
٨٣٢هـ	٥٠٠ـ٣٠٠ درهم	٣٠٠ـ٣٣٠ درهما	٣٠٠ درهم	-	٤ـ٦ دراهم
٨٣٩هـ	٣٦٠ درهما	٢٠٠ درهم	٢٠٠ درهم	درهمان	٥ـ٨ دراهم

وعلى أية حال ، فإن الأوبئة قد استطاعت أن توقف النمو السكانى الذى شهدته البلاد فى بداية ذلك العصر ، ثم تسببت فى التناقص المستمر فى أعداد السكان حتى وصلت أعدادهم إلى الثلث تقريباً حسب تقديرات حوليات ذلك العصر .

بيد أن التدهور السكانى لم يكن هو الأثر السلبى الوحيد للمجاعات على الصعيد الاجتماعى إذ تخلخل البناء السكانى بشكل حاد نتيجة لهبوط المستوى الاقتصادى لكثير من الشرائح الاجتماعية ، كما اتخذت حركة المجتمع اتجاها هابطا بشكل واضح .

وكان من الطبيعى أن يتخلخل بنيان المجتمع فى أعقاب هذه الأوبئة والمجاعات ، فقد كانت أعداد الذين لا يملكون تتزايد عقب كل من هذه الأزمات ، إذ يضطر الناس إلى بيع ما يملكون لشراء ما يقتاتون به ، ومن ثم يدخلون فى عداد المعدمين (٧٤) . ومع توالى الأزمات تكثر أعداد أولئك المعدمين ، وتقل بالتالى قوة البناء الاجتماعى إذ تزيد القاعدة المعدمة اتساعا ، على حين تضيق دائرة الأثرياء الذين تقل درجة ثرائهم أيضاً . ومن الآثار الخطيرة على البناء الاجتماعى ما ذكرته المصادر من أن البعض كانوا يضطرون إلى بيع أبنائهم أثناء هذه الأزمات (٧٥) . وهو ما يعنى أن يزيد عدد الرقيق على حساب عدد الأحرار . صحيح أن مثل هذا الأمر لم يشكل ظاهرة بحيث تترك تأثيرا ملموساً على المجتمع ككل ، بيد أنها مؤشر هام على مدى التدهور الذى عانى منه المجتمع المصرى بسبب هذه الكوارث المتوالية .

ومن دلائل تخلخل البناء الاجتماعى أيضاً تلك الأعداد المتزايدة من أبناء الريف الذين كانوا يتوافدون إلى العاصمة لكى ينضموا إلى جمهرة المعدمين والشحاذين الذين كثرت أعدادهم فى العاصمة بشكل لفت نظر زوارها من الأجانب فى ذلك الوقت(٧٦). ويبدو أن الوافدين كانوا يشكلون عبئا على البلاد حتى تضطر السلطات أحيانا إلى الأمر برحيل الغرباء عن القاهرة . والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الغرباء كانوا من أبناء بلاد الشام الذين فروا من بلادهم لسبب أو لآخر(٧٧) . ومن الطريف أن بعض الناس كانوا يدعون الحاجة والفقر حتى ينالوا حظهم من الصدقات التى توزع أحياناً زمن المجاعات ، فقد ذكر ابن تغرى بردى فى أثناء الغلاء الذى حدث سنة ٨٥٥ هـ ما نصه : « تمفقر خلائق كثيرة ممن ليس لهم مروءة » (٧٨) . . .

---

٧٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤

٧٥) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٤٩ .

٧٦) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٣٧ ـ ٤٠

٧٧) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٢ ، ص ٩٧ ـ ١٠١ .

٧٨) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٢١٩ .

كذلك كـانت الأوبئة تقضى على الكثيرين بحيث يتخلف عنهم أملاك لا تجد من يـرثها . فمن نتائج « الفناء الكبير » على سبيل المثـال ، ما ذكره المقريزى فى خططه من أنه « . . كـان يوجد بالحارة الواحدة ما يزيد على عشريـن داراً خالية لا يعرف أربابها (٧٩) . . كذلك كانـت الأملاك تنتقل بسرعة غريبـة بين خمسة أو ستـة أشخاص فى اليـوم الواحد نتيجـة لسرعة الموت . وحـدث فى هذا الـوباء أن استولى كثيرون من العامة على إقطـاعات أجناد الحلقة (٨٠) كما حدث فى وباء سنـة ٨٣٣ هـ أن انتقل إقطاع أحد أجناد الحلقة بين تسعة أشخاص فى مدى أيام قليلة (٨١) .

وثمة عبارة تجسد مـدى تخلخل البنيان الاجتماعى فى مصر آنذاك ، ذكرهـا ابن الصيرفى تعليقا على حوادث سنة ٨٧٥ هـ ، وتقول كلماتها « أمـا الناس فصـاروا ثلاثة أثلاث : الغنى افتقر ، والمكتسب مايفى بنفقته ، والفقير فبعد أن كان يسأل فى الرغيف صار يطلب لقمة أو لبابة »(٨٢) .

ومن الطبيعـى أن يكون لهذه الأوبئـة المتوالية أثـرها على أخلاقيـات الناس ، وعلى شكـل حياتهم اليومية فقد كانت الأزمة تدفع بـالكثيرين إلى الحرص على مالديهم من الأطعمة ، وتشح النفوس ، إذ كان الأمراء والأعيان والأثرياء لا يستقبلون أحداً فى وقت تناول الطعام (٨٣) .

وفى الشوارع يتصارع عامة الناس فى سبيل الحصـول على القوت ، فيتزاحمون على الأفران وحوانيت بيع الخبـز والدقيق ، وربما يقتتلون فى سبيـل الحصول على شىء من هـذا أو ذاك . وهنا تتوقف كـافة مظاهر حياتهم اليومية ، وتركد الأسـواق ، ويتوجه بعضهـم إلى الأفران من منتصف الليل ، على حين يتوجه البعض الآخر إلى ساحل النيل عند بولاق فى محاولة للحصول على بعض القمح « فمنهم من يجد بعض شىء ومنهم من يرجع خايباً » وفى أثناء التـزاحـم على الأفران كان الناس ينهبون الخبز جهراً، بل إن الجوع كان يدفع بالبعض إلى اختطاف العجين إذا أرسله أصحابه إلى الفرن ، وهو ما جعل البعض يرسلون العجين إلى الفرن فى حراسة عدد من الأفـراد المسلحين بالعصى « لحمايته من النَّهابة » ، ولكن الجوع كان يدفع ببعض الناس إلى إلقاء أنفسهم على الخبز أو العجين دون أن يبالى الواحد منهـم بما ينال رأسه وبـدنه من الضرب « لشدة مـا نزل به من الجوع » وفى مثـل هذه الأحوال كان المحتسـب أو الوالى يضطر لتعيين الحراسات على أبواب الأفران وحوانيت الخبز ومعهم العصى الغليظة لدفع الجياع إذا ما حاولوا نهب الخبز (٨٤) .

(٧٩) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٢١ .
(٨٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١ ، ص ٧٥ ـ ٢٠٩ .
(٨١) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ١٨٩ .
(٨٢) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر . ص ١٨٨ .
(٨٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٢٨ .
(٨٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ٢ ، ق ٤٨٥ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ق ٤١٤ .

ومن المنطقى أن العامة هم الذين كانوا يقومون بمثل هذه الهجمات ، ولاسيما ذلك القسم الذى عرفته مصادر ذلك العصر باسم « سواد العامة » أما « بياض العامة » ، أو « مساتير الناس » ، فلم يكن بهم حاجة لمثل هذه التصرفات لأن حاجتهم إلى الطعام فى مثل هذه المرحلة المبكرة من المجاعة كانت تقل كثيراً عن حاجة المعدمين .

أما المراكب التى كانت تصل إلى ميناء القاهرة النهرى على ساحل بولاق ، فكانت تربط بالمرسى بعيداً عن الشاطئ خوفاً من النهب ، ويتوجه من يريد الشراء إلى هذه المراكب فى القوارب الصغيرة . وربما تقع الحوادث ويسقط الضحايا أثناء تصارع الناس وتزاحمهم لشراء القمح [٨٥] .

ويبدو أن كثرة الأوبئة والمجاعات التى تعرضت لها البلاد فى تلك الفترة قد جعلت الناس يعتادون عليها ويتوقعون حدوثها فى كل حين ، بل ويتقبلون الأمر الواقع ببساطة مذهلة ، فقد ذكر المقريزى وابن الصيرفى فى حوادث سنة ٨٣٣ هـ أن الناس فى العاصمة كانوا يتوقعون الوباء « حتى إن الصغار فى المكاتب يتكلمون بذلك ، ويودعون بعضهم بعضا » [٨٦] ، وهو ما يكشف عن أن الحياة قد باتت كريهة ومليئة بعوامل الإحباط بحيث لم يعد الناس يتوقعون من غدهم سوى ما يكرهون : ومن ثم كان طبيعيا أن يتعاملوا مع هذا الواقع المرير بقدر من اللامبالاة والاستسلام المميت . بيد أن طبيعة الإنسان المصرى الذى يسخر على الداوم من متاعبه ، عبرت عن نفسها فى بعض ألوان الأدب الشعبى التى بقيت لنا من ذلك العصر ، فقد كتب أحد الشعراء عندما تأخر الفيضان فى إحدى السنين :

إن عجل النيروز قبل الوفا	عجل للعالم صفع القفا
فقد كفى من دمعهم ما جرى	وما جرى من نيلهم ما كفى [٨٧]

وإذا زادت مياه النهر بحيث أغرقت الحقول فى إحدى السنين ، بحيث تعذرت زراعتها وتفشى الخوف والقلق بين الناس وباتوا يتوقعون المجاعة ، أخذ الشاعر يخاطب النيل كأنه إنسان يفهمه . فيقول :

أبحر النيل لا تشره ولا تأت بها نكره
فقد وفيت بالحسنى ولكن زدت فى كره
ولا تترك قفا الخباز يوما يأكل الدره

---

(٨٥) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٣ ــ ص ٣٥ ، ص ٣٩ ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ق ٤١٤ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ٣ ، ق ٩٢ .

(٨٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٨٢٢ ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣

(٨٧) السيوطى ، كوكب الاروضة ، ق ٣٦ .

كـم مـن خـازن للقمـح أمسـى يظهـر العـُذره
ألم تعلـم بـأنـك إن نـزلـت تـركتـه عـِزَّة
فشهـر دمعـه حتـى تـراه فى الـورى نهره
وسر عـن مصر فى خير فقـد طـولـت فى العشرة (٨٨)

وحينما عز وجود الخبز فى الأزمة التى ألمت بالبلاد فى سنة ٨٥٣ هـ رثاه أحد الشعراء بهذه الأبيات :

قسما بلـوح الخبـز عنـد خـروجـه — مـن فـرنـه ولـه الغـداة نـوار
ورغـائف تـروقـك وهـى فى — سحـب الثفـال كـأنها أقمار
مـن كـل مصقـول السـوالـف أحمر — الخديـن للشـونيـز فيـه عـذار
كـالفضـة البيضـاء لكـن يغتـدى — ذهبـا إذا قـويـت عليـه النـار
تلقـى عليـه فى الخوان جـلالـة — لا تستطيـع تحده الأبصـار
فكـأن بـاطنـه بكفـك درهـم — وكـأن ظـاهـر لـونـه دينـار
مـا كـان أجهلنـا بـواجـب حقـه — لـو لم تبينـه لنـا الأسعـار
إن دام هـذا السعـر فـاعلـم أنـه — لا حبـة تبقـى ولا معيـار (٨٩)

ومـن الأشعار التى قيلـت أثنـاء أحداث « الفنـاء الكبير » ، الـذى قضـى على أعداد كبيرة مـن المصريين وكان بداية للتخلخل الذى بدأ يهز أركان البنيان الاجتماعـى منذ ذلك الحين فصاعدا ماقاله أحد شعراء العصر فى سخرية مريرة :

يـاطـالبـا للمـوت قـم واغتنـم — هـذا أوان الموت مـافـاتـا
قـد رخـص الموت على أهلـه — ومـات مـن لا عمـره مـاتـا (٩٠)

ويضيق بنـا المقام عن محاولة تتبـع الأشعار التى من هـذا النوع ، بيد أن النماذج التى أوردنـاها فى السطور السـابقة يمكن أن تكشـف عن كيفيـة معايشة المصريين لـواقعهم على الرغـم من مـرارة هذا الواقع .

ومن نـاحية أخـرى ، فإن الأوبئة والأزمـات المتوالية فى الشطـر الأخير من عصر المماليـك أضفت مسحة مـن الكآبـة على الحياة اليـومية لجماهير المصريين فـاختفت مظـاهر كثيرة مـن مظاهـر البهجة

---

(٨٨) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٣٥٩ .
(٨٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣٢ . (بولاق)
(٩٠) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٩١ ، يتبع .

والسرور والاهتمام التى كانت تصاحب احتفالاتهم وأعيادهم بحيث تواضعت مظاهر هذه الأعياد والاحتفالات إلى أدنى حدودها (٩١) .

أما النتائج والآثار الاقتصادية لهذه الأوبئة والمجاعات ، فيمكن أن نلمس أهم مظاهرها فى حقيقة تدهور الإنتاج الزراعى ، وما كان ينتج عن ذلك بالضرورة من ارتفاع الأسعار بشكل مطرد ، فضلا عن اختفاء الكثير من السلع الضرورية فى كثير من الأحيان ، مما يجعل الأسباب والنتائج تتشابك فى بعضها البعض بحيث يتعذر الفصل بينهما . إلا أن التدهور الاقتصادى بات واضحاً تمام الوضوح فى قصور الإنتاج الزراعى عن الوفاء بحاجة البلاد من ناحية ، وفى كثرة اختفاء الخبز والقمح بشكل كاد أن يكون سنويا من ناحية أخرى . كما تجلى هذا التدهور الاقتصادى فى انخفاض الإنتاج الصناعى بشكل ملحوظ ، وتقلص النشاط التجارى الداخلى وانكمشت الأسواق تبعا لذلك ، فضلا عن انهيار النظام النقدى واختفاء الذهب والفضة تقريباً فى السنوات الأخيرة من العصر ، وسيطرة العملات الأجنبية على السوق المحلية (٩٢) .

ومن نافلة القول أن نكرر ما سبق أن ذكرناه فى الدراسات السابقة عن مظاهر التدهور الاقتصادى ، ولكننا نكتفى بالإشارة بأن هذا التدهور كان من أسباب الأزمات الاقتصادية والمجاعات المتوالية بقدر ما كان من نتائجها . والحقيقة أن التداخل بين العوامل والنتائج واستمرارها بشكل حلزونى فى متابعة كل منها للأخرى يجعلان من الصعب أن نحدد مدى تأثير السبب فى النتيجة التى لا تلبث أن تصبح من الأسباب المؤدية إلى مزيد من التدهور . وإذا كنا قد عرضنا لبعض النتائج والآثار التى نجمت عن الأوبئة والمجاعات على الصعيد الاجتماعى . فإنه ينبغى أن نشير إلى أن التدهور السكانى والاختلال الاجتماعى كانا أيضا من أسباب المزيد من التدهور الاقتصادى ، وتضاؤل الإنتاجين الزراعى والصناعى .

وفيما يتعلق بتدهور الإنتاج الزراعى ، فإن ذلك يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن إهمال وسائل الرى ، من جسور وترع وغيرهما ، وارتفاع الأراضى الزراعية عن منسوب مياه النهر بدرجة كبيرة (بفعل التراكم المستمر لطمى النيل مع إهمال شبكة الرى) جعلا المساحة التى تروى من مياه

---

(٩١) انظر ما سبق فى دراستنا للأعياد والاحتفالات

(٩٢) تتحدث مصادر عصر المماليك كثيراً عن أوامر السلاطين بمنع تداول العملات الأجنبية سواء الذهبية منها أو الفضية . (انظر على سبيل المثال ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص ٢٠ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، ص ١٢١) كذلك كان التلاعب بأسعار العملة يخلق المزيد من المتاعب ويعقد الأزمة الاقتصادية (ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ١٤٣ ، نزهة النفوس ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ ، ص٢٨٧ ـ ٢٨٩ ، ص ٢٩٠ ، جـ٣ ، ص ٢١٥ ـ ٢١٧ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ١٢١) ولمزيد من المعلومات انظر دراستنا عن الأسواق .

الفيضان تقل تدريجياً . ومـن الجدير بالذكر أن معظم الأرض الزراعية آنـذاك كانت تعتمد على نظام رى الحياض الذى يعتمد على مياه الفيضـان وتزرع الأرض بمحصول واحد فى العام . (٩٣) ومن ناحية أخرى ، فإن توزيع إقطاعات الأمراء فى أنحاء مختلفـة من البلاد ، ثم تغييرها المستمر مع تغير وظائف الأمراء جعلهـم يحرصون على أن يجنوا منهـا أكبر قدر ممكن مـن الأرباح ، دون أن يبـذلوا جهداً يـذكر لتحسين إنتاجيتها أو رعايتهـا ، وهو ما أدى فى النهاية إلى كثير من حـوادث انقطاع الجسور ، وعطش الأراضى وبوار مساحات كبيرة منها .

أمـا الصناعـة ، فقد تسببـت سياسـة سلاطين المماليـك الضريبية الظـالمة ، وطرح البضـائع على الصناع، ثم احتكـار السلاطين لبعض السلع ، فى القضاء على الـرواج الذى كانت تتمتـع به بعض الصناعـات ، وتدهـور أعداد أصحاب الحرف والصنـاعات . كما أن التدهـور الاقتصادى العـام قد اضطر الناس إلى الاكتفاء على الضروريات ، مما أدى بالتالى إلى ضمور وذبول كثير من الصناعات التى ترتبط بالرواج الاقتصادى والرفاهية التى يحيا المجتمع فى ظلها .

وتتفاعل هذه العوامل جميعـا لتخلق مزيداً من الأزمات التى تساهم بدورهـا فى المزيد من التدهور وترتبك أمور السياسة الداخلية ويتخبط الحكـام ويحاولون الحصول على الأموال من شتى الطرق وبكل الوسائل ، فيلجئون إلى الاحتكار فى الداخل وفى الخارج ، ويـزيدون من وطأة الضرائب « المظالم » على الرعية ، ويصادرون أموال كبار الموظفين ، ويستولون على أموال الأوقاف . بيد أن ذلك لا يكفى لسد مطالب المماليـك الذين بات اعتمادهـم على ما يأخذونـه من أموال من السلطـان كبيراً بعد أن صارت الأرض الزراعية غير قـادرة على سد مطالبهم . ويسبـب ذلك كثيراً من الفتن والاضطـرابات ، ويفقد السلاطين سيطرتهم على مقاليد الأمور حتى تصير السلطنة عبئاً يتهرب الجميع من تبعاته .

وهكذا تنهار دولة سلاطين المماليك من الداخل حتى إذا ما دهمتها جيوش آل عثمان الأتراك تسقط بعد معركتين فاصلتين فى مرج دابق والريدانية وبعـض المناوشات ضد شراذم المماليك بقيادة طومانباى الذى يحاول ، عبثاً ، أن يقيم جسداً مات قبل أن يسقط بزمان .

تم بعون الله وحمده

(٩٣) قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ١٨ يتبع .

قائمة المصادر والمراجع

— س . ك : مجموعة وثائق دير سانت كاترين ، نسخة على ميكرو فيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

— ب . أ : مجموعة وثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، نسخة على ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

ابن أيبك الدوادار (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري)

— الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية .

(وهو الجزء الثامن من حوليته « كنز الدرر وجامع الغرر)

— الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر .

(وهو الجزء التاسع من « كنز الدرر » ، نشر هانس روبرت رويمر ، القاهرة ١٩٦٠) .

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري ت ٩٣٠ هـ)

— بدائع الزهور في وقائع الدهور :

(طبعة بولاق ١٣١١ هـ ، جـ ٣ ـ جـ ٥ تحقيق د . محمد مصطفى ، جمعية المستشرقين الألمانية ، القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ م) .

— نشق الأزهار في روض المعطار .

(مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٤٣٩ جغرافيا) .

— نشق الأزهار في عجائب الأقطار .

(نشره لانجلي L . Langlé ، باريس ١٨٠٧)

— نزهة الأمم في الغرائب والحكم

(مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، ١٩٦٣) .

ابن أبي الفضائل (المفضل بن أبي الفضائل) .

— النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .

(نشره بلوشيه E . Blouchet . ضمن مجموعة .

(Patrolagia Orientalis , Toms . XII , XIV , XXII , Paris 1919) .

ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩ هـ)
— معالم القربة فى أحكام الحسبة
(نشره ليفى R . Levey كمبردج ١٩٣٧ م) .
ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب)
— نهاية الرتبة فى طلب الحسبة .
(نشره حسام الدين السمرائى ، بغداد ١٩٦٨)
ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ثم الطنجى .
— تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
(طبعة باريس ١٨٨٠ م ، وطبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٨) .
ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ت ٨٧٤ هـ)
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
(طبعة دار الكتب فى ١٦ جزءاً ، وطبعة كاليفورنيا تحقيق W . Popper
— منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور (٤ أجزاء نشره وليم بوبر ، كاليفورنيا ١٩٣٠) .
ابن تيمية (تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى ت ٨٢٨ هـ)
— الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .
(أربعة أجزاء فى مجلدين ، القاهرة ١٣٢٣ هـ) .
ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ)
— إنباء الغمر بأنباء العمر .
(مخطوط فى جزأين بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٤٧٦ تاريخ وجـ ١ ـ جـ ٣ تحقيق الدكتور حسن حبشى ، المجلس الأعلى لرعاية الشئون الإسلامية ، القاهرة ٦٩ ـ ١٩٧٢ م) .
ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى ت ٧٣٧ هـ) .
— المدخل إلى الشرع الشريف .
(٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٤٨ هـ) .
ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ) .
— المقدمة
(المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣٢١ هـ) .
ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العملائى ت ٨٠٩ هـ)

الانتصار لواسطة عقد الأمصار .
(الجزءان ٤ ، ٥ نشرهما فولر ، بولاق ١٣١٤ هـ)
ابن زين (أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زين القاضى ، القرن التاسع الهجرى) .
— شروط النصارى .
(مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٢٠٩ تيمور)
ابن طلحة (أبو سالم محمد بن طلحة القرشى الوزير ت ٦٥٢ هـ) .
— العقد الفريد للملك السعيد (القاهرة ١٣٠٦ هـ)
ابن ظهيرة (غير معروف بالتحديد) .
— الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة .
(تحقيق ونشر مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩)
ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهرى ت ٨٢٧ هـ) .
— زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك
(باريس ١٨٩٤ م) .
ابن عبد الظاهر (محى الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢ هـ)
— تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور (تحقيق ونشر د . مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١)
— الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (نشره د . عبد العزيز الخويطر) الرياض ١٩٧٦) .
ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ) .
— تاريخ الدول والملوك .
(جـ ٧ ـ جـ ٩ ، نشره د . قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٤٢) .
ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين بن فضل الله العمرى ت ٧٤٩ هـ) .
— التعريف بالمصطلح الشريف . (القاهرة ١٣١٢ هـ) .
ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر ـ ٧٥١ هـ) .
أحكام أهل الذمة .
(نشره د . صبحى الصالح ، دمشق ١٩٦١)
ابن النقاش (أبو إمامة محمد بن على ت ٧٧٣ هـ) .
— المذمة فى استعمال أهل الذمة .
(مخطوط بدار الكتب ، رقم ٣٩٥٢ تاريخ) .
ابن الوردى (زين الدين عمر ت ٧٥٠ هـ) .

— تتمة المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ١٢٨٥ هـ)
— إبراهيم حمادة ـ خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ـ دراسة وتحقيق (القاهرة ١٩٦٣م)
البلاذرى (أحمد بن جهجها بن جابر) .
— فتوح البلدان .
(نشره M . J . Goyé ليدن ١٨٦٦) .
بنيامين التطيلى (الرحالة الربى بنيامين بن يونه التطيلى الأندلسى) .
— رحلة بنيامين .
(ترجمة وتعليق عزرا حداد ، بغداد ١٣٨٤ هـ)
جمال الدين الشيال (دكتور) .
— تاريخ مصر الإسلامية (الجزء الثانى ، دار المعارف ١٩٦٧) .
حسن ظاظا (دكتور) :
— الفكر الدينى الإسرائيلى ـ أطواره ومذاهبه
(معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧١)
الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله) .
— المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الإنشا (مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، رقم ٤٢٠٤٥)
الخطيب الجوهرى (على بن داود الصيرفى) .
— إنباء الهصر بأنباء العصر .
(تحقيق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠)
— نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان .
(تحقيق الدكتور حسن حبشى ، ٣ أجزاء ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤) .
السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٣ هـ) .
— التبر المسبوك فى ذيل السلوك
(بولاق ١٣١٥ هـ)
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) .
— حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . (جزءان ، القاهرة ١٢٩٩ هـ)
— تاريخ الخلفاء
السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ) .

— معيد النعم ومبيد النقم
— (ليدن ١٩٠٨) .
سعيد عاشور (دكتور) .
— العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥)
المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢)
العينى (بدر الدين محمود العينى ت ٨٥٥ هـ) .
— عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان
(مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ)
— السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٦٧
قاسم عبده قاسم (دكتور) :
— أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى
(طبعة ثانية ، دار المعارف ١٩٧٩ م)
— النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
(دار المعارف ١٩٧٨ م) .
— الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث
(بالاشتراك مع د . أحمد الهوارى ، القاهرة ١٩٧٧) .
القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٢١ هـ) .
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا
(١٤ جزءا ، طبعة دار الكتب ابتداء من سنة ١٩١٣)
الكتبى (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على الشهير بالوطواط الكتبى ت ١٢١٨ هـ) .
— مباهج الفكر ومناهج العبر .
(مخطوط فى أربعة أجزاء نسخة مصورة بدار الكتب ، رقم ٣٥٩ علوم طبيعية) .
لويس شيخو :
— المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٢٤ م)
— **ماير (ل . أ) .**
الملابس المملوكية
(ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢)
محمد مصطفى زيادة (دكتور) .
— حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١)
مراد فرج .

— القراءون والربانون (القاهرة ١٩١٨)
المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ) .
— المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠ هـ)
— السلوك لمعرفة دول الملوك .
(جـ ١ ، جـ ٢ نشرهما د . محمد مصطفى زيادة ، جـ ٣ ، جـ ٤ نشرهما د . سيد عاشور ، دار الكتب) .
— الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٨٥ م) .
— المذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك
(نشره د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م) .
— إغاثة الأمة بكشف الغمة .
(نشره د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٦ م)
— النقود القديمة والإسلامية . أو شذور العقود فى أخبار النقود (القسطنطينية ١٢٠٨ هـ) .
النويرى (شهاب الدين بن عبد الوهاب ت ٨٣٣ هـ) .
— نهاية الأرب فى فنون الأدب .
(١٨ جزءاً طبعة دار الكتب المصرية ، وابتداء من جـ ٢٧ مخطوط بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة .

Ahmed Abd Arraziq :
- La femme au temps des Mamlouks en Egypte (Institut Français D'Archeologie Orientale du Caire , 1973 .)
Atiya (A . S .) :
- The Crusades in the Latter Middle Ages (London 1938) .
Ashtor (E .) :
A social and economic history of the Near East in the Middle Ages .
(Collins , London 1976) .
Bosworth (C . E .) :
Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluke Egypt and Syria) .
(reprinted from The Journal of Middle East studies , Jan . 1972) .
Dopp (P . H .) :
L' Egypt au commencement du quanzième siécle (Le Caire 1650)
Giovanni Boccasio :
Decameron (transl . by J . M . Rigg , George Rautledge and son , London 1905) .

Ibraham S . Halkine :
The Arab Jews Literature , An essay in the book published by Finkelstein titled The Jews : Their history culture and religion . (New York) .
Mann (J .) :
The Jewish in Egypt and Palestine under the Fatimid caliphs (2 vols.Oxford 1920)
Norman F . Cantor :
The Medievol History (2 nd ed . New York 1969) .
Rabie (H .) :
The financial system of Egypt (Oxford 1972)

محتويات الكتاب

دراسات

رقم الايداع ٨٢٨٤/ ٩٤
I.S.B.N. 977-09 - 0226 -8

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣